

جامعة دمشق

كلية التربية

علم النفس البيئي

لطلاب السنة الرابعة / علم نفس

جمع هذه المادة العلمية وألف بعض فصولها

مدرسا المقرر:

د. زين دوبا

د. عبد الستار الضاهر

العام الدراسي ٢٠٠٧/٢٠٠٨



الصفحة	فهرس الموضوعات
2	علم النفس البيئي : مبرراته وطبيعته
15	علم النفس البيئي : الخصائص ومناهج البحث
24	التفاعل بين البيئة والسلوك
40	الأسس النظرية لتفسير العلاقة بين البيئة والسلوك
51	أهم العوامل المحددة للسلوك من منظور علم النفس البيئي
64	الاتجاهات النفسية وعلاقتها بالبيئة
85	الإدراك البيئي والمعرفة البيئية
119	الإدارة النفسية - الاجتماعية للمكان:
120	- الإقليمية
143	- الحيز الشخصي
168	- الخصوصية
183	الازدحام "أحد المشكلات البيئية الأكثر خطورة
211	بيئات التعلم

ملاحظة: أرقام الصفحات الواردة في الفهرس هي الأرقام المعتمدة في المتن والمدونة في أعلى الصفحات .

إشارة لا بد منها

- مجموعة الفصول الواردة في هذا المقرر المعد لطلاب السنة الرابعة / اختصاص علم النفس تم جمعها بالاعتماد على المراجع التالية :
- ١-رسالة الماجستير التي تقدم بها الباحث عبد الستار الضاهر إلى كلية التربية جامعة دمشق عام ١٩٩٦ لنيل درجة الماجستير في علم النفس
- ٢-رسالة الدكتوراه التي تقدم بها الباحث عبد الستار الضاهر إلى كلية التربية جامعة دمشق لنيل درجة الدكتوراه في علم النفس
- ٣- كتاب علم النفس البيئي "تفسير نفسي للعلاقة بين البيئة والسلوك البشري" علي عسكر ، محمد الأنصاري ١٩٨٣ دار البحوث العلمية
- ٤- رسالة الدكتوراه التي تقدمت بها الباحثة زين دوبا إلى جامعة عين شمس في القاهرة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم النفسية البيئية
- ٥-رسالة الماجستير التي تقدمت بها الباحثة زين دوبا إلى جامعة عين شمس في القاهرة لنيل درجة الماجستير في علم النفس
- ٦-كتاب علم النفس البيئي : ترجمة عبد اللطيف خليفة و جمعة يوسف ، جامعة الكويت
- ٧-كتاب علم النفس البيئي : جابر عبد الحميد وآخرون ، دار النهضة العربية
- لذلك نرجو عند الحاجة إلى هذه المعلومات الرجوع إلى مصادرنا الأصلية المشار إليها أعلاه والإشارة إلى ذلك وثوثيقه بدقة عند الاقتباس أو النقل منها أو النسخ أو التصوير بأي شكل كان ذلك على شكل ورقي أو الكتروني أو أي شكل آخر
- ونؤكد على أن جميع الحقوق المتعلقة بهذه المادة العلمية محفوظة للمؤلفين

الفصل الأول

عام النفس البيئي
مبّرراته وطبيعته

ازدادت في السنوات الأخيرة وبشكل ملحوظ اهتمامات الانسان بعلم النفس ، وكثر الاقبال في مستويات مختلفة على قراءة كتب الدراسات النفسية ، أو الاتصال والتعامل بشكل أو بآخر مع علم النفس ، واكتسبت كلمات ومصطلحات نفسية مثل « الحرب النفسية » ، « فنون الدعاية والاعلان » ، « قياس اتجاهات الرأي العام » ، « سيكولوجية الأدب » ، « الأهداف السلوكية » وغيرها قوة تأثير لا يستهان بها ليس فقط على المتخصصين في علم النفس والدارسين له بل وأيضا على طلاب العلم والمعرفة في شتى الميادين والمجالات الدراسية .

ولعل هذا الموقف في حد ذاته - تزايد الاهتمام بعلم النفس - مع أسباب أخرى كثيرة غيره ، هو الذي يدعونا لأن نسأل أنفسنا السؤال الأول الذي قد يتبادر الى ذهن أي دارس في أي مجال من مجالات المعرفة ، ما هو هذا العلم الذي نحن بصدد دراسته ، أو بالأحرى ما هو علم النفس ؟

وبصفة عامة يمكن أن نقول « علم النفس هو الدراسة العلمية لسلوك الانسان ولتوافقه مع البيئة » (نجاتي ، ١٩٨٠ ، ص ١٢) .

« علم النفس هو الدراسة العلمية لسلوك الكائنات الحية » (فشقوش واسماعيل ، ١٩٨١ ، ص ١)

« علم النفس هو ذلك الفرع من علوم الحياة الذي يهتم بدراسة ظواهر الحياة

الشعورية » (عيسوي ، ١٩٨١) .

« علم النفس هو دراسة السلوك بغية وصفه والتنبؤ به والتحكم فيه وذلك لفهم حياتنا وحياة الآخرين وتوجيهها وتوجيهها ذكياً والتأثير فيها تأثيراً مرغوباً فيه (منصور وآخرون ، ٧٨) .

في كل من هذه التعريفات وغيرها كثير يتضح لنا أن علم النفس هو علم دراسة السلوك ، والسلوك كنشاط كلي مركب يتضمن الكثير ، بل يتضمن كل حياتنا في الحقيقة ، يتضمن الجوانب الإدراكية المعرفية مثل التعرف على الأسباب المؤدية لظاهرة طبيعية ما ، يتضمن الجوانب الحركية الاجرائية مثل التوقف أمام إشارة المرور أو الكتابة على الآلة الكاتبة ، ويتضمن الجوانب الانفعالية الوجدانية مثل التحمس لموضوع ما أو الشعور بالارتياح لصدور قرار في قضية معينة . هذه الجوانب الثلاث المعرفية ، والحركية ، والوجدانية تشكل كلا مركباً متكاملًا تمثل باختصار كل نشاط يقوم به الإنسان ، تمثل شخصيته ، وهي تمثل في ذات الوقت الموضوع الرئيسي الذي تنصب عليه كلمة الدراسة في علم النفس .

على أن دراسة علم النفس للسلوك إنما تهدف لنفس ما تهدف اليه العلوم الأخرى فاطبة بدراستها للظواهر محل الدراسة فيها ، فعلم النفس يهدف من وراء دراسته للسلوك أن يصل الى فهم السلوك والتنبؤ به وأخيراً ضبطه وتعديله .

ويقصد بفهم السلوك معرفة الأسباب أو المتغيرات التي ترتبط بسلوك الإنسان ، لماذا يختلف سلوك الإنسان من موقف الى آخر ، ولماذا يختلف سلوك اثنين من الأفراد في الموقف الواحد .

كما يقصد بالتنبؤ امكانية تصور أو توقع التغيرات التي قد تطرأ على سلوك شخص ما في ضوء دراستنا لكافة المتغيرات على هذه الشخصية في موقف ما .

وكما يقصد بالضبط أو التعديل توفير الظروف والمحددات التي يمكن في ظلها

توقع الوصول الى سلوك معين مرغوب فيه ، ومن هنا يتضح أن الضبط والتنبؤ هما في حقيقتيهما عمليتان مكملتان لبعضهما ولا يمكن الفصل بينهما بأي حال من الأحوال .

ومن الجدير بالذكر الإشارة الى تحديد موضوع علم النفس ومهامه بالشكل المشار اليه إنما جاء عبر تطور طويل بدءاً من الجهود الأولية للفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين مروراً بالعصور الوسطى وجهود رجال الدين وانتقالاً الى عصر النهضة الأوروبية الحديثة وانتشار الأخذ بالمنهج التجريبي في العلوم الطبيعية على اختلافها والأثر الكبير الذي تركته على دراسات وبحوث علم النفس في شكلها الذي صار يعرف باسم علم النفس الحديث والتي يمكن أن يؤرخ لها اعتباراً من ظهور أول معمل لعلم النفس على يد فونت في ألمانيا ١٨٧٩ وظهور المدارس المختلفة لعلم النفس والتي تتفق في معظمها على تعريف علم النفس على النحو الذي سبق الإشارة اليه .

على أن علم النفس بما انتهى اليه العلماء في تحديد موضوعه وأهدافه لم يقف عند هذا الحد إنما عبر دراسات وبحوث عديدة ومتنوعة ويعد أن تراكمت فيه المعلومات والمعارف والتجارب والتطبيقات في كل اتجاه وصل الى الدرجة التي استلزمت التخصص ولم يعد بالإمكان تناول العلم ككل دونما تخصيص ، وهنا ظهرت فروع علم النفس المختلفة وبرزت مسميات علم النفس العام وعلم النفس التطبيقي ، وفي علم النفس العام برزت فروع ودراسات مثل علم النفس الفسيولوجي ، وعلم النفس الفارق ، ونظريات التعلم ، وبحوث القياس النفسي في مجالات الذكاء ، الشخصية ، الميول ، الاتجاهات والقدرات الخاصة فضلاً عن علم نفس النمو وعلم النفس الاجتماعي وغيرها .

وفي علم النفس التطبيقي برزت فروع ودراسات مثل علم النفس الصناعي ، علم النفس الحربي ، علم النفس التربوي ، علم النفس الجنائي ،

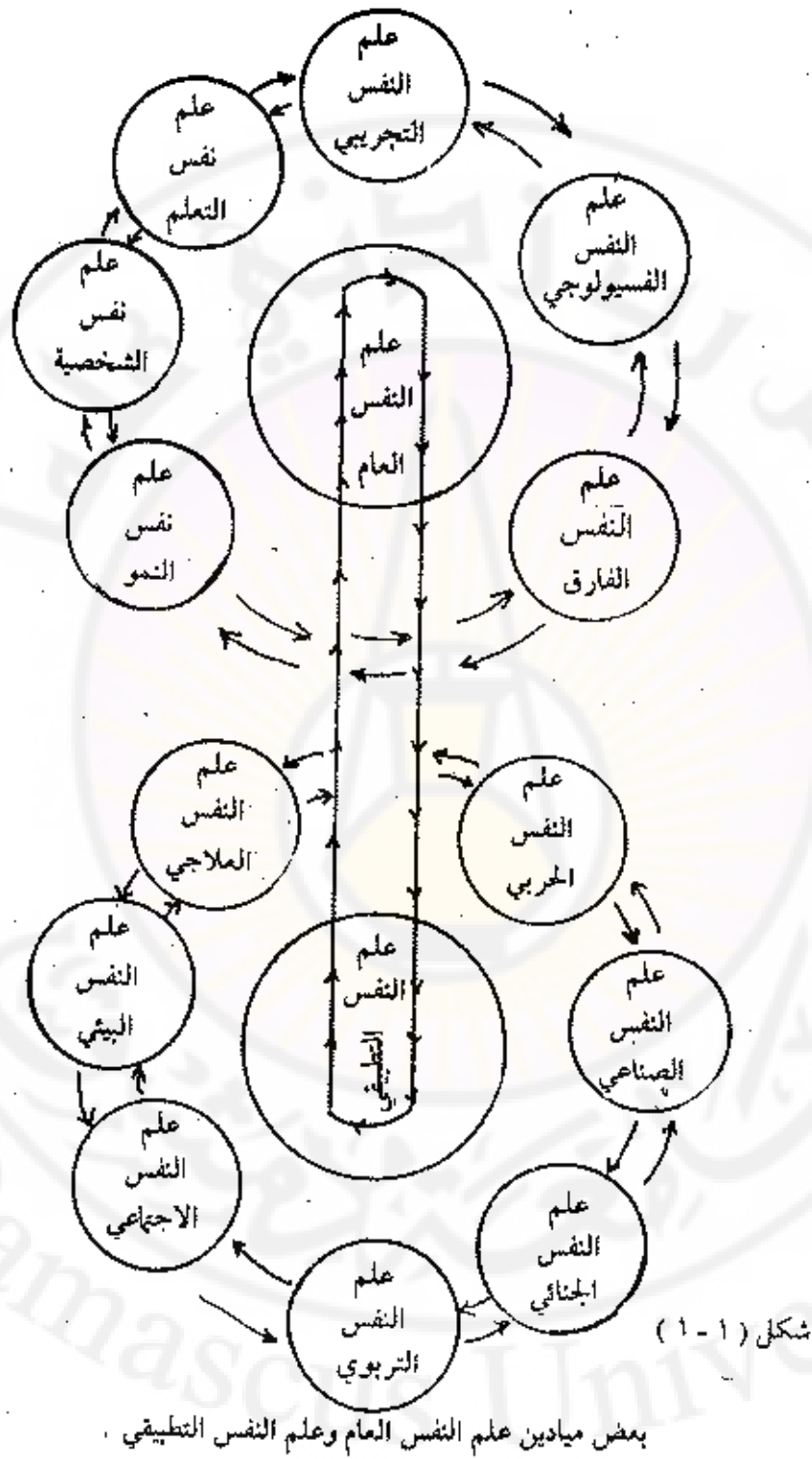
علم النفس التجاري ، علم نفس الدعاية والاعلام وغيرها كثير لدرجة أن هناك متخصصين في علم النفس يركزون في دراساتهم على موضوع الرهائن نظرا للظروف السياسية التي تسود العالم .

والحقيقة أن من ينظر الى بكل من علم النفس العام وعلم النفس التطبيقي بفروعيهما يجد أن الأول يضم بين جنباته كل ما يمثل مجموعة الأسس والمبادئ والقوانين والنظريات التي تعتبر حصيللة البحوث والدراسات المختلفة في علم النفس بينما الثاني يتضمن تطبيق كل من هذه الأسس والمبادئ في مجال من مجالات الحياة المختلفة للبشر بشكل عام ، لكن المهم في هذا التقسيم أنه لا انفصال بين أي من علم النفس العام وعلم النفس التطبيقي فيما يصل اليه علم النفس العام اليوم يطبق غدا في علم النفس التطبيقي وما ينتهي اليه علم النفس التطبيقي في أحد مجالات الحياة يتقل ليضيف شيئا جديدا لعلم النفس العام وهكذا .

ومادونا بصدد الحديث عن فروع علم النفس التي تتزايد يوما بعد يوم استجابة لمتطلبات الحياة المتفجرة بمختلف المواقف والمشكلات التي يصادفها الانسان وكتيجة لزيادة البحث والدراسة والاهتمام بعلم النفس ، فانه يجدر بنا الإشارة إلى نقطتين تلفتان الانظار في هذا المجال :

اولهما : ظهور فروع جديدة بشكل سريع في علم النفس منها ما يعرف مثلا باسم علم نفس الرهائن وذلك استجابة للظروف السياسية والصراعات الدولية المختلفة .

ثانيهما : اعلان أصدرته جمعية علم النفس الأمريكية أخيرا تدعويه المهتمين بالمشاركة في مؤتمر لعلم النفس ، وما يلفت النظر في هذا الاعلان أن الدعوة موجهة للمشاركة في أكثر من ثلاثين تخصص في علم النفس نوردتها فيما يلي بإيجاز :



- ١ - علم النفس العام
- ٢ - تدريس علم النفس
- ٣ - علم النفس التجريبي
- ٤ - القياس والتقويم
- ٥ - علم النفس المقارن
- ٦ - علم نفس النمو
- ٧ - الشخصية
- ٨ - علم النفس الاجتماعي
- ٩ - علم النفس والفن
- ١٠ - علم النفس الاكلينيكي
- ١١ - الارشاد النفسي
- ١٢ - علم النفس الصناعي
- ١٣ - علم النفس الاداري
- ١٤ - علم النفس التربوي
- ١٥ - التوجيه النفسي
- ١٦ - دور الاختصاصي النفسي في الخدمة العامة
- ١٧ - علم النفس الحربي
- ١٨ - علم نفس المراهقة
- ١٩ - جماعة المهندسين النفسيين
- ٢٠ - علم النفس التأهيلي
- ٢١ - علم النفس الاستهلاكي
- ٢٢ - الاسس النظرية والفلسفية لعلم النفس
- ٢٣ - التحليل التجريبي لعلم النفس
- ٢٤ - تاريخ وتطور علم النفس
- ٢٥ - علم نفس المجتمع
- ٢٦ - العلاج النفسي
- ٢٧ - علم نفس التنويم
- ٢٨ - علم النفس الانساني
- ٢٩ - التخلف العقلي
- ٣٠ - علم النفس السكاني
- ٣١ - علم النفس البيئي
- ٣٢ - علم نفس المرأة
- ٣٣ - النفسية المهتمة بالشئون الدينية
- ٣٤ - علم النفس وخدمات الأسرة
- ٣٥ - الصحة النفسية
- ٣٦ - التحليل النفسي
- ٣٧ - علم نفس الأعصاب
- ٣٨ - علم النفس الجنائي

إننا لو تتبعنا الفروع المختلفة لعلم النفس التطبيقي لوجدنا أنها تتزايد بين الفترة والأخرى وبشكل سريع للغاية ، ذلك أن عملية تطبيق الأسس والمبادئ التي يتوصل إليها الباحثون في علم النفس العام في أي من مرافق الحياة المتعددة

ومجالاتها المختلفة هي عملية متطورة ومتجددة باستمرار ، لذا فإننا نشهد من حين لآخر بزوغ فرع جديد من فروع علم النفس التطبيقي ولعل علم نفس الفضاء مثلاً يعتبر أحد الشواهد التي تؤكد هذه المقولة .

ومن بين فروع علم النفس التطبيقي التي برزت في السنوات الأخيرة وذاع صيتها في فترة قصيرة وفي أماكن متعددة من العالم ما يعرف باسم علم النفس البيئي . ولكي يسهل علينا أن نتعرف على هذا الفرع من فروع علم النفس وأن نتدارس طبيعة وأهمية العلم والأسباب أو المبررات أو الافتراضات التي دفعت بعدد غير قليل من المتخصصين في علم النفس وبالذات في علم النفس الاجتماعي دفعت بهم للإهتمام بالدراسة في مجال علم النفس البيئي ، دعونا نستعرض معاً بعضاً من الظواهر التي لفتت أنظار العالم وخاصة العالم الغربي على إهتمامه والتي يسهل أن نستشعر مثلاً لها في حياتنا كل يوم ، وفيما يلي بعضاً من تلك الظواهر :
(Bell et al, 1978)

- تتعرض بعض البيئات لحالات من الجفاف الدوري الذي يصل إلى مستوى تهديد كل الكائنات الحية بها مما يستلزم ضرورة أن يعمل الإنسان ويجد لصيانة مصادر المياه . ويحذر أحد المتخصصين بأنه قد يأتي يوم يضطر فيه الإنسان إلى شرب المياه المستخرجه من المجاري .
- يعاني الإنسان في البيئات المزدهمة من حالة شبه دائمة من القلق والتوتر تنعكس على العمل أو النشاط الذي يقوم به . وتبين الدراسات المختلفة أن هناك ارتباطاً قوياً بين هذا القلق والتوتر شبه الدائم وحالة الازدحام التي يعيشها هذا الإنسان .
- تعج البيئة الحضرية كما نعرفها الآن بالضجيج من هنا وهناك ، هذا الضجيج العالي يقلل من رغبة الإنسان في أن يمد يد المساعدة إلى غيره إذا اقتضت الضرورة ، ذلك وعندما يتواجد نفس هذا الإنسان في بيئة أقل ضجيجاً تزول هذه الصفة عنه ويصبح أكثر قابلية لمساعدة غيره .

● تسمع كثيراً من أفراد عديدين أنهم في شوق للخروج إلى أماكن غير مأهولة ، أنهم تواقون للترويح عن أنفسهم في الحلاء ، أنهم يريدون الابتعاد عن هذا الازدحام الذي يعيشونه ومع ذلك قليل منهم يذهب بالفعل خاصة وحده إذا أتاحت له الفرصة في أن يفعل ذلك .

● تعاني بعض المجتمعات من كثرة المخلفات والنفايات الصناعية كالعلب والأواني والأغلفة بعد استعمالها ، وإعادة تصنيع هذه النفايات لا يعتبر فقط أحد وسائل الحفاظ على نظافة البيئة بل أنه أيضاً مصدر لانتاج جديد يدعم الاقتصاد الوطني فضلاً عن احتياجه طاقة أقل مما لو فكرنا في نفس الانتاج من جديد ، وبالرغم من ذلك فإن تنفيذ خطة تقوم على إعادة تصنيع هذه المخلفات يحتاج في المقام الأول إلى إيجاد دوافع كافية لكي يشارك الناس في مثل هذه الجهود .

● يتأثر الإنسان في أي مكان يعيش فيه بنوعية التخطيط السائد في هذا المكان وهذا ما نلاحظه بصفة خاصة في تخطيط المدن (من حيث الألوان ، المداخل ، المخرج ، المساحات ، التشجير وغيرها) حيث يتحدد بناء عليه وإلى درجة كبيرة تقبل الإنسان الحياة في هذه المدينة والاستمرار فيها من عدمه .

● يكافح الإنسان كما يظهر جلياً الآن ضد عدد من الأضرار الحضارية ذات الصلة بما أحرزه الإنسان من تقدم تكنولوجي ، فالأرض منهكة ، والمياه ملوثة ، والطاقة تتناقص وشبح الدمار الذي يمكن أن يلحق بالأحفاد ماثل في أذهان غير قليل من البشر .

● يواجه الإنسان في أي من المدن المزدهرة مصيراً لا يحسد عليه ذلك أن غازات عادم السيارات ، الجسيمات المتطايرة من نفايات المصانع ، إزدحام المناطق السكنية تحمل له في كل لحظة آثاراً خطيرة على صحته منها على سبيل المثال لا الحصر أول أكسيد الكربون ، ثاني أكسيد الكبريت ، ثاني أكسيد النيتروجين ، المواد الدقيقة ، الهيدروكربونات ، الملوثات الكيميائية الضوئية

المتكونة من أثر الضوء والحرارة واستمرار مثل هذا الانسان في مثل هذه المدينة المزدحمة يعرضه دائما لمزيد من التلوث وآثاره الخطيرة .

● ينزع الشخص العادي غالبا إلى الشعور بالعجز عن القيام بأي عمل يكون من شأنه أن يؤثر تأثيرا حقيقيا على البيئة التي يعيش فيها خاصة في ظل تعقد الحياة العصرية من حوله حيث يرى في الأغلب والاعم أن هذه البيئة التي يعاني منها ، يراها خاضعة لتأثير قوى خارجة عن إرادته تتمثل في العلم والتكنولوجيا والصناعة والحكومة ، والشئ الملفت للنظر أن هذا الشخص لا يعجز فقط عن القيام بعمل مؤثر في البيئة بل أنه في معظم الأحوال يعجز عن أن يربط بين مشكلة بيئية ما يعاني منها وبين الاعتبارات البيئية الأوسع نطاقا .

● في الوقت الذي حذر فيه « نادي روما » من مآزق للجنس البشري قد تتحدر فيه الحياة إلى حالة دون كرامة الجنس البشري نجد أن الرؤيا العلمية في السنوات القادمة قد تبشر بالخير باعتبار أن العلم والتكنولوجيا سوف يكون بإمكانها التقدم نحو حل المشكلات البيئية وإستكشاف الحديد في عمق الأرض وفي الفضاء بما يحقق أحلام المفكرين لمئات وآلاف السنين .

هذه الظواهر التي عرضناها فيما سبق قد تبدو مشتتة ، متفرقة ، لا يجمع بينها رابط فمن عوادم السيارات ، إلى تخطيط المدن ، إلى نفايات المصانع إلى الأرض المنهكة ، إلى آفاق الفضاء ، لكننا لو دققنا النظر فيها جميعا وغيرها كثير لوجدنا أنها تبدأ وتنتهي دوما من البيئة إلى الانسان أو من الانسان إلى البيئة وهذا بالضبط ما شغل عددا كبيرا من علماء النفس الذين لفت نظرهم عظم وخطر النتائج المترتبة على سلوك الانسان موضوع دراستهم الأساسي من طرف المؤثرات البيئية المختلفة وكذلك أهمية الدور الذي يقوم به والذي يمكن أن يؤديه الانسان تجاه هذه المؤثرات البيئية .

لكن ما الذي يمكن ، وما الذي يجب أن يقدمه علم النفس وباحثوه في هذا المجال سواء في تقبل الانسان للبيئة التي يعيش فيها وما تعكسه عليه من مؤثرات أو في محاولاته المستمرة لتغيير هذه البيئة أو التأثير عليها بل وإحيانا تعريضها لما يمكن أن يجعلها غير صالحة لاستخدامها من طرف الانسان . ولناخذ مثالا واحدا يوضح ما نرمي اليه ، يوضح لنا ماذا يمكن أن يقدم علم النفس لكل من البيئة والانسان معا وفي نفس الوقت .

يشكو الكثيرون هنا وهناك من مشكلة التلوث الهوائي وآثاره الخطيرة على الانسان بل وعلى الكائنات الحية جميعا والحقيقة أننا لو دققنا النظر في موضوع التلوث الهوائي لوجدنا أن السلوك البشري (موضوع الدراسة الأساسي في علم النفس) هو المسئول الأول عن معظم ما يتعرض له البشر من آثار التلوث الهوائي فمن السيارات إلى المصانع إلى التدخين وغيرها وهي جميعا بيد الانسان . وسوء أو حسن استخدامها يمكن أن يتعدل وبشكل حاسم عن طريق الانسان . وإذا كان الأمر كذلك فإن ما يعرف في علم النفس وبحوثه المختلفة باسم مبادئ التعلم مثل التعزيز التمييز وغيرها ، وما يعرف عن العلاقة بين الدافعية عند المتعلم وأثرها على نتائج التعلم ، وأهمية اكتساب وتعديل الاتجاهات نحو موضوع التعلم ، كل هذه أمور ذات أهمية بالغة في قبول الانسان لتعديل سلوكه الذي أدى أصلا إلى مشكلة التلوث .

أننا لو استعرضنا بعضا من نتائج الدراسات والبحوث في علم النفس بفروعه المختلفة لوجدنا الكثير من الأمور ذات الصلة بعملية تعديل السلوك البشري بشكل عام إذ تساعدنا مبادئ علم نفس النمو ، علم النفس الاجتماعي ، علم النفس الفسيولوجي (على سبيل المثال لا الحصر) على شرح الآثار السلبية للتلوث بالنسبة للإنسان ، وكذلك فإن دراستنا للاتجاهات وكيفية قياسها وتعديلها ، ودراستنا للجماعات وديناميكيتها وكيفية التأثير عليها ، ودراستنا للشخصية ومكوناتها وأساليب التعامل معها مثل هذه الدراسات كفيلة بأن تزودنا بمقترحات حول

الخطوات الممكنة إتباعها للتقليل من التلوث بشتى مظاهره إن لم يكن القضاء عليه كلياً .

والحقيقة أن مثل هذه الدراسات والبحوث المختلفة في مجالات وفروع علم النفس المتعددة وإمكانيات إستخدامها في تعديل سلوك الانسان بما يعود عليه وعلى بيئته بالنفع والفائدة ، مثل هذه البحوث لا تقتصر فائدتها على تحقيق علاقة أمثل بين الانسان والبيئة بل إنها توفر للباحثين في مجالات علم النفس المختلفة معرفة تطبيقية أوسع حول العلاقات بين السلوك والبيئة بجانب حصولهم على معلومات قيمة عن النماذج النظرية للسلوك البشري .

ولهذا فإن الدراسات التي تنصب على السلوك والبيئة أو تلك البحوث التي اصطلاح على تسميتها بعلم النفس البيئي ليس علماً تطبيقياً أو عملياً فحسب بل إنه مجال دراسة أو فرع جديد من فروع علم النفس يزود مجالات علم النفس التقليدية بالتجاهات ذات معنى وذات دلالة تجعله مجالاً دراسياً يستحق كل الاهتمام والتقدير .

إننا بعد أن إستعرضنا في لمحة سريعة ، فكرة عامة عن موضوع علم النفس وميادينه ، وبعد أن أوضحنا بالأمثلة والمواقف الحياتية أهمية وجدوى الدراسة بل وضرورتها في مجال البيئة والسلوك نجد لزاماً علينا أن نقدم تعريفاً يحدد ماهية علم النفس البيئي وموضوعه ، ولكي يتسنى لنا ذلك نحدد الإشارة إلى البدايات الأولى لهذا العلم .

يرجع تاريخ الدراسة العلمية لتأثير البيئة على السلوك الى بداية ظهور علم النفس كعلم ، حيث كان علماء النفس الطبيعيين في القرن التاسع عشر يقومون بدراسة تأثير بعض المثيرات البيئية كالضوء والصوت على الإدراك عند الانسان .

ومع ظهور حركة السلوكيين في الربع الأول من هذا القرن بدأ علماء النفس بدراسة التغيرات التي تطرأ على أداء الانسان في موقف ما من جراء تأثير عدد من

المثيرات البيئية المحددة ، وهذه الدراسات أدت إلى أن يقترح لوين Lewin معادلته التي مفادها أن السلوك هو نتيجة تفاعل الشخصية مع البيئة وهو يقصد هنا بالبيئة العوامل المحيطة بالفرد .

وفي الفترة ما بين ١٩٤٠ إلى مطلع السبعينات بدأت مجموعات كثيرة من الباحثين في علم النفس بدراسة تأثير الظواهر البيئية كالحرارة والضجيج والازدحام على الأداء البشري بصفة عامة وعلى كفاءة الإنسان في العمل بصفة خاصة .

ومع أن هذه الدراسات ركزت على تأثير البيئة على السلوك ، إلا أن هؤلاء الباحثين لم يعلنوا بأنهم يدرسون أو يبحثون في مجال علم النفس البيئي بل غالباً ما كانت نتائج بحوثهم ودراساتهم ترد إما في مجال علم النفس الاجتماعي أو في مجال دراسات الوراثة والبيئة وعلاقة كل منهما بالنمو أو بالتعلم أو ما شابه ذلك ، ولم تظهر تسمية أو مصطلح علم النفس البيئي إلا بعد أن قام عدد من الباحثين بدراسة لاحظوا من خلالها مدى تأثير تغيير البيئة على السلوك وكان ذلك في أحد المستشفيات الأمريكية ، حيث لاحظ برونشسكي وزملاؤه Proshansky, Sommer, Littelson لاحظوا أن تصميم البيئة المشيدة وعلى سبيل المثال ترتيب الأثاث في أحد المصحات العقلية له تأثير على سلوك النزلاء بهذا المكان .

وخلال الستينات تقريباً إنطلقت وتتابع المؤشرات على بزوغ علم النفس البيئي وخاصة في المجتمع الأمريكي ومن هذه المؤشرات :

- أقدمت بعض أقسام علم النفس بالجامعات وأولهم جامعة مدينة نيويورك City of New York على وضع وتقديم برامج متكاملة ضمن مقرراتها الدراسية الرسمية عن علم النفس البيئي ، بل وقدم بعضها مقررات دراسية كاملة عن الموضوع - إصدار النشرات والمجلات والدوريات التي تتصل بالموضوع وعلى سبيل المثال « البيئة والسلوك Environment and Behavior في كل من أمريكا وإنجلترا .

- إنشاء بعض الجمعيات ذات الاهتمام بالموضوع مثل جمعية تصميم البحوث البيئية ورابطة دراسة العلاقة بين الانسان والبيئة .

- إعتراف الجمعية الأمريكية لعلم النفس إعترافا مزدوجا بكل من علم النفس البيئي مرتبطا مع علم النفس السكاني (Bell et al, 78)

لكن ما المقصود بمصطلح علم النفس البيئي كما ظهر عبر هذا التطور والتخصص ، هناك في الحقيقة أكثر من تعريف منها على سبيل المثال :

- علم النفس البيئي هو علم دراسة الانسان في واقعه المادي (Kantowitz, 1977) ويشاركه في نفس المعنى تقريبا (Helmstra, McFarling 1974)

- علم النفس البيئي هو علم دراسة العلاقة المتبادلة بين السلوك والبيئة الطبيعية والبيئة المشيدة (Bell et al, 1978)

- علم النفس البيئي هو علم دراسة العلاقة (نظريا وتطبيقيا) بين سلوك وخبرة الشخص وبيئته المشيدة (Proshansky 1976)

من هذه التعريفات يتضح لنا أن علم النفس البيئي هو علم الدراسة العلمية للعلاقة المتبادلة بين السلوك والبيئة الطبيعية والمشيدة . وهذا رغم ما في هذه التعريفات من اختلاف حول أي من البيئات يمكن أن يهتم بها هذا العلم هل البيئة الطبيعية أم البيئة المشيدة ، هل الدراسة نظريا أم تطبيقيا إلا أن العلم في نشأته عادة ما يحمل مثل هذا الاختلاف في وجهات نظر الباحثين حتى يستقر على تعريف .

تلخيص

- يمكن ايجاز أهم النقاط التي تضمنها هذا الفصل في :
 - علم النفس هو الدراسة العلمية لسلوك الانسان وتوافقه مع البيئة .
 - تحديد موضوع علم النفس ومهامه جاء عبر تطور طويل بدءا بالفلاسفة ومرورا بالاتجاهات التجريبية وصولا الى القضايا المعاصرة في علم النفس
 - يتضمن علم النفس مجالين رئيسيين لكل منهما فروع المستقلة وهما مجال علم النفس العام ومجال علم النفس التطبيقي .
 - من أحدث فروع علم النفس التطبيقي برز في الآونة الأخيرة علم النفس البيئي .
 - علم النفس البيئي هو علم دراسة العلاقة المتبادلة بين السلوك والبيئة الطبيعية كانت أم مشيدة .
 - يدخل علم النفس البيئي مع علم النفس السكاني في تصنيف واحد لفروع علم النفس المختلفة .

أنشطة مقترحة

- قارن بين أربعة تعريفات مختلفة لعلم النفس بالاستعانة بعدد من المراجع
- وجه سؤالاً مفتوحاً لما لا يقل عن عشرة أفراد تختارهم حول ما يدركونه عن علم النفس ، لخص نتائج ما تحصل عليه من اجابات .
- استعن بالمراجع الأساسية في علم النفس وحاول التعرف على الفروع المختلفة لعلم النفس .
- تابع المجلات والصحف اليومية لمدة شهر ، واستعرض ما يكتب عن البيئة ، استنتج علاقة سلوك الانسان بما قرأته عن البيئة .

الفصل الثاني

عام النفس البيئي
الخصائص ومناهج البحث

إنتهينا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى أن علم النفس البيئي هو علم الدراسة العلمية للعلاقة المتبادلة بين السلوك والبيئة سواء كانت بيئة طبيعية أم بيئة مشيدة ، وإنتهينا كذلك إلى أن هذا العلم لم يبرز بشكل محدد بين فروع علم النفس الأخرى على اختلاف موضوعاتها إلا منذ عقد أو أكثر من الزمان تقريباً .

وهذا ما يجعلنا نساءل عما إذا كان ظهور علم النفس البيئي راجع إلى ما اتفق عليه الباحثون فيه كتعريف له وتحديد لموضوعه أم أن بروزه يرجع فيما يرجع إلى أسباب أخرى يمكن التعرف عليها .

والحقيقة أن ظهور علم النفس البيئي لا يرجع فقط إلى الاتفاق على تعريف أو تحديد لموضوع الدراسة فيه إنما يرجع إلى عدد من الخصائص التي برزت واتضح خلال البحث في العديد من الموضوعات ذات الصلة بالعلاقة بين السلوك والبيئة وكذلك إلى طرق وأساليب البحث التي إتبعها الباحثون الأول في هذا المجال والتي بدأت تستقر كمناهج محددة للبحث في هذا الفرع من فروع علم النفس ، ومن هنا فإن التعرف على خصائص علم النفس البيئي ومناهج البحث فيه تعتبر محور دراستنا في هذا الفصل .

أولاً : خصائص علم النفس البيئي :

١ - دراسة العلاقة بين البيئة والسلوك كوحدة :

لقد دأب العديد من الباحثين خاصة في الدراسات التقليدية في علم النفس

على تناول موضوعات مثل الإدراك والإحساس ، موضوعات مثل المثير والاستجابة على أساس أن كل منها منفصل عن الآخر أو أنه يمكن على الأقل فصل كل منها عن الآخر حيث يمكن دراسة الاستجابة لمثير ما أو إدراك مثير ما بمعزل عن المثير نفسه وحيث أن كلا من عملية الاستجابة للمثير أو إدراك المثير لها خصائص تختلف بشكل أو بآخر عما يتضمنه المثير من خصائص في حد ذاته .

في علم النفس البيئي الأمر مختلف حيث تتضح باستمرار خاصية التركيز على دراسة أثر البيئة على السلوك وأثر السلوك على البيئة أو قل التفاعل بين البيئة والسلوك على أساس أن البيئة والسلوك وحدة واحدة لا يجوز الفصل بينهما .

ولنضرب لذلك مثلاً ، لو أخذنا مدينة صناعية ما وأردنا أن ندرس لأثر موقف من مواقف الحياة اليومية فيها على إدراك شخص أو أكثر من المقيمين فيها فإن دراستنا للعلاقة بين عناصر هذا الموقف ومدرجات هذا الشخص لا ينبغي أبداً أن نتوقف على المثيرات المتفرقة في هذا الموقف إنما لا بد وأن تمتد إلى طبيعة هذه المثيرات وقدمها أو حداثتها وعدد مرات تكرارها ومدى تعقدتها أو بساطتها ، وضوحها أو غموضها ، حركتها أو ثباتها ، والتفاعلات الحادثة بينها ليس هذا فحسب بل إن دراستنا في الوقت نفسه لا بد وأن تمتد إلى الشخص المدرك ، خبراته ، السابقة بمثل هذا الموقف ، هل يستطيع تحليل مثل هذا الموقف إلى جزئياته ، هل له ارتباطات حسية تمثل هذه المثيرات ، مدة إقامته في المدينة ، حاجته لأن يخرج من هذا الموقف بشيء ما ، خصائصه الشخصية التي يمكن أن تساعد أو تحول بينه وبين فهم مثل هذا الموقف ، كل هذه النقاط - وهي بالفعل عديدة ومتشعبة ، تكون بالنسبة لعلم النفس البيئي وحدة كلية للسلوك البيئي - الإدراكي ومن هنا فإن علم النفس البيئي لا يتناول دراسة البيئة النفسية بمعزل عن السلوك كما لا يتناول السلوك بمعزل عن المثير البيئي ، حيث البيئة والسلوك وحدة كلية واحدة .

ولكي تزداد هذه الخاصية رسوخاً في أذهاننا فإننا نستعرض المثال التالي :

بالنسبة لعلم النفس البيئي فإن المكان المزدحم لا يمثل مجموعات من البشر تعرقل بعضها بعضا بل أنه في الحقيقة يمثل مجموعات من البشر تتفاعل مع بعضها البعض والبيئة التي يعيشونها هي التي تحدد نوع ذلك التفاعل .

٢ - البيئة والسلوك بينهما علاقة متبادلة :

كثيرا ما يطرح البعض التساؤل حول أثر البيئة على السلوك أو حول أثر السلوك على البيئة بشكل يقود الى الوقوع في الخطأ فهذا البعض عندما يتساءل هل يخضع سلوك الانسان لتأثيرات البيئة وهل تخضع البيئة لتأثيرات سلوك الانسان ومن يؤثر في الآخر أكثر، كأنهم يفترضون ضرورة أن يكون هناك مستقل وتابع في العلاقة بين السلوك والبيئة أو أن يكون هناك بمعنى أبسط غالب ومغلوب والأمر لا يمكن أن يكون يمثل هذه البساطة الفجة فالعلاقة بين البيئة والسلوك علاقة متبادلة كل منهما يؤثر في الآخر في نفس الوقت واختلاف درجة التأثير من موقف لآخر لا ينبغي التناقص المتبادل دائما بينهما وأوضح مثال على ذلك نراه في البيئة التي يمكن أن توفر للانسان مصادر معينة من الطاقة تكفي لكي يأخذ منها ما يريد . أن مثل هذه البيئة تحدد أنماطا معينة من السلوك الاستهلاكي بالنسبة للطاقة لدى من يعيشون فيها ، وهذا ما يوضح أثر البيئة على السلوك لكن في الوقت نفسه أن هذه الأنماط من السلوك الاستهلاكي لدى الانسان في مثل هذه البيئة هو الذي يحدد حجم ونوع واثار التلوث الذي ينشأ عن هذه الأنماط من السلوك الاستهلاكي للطاقة وهذا ما يوضح أثر السلوك على البيئة . ففي موقف واحد كهذا يتضح لنا أن البيئة تؤثر على السلوك وهو بدوره وفي نفس الوقت يؤثر على البيئة فالعلاقة بينهما علاقة متبادلة ويمكننا أن نلمس في حياتنا ومن حولنا وفي كل يوم آلاف الأمثلة التي تؤكد على ذلك .

٣ - البحوث العلمية - في علم النفس البيئي - لها أهداف نظرية وتطبيقية في آن واحد :

جرت العادة في بحوث علم النفس عامة بل وفي علوم أخرى كثيرة على القيام

بالبحوث العلمية الأساسية أو الأولية التي يناط بها وضع أساسيات العلم وبناء نظرياته. وهذه البحوث ليست بحوثاً نظرية فحسب بل تسعى أولاً وقبل كل شيء إلى أن تكون لبنة في البناء النظري لهذا الفرع أو ذاك من فروع العلم ، ويصرف النظر عما إذا كانت هذه البحوث يمكن أن تؤدي أو لا تؤدي إلى تحقيق حل علمي لمشكلة عملية ما، إذ أن هذه البحوث لم تكن توضع في حسابها أن تكون حلول أي من المشكلات العملية القائمة هدفها .

في علم النفس البيئي - حتى الآن - الأمر مختلف بالفعل عن بقية فروع علم النفس الأخرى وكذلك عن كثير من العلوم من حيث ما يستهدفه الباحثون فيه من بحوثهم العلمية ومن حيث توجههم في اختيار مجالات هذه البحوث وكذلك من حيث نظرتهم لنتائج هذه البحوث وتقييمهم لها . ففي علم النفس البيئي لا يوجد هذا الفصل بين ما هو نظري وما هو تطبيقي ، وإذا كان علم النفس البيئي يتميز بأنه ينظر إلى البيئة والسلوك كوحدة كلية واحدة فإن نفس الخاصية نجدها هنا حيث لا يوجد الفصل بل توجد دائماً النظرة إلى البحوث بجانبها النظري والتطبيقي كوحدة واحدة لا انفصال فيها .

لكن ما المقصود بالضبط بهذا الاتصال بين ما هو نظري وما هو تطبيقي في بحوث علم النفس البيئي ، إن هذا الاتصال يعني في حقيقته أن معظم البحوث في ميدان علم النفس البيئي تتناول بالفعل المشكلات العملية القائمة بهدف الوصول إلى حلول علمية لها ومن خلال دراسة المشكلات العملية يمكن أن تتوفر المعلومات النظرية كما يمكن الوصول إلى تفسير لأي من الظواهر الكامنة في هذه المشكلات كما يمكن التعرف على علاقات السبب والنتيجة التي تساعد على تحليل أي من هذه المشكلات . وبهذا الشكل فإن الباحثين في مجال علم النفس البيئي يقومون بالبناء النظري لعلمهم وهم في سياق بحثهم ودراساتهم للمواقف والمشكلات العملية التي يرون أنها تدخل في نطاق الدراسة العلمية للعلاقة المتبادلة بين البيئة والسلوك وهو الموضوع الأساسي لعلم النفس البيئي . وهذا ما يدفع البعض لاعتبار علم النفس

البيئي علما تطبيقيا بسبب بروزه كعلم في ضوء المشكلات العملية والواقعية الناتجة عن طبيعة العصر الذي يعيشه الإنسان .

٤ - الإهتمام بالبيئة الطبيعية والبيئة المشيدة بصفة خاصة :

تتمركز الدراسات والبحوث الأساسية في علم النفس البيئي حول التأثير المتبادل بين سلوك الإنسان وكل من البيئة الطبيعية والبيئة المشيدة التي يصدر فيها هذا السلوك ، فالبيئة الطبيعية بما تحويه من ظروف مناخية أو مصادر ثروات طبيعية أو سهول وجبال وغيرها تلك البيئة البكر توحى للإنسان بما يعمل بل وكيف يعيش في أغلب الأحوال ، كما أن البيئة المشيدة بما استطاع الإنسان أن يضع فيها من عصارة جهده وفكره ومشكلة على هيئة مدن وملاعب ومدارس وغيرها ترسم هي الأخرى للإنسان حدود سلوكه وماله وما عليه تجاه كل منها .

وبالرغم من تركيز علم النفس البيئي على أثر البيئة الطبيعية والمشيدة على سلوك الإنسان إلا أنه ليس بمستطاع على الإطلاق صرف النظر عن دور العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين البشر في كل من البيئتين الطبيعية والمشيدة والتي تشكل نسجاً متصلاً يعتبر بمثابة الغلاف الخارجي الذي يحيط بكل من الإنسان والبيئة التي يعيش فيها طبيعية كانت أم مشيدة .

وعلى سبيل المثال فإن علم النفس البيئي عندما يتعرض لدراسة حول أثر المكان على سلوك الإنسان في مدرسة مثلاً أو في مستشفى فإن الدراسة هنا لا تدور فقط حول اتساع المبنى أو تنسيقه أو وفائه بحاجات ومتطلبات من يستخدمونه بل إن طبيعة العلاقات التي تنشأ بين كل فرد وآخر ممن يستخدمون هذا المكان تتدخل كذلك لتشكيل محورا رئيسيا في مثل تلك الدراسة .

وليست العلاقات بين الأفراد فحسب بل إن ما لدى هؤلاء الأفراد من دوافع وإتجاهات وقيم كامنة وراء التفاعل بينهم تتدخل كجوانب رئيسة في إهتمامات

البحوث والدراسات التي تجري في إطار علم النفس البيئي . وهذا ما يفسر قولنا أن علم النفس البيئي إنما يدرس العلاقة بين السلوك والبيئة كوحدة كلية .

٥ - إعتاد علم النفس البيئي على أكثر من علم أو اختصاص في تكوين المفاهيم الخاصة به :

إن طبيعة العلم غالباً ما تفرض الاتجاه الذي يتخذه هذا العلم في معارفه وهذا ما يتضح لنا بشكل جلي عندما ندرك أن طبيعة علم النفس البيئي من حيث هو علم الدراسة العلمية للعلاقة المتبادلة بين السلوك والبيئة هي التي أملت عليه الأخذ باتجاه المعرفة المتكاملة حيث لا يتسنى للبحوث المختلفة في ميادين البيئة والسلوك أن تصل إلى تفسيرات للظواهر البيئية النفسية إلا باستخدام كل ما يمكن وما يتوافر من الأنظمة المعرفية المتداخلة والتي يمكن أن تساعد في تحليل مثل هذه الظواهر .

والأمثلة على حاجة علم النفس البيئي لمثل هذا التكامل بين الأنظمة المعرفية تتجسد في عملية الإدراك البيئي ذات العلاقة بعمل مخططي المدن ، والمهندسين المدنيين وغيرهم ، ومثال آخر يتضح إذا درسنا تأثير مشيرات من حرارة وضوضاء وغيرها على السلوك حيث نجد أنفسنا في حاجة إلى معارف كل المختصين في الصناعة والقانون والهندسة والمسؤولين عن المستشفيات والمدارس وغيرها . ولو نظرنا إلى عملية مثل عملية تصميم البيئة لوجدنا أن الأطراف المشاركة فيها لا تقتصر على مهندس التصميم البيئي بل إن الفنانين التشكيليين وخصائص تنظيم المرور والانتروبولوجيين وغيرهم لكل منهم أهمية خاصة في الموضوع . فإذا ما إنتقلنا إلى قضية بالغة الأهمية بالنسبة لعلم النفس البيئي مثل قضية تغيير الاتجاهات نحو البيئة وجدنا أننا في حاجة إلى معارف كل شخص واع ومهتم بإيجاد بيئة أفضل ، شخص يعرف أخطار التلوث ويقدر ما يصيب الثروات الطبيعية من تناقض في كل يوم بل في كل لحظة .

من هذه الأمثلة وغيرها كثير يتضح لنا أن قيام الباحثين في علم النفس البيئي بدراساتهم حول البيئة والسلوك والعلاقة المتبادلة بينهما هو الذي يفرض ضرورة الأخذ بالمعرفة المتكاملة أساساً لتفسير الظواهر محل بحثهم ، وما يلفت النظر هنا هو أن أخذ علم النفس البيئي بالأنظمة المعرفية المتكاملة لم يثمر فقط في مجال علم النفس البيئي بل أننا نلمس أن هناك بداية لشيوع هذا الاتجاه التكاملي في المعرفة في علم الاجتماع الحضري ، البيولوجيا الاجتماعية ، الجغرافيا السلوكية ، الأنثروبولوجيا الحضرية وغير ذلك من الميادين الجديدة في المعرفة الانسانية عامة .

٦ - لعلم النفس الاجتماعي منزلة خاصة في بحوث علم النفس البيئي :

تتضح لنا هذه الخاصية عندما نتابع أو نتعرف على طرق البحث المتبعة في علم النفس البيئي ذلك أنه يسهل علينا أن نكتشف - وهذا ما سوف نتعرض له فيما بعد - أن بحوث ودراسات علم النفس البيئي تستخدم كل ما هو متاح من طرق البحث العلمي المعروفة أو قل أنها تستخدم المنهج العلمي الشمولي عند التعرض لدراسة مشكلة ما من مشكلات البيئة والسلوك .

وبالرغم من استخدام علم النفس البيئي للمنهج العلمي الشمولي إلا أن هذا لا يمنع بروز تلك الصلة الوثيقة وهذا التقارب الكبير بين علم النفس البيئي الاجتماعي وعلم النفس البيئي ، ذلك أنه ما من ظاهرة بيئية نفسية إلا وتتضمن أنماطاً من السلوك الاجتماعي ، كذلك فإن تكوين الاتجاهات البيئية وتغييرها ينتمي إلى دراسة الاتجاهات كأحد الموضوعات الرئيسية في علم النفس الاجتماعي وفي نفس الوقت فإن العوامل البيئية الطبيعية تؤثر على السلوك الاجتماعي كالعُدوان والتواد والانجاز وغيرها . هذه الصلة وهذا الترابط الوثيق بين علم النفس البيئي وعلم النفس الاجتماعي لم يقتصر على ما أفاد به علم النفس البيئي من الدراسات والبحوث السابقة في علم النفس الاجتماعي بل أننا نجد أن معظم البارزين في علم

النفس البيئي هم ممن نشأوا أصلاً في مجال الدراسات في علم النفس الاجتماعي ،
ولعل أبرز مثال على ذلك هو في حالة أروين التمان ، وهارولد بروشنسكي رغم ما
نشأ بينهما من خلاف في الرأي هو إمكانية وصلاحيّة استخدام مناهج البحث في
علم النفس الاجتماعي في تطوير البحوث والدراسات في مجال علم النفس البيئي .



التفاعل بين السلوك والبيئة

تمهيد :

لقد تعددت الآراء حول السلوك الإنساني في علاقته بالبيئة وقد حدد "جلاكين" ثلاثة أشكال لهذه العلاقة على النحو التالي :

١- فكرة التأثير البيئي ٢- فكرة الإنسان عاملاً جغرافياً ٣- فكرة الأرض المصممة التي تعبر عن الاتساق بين الإنسان و البيئة .

وقد وجد "كلوكهوهن"، و"ستروديك" أن هذه العلاقة تتمثل في ثلاث اتجاهات :

١- خضوع الإنسان للطبيعة

٢- سيطرة الإنسان على الطبيعة

٣- الانسجام مع الطبيعة

وبتفسير هذه المفاهيم المتقاربة تفسيراً سلوكياً نجد أنها تشير إلى :

المفهوم الأول - العوامل البيئية متغيرات مستقلة، والسلوك الإنساني متغير تابع .

المفهوم الثاني - السلوك الإنساني متغيراً مستقلاً، والتغيرات في البيئة متغيرات تابعة.

المفهوم الثالث - التوازن بين متغيرات السلوك ومتغيرات البيئة .

و تجدر الإشارة هنا إلى أن العلاقة بين السلوك و البيئة ليست بسيطة بل هي ديناميكية معقدة فيها الكثير من العمليات النفسية التي تحكم هذا التفاعل .

فالبيئة عملية مستمرة نشطة، كلية، تتفاعل مكوناتها مع بعضها و يتفاعل معها الإنسان في كل متكامل لا يتصل، فتكون الأفعال السلوكية للإنسان هي نتاج للتفاعل الكلي للموقف الإنسان - البيئة وليست خاصة بالإنسان وحده. (مجلة العلوم الاجتماعية، العدد : ٢، مجلد (١٣)، ١٩٨٥، ص: ١٤٧-١٤٨) .

وتعني العلاقة بين السلوك والبيئة، الارتباط الوظيفي للسلوك بخصائص البيئة المحيطة به على أشكال متعددة فيحدث السلوك في بيئة محددة تفرض عليه قواعد وقيود محددة، كما يحدث من خلاف بين سكان القرية و سكان المدينة فالبيئة تحدد كيفية ونوع السلوك الحادث . (جابر وأخرون، ١٩٩١، ص: ١٠)

لقد تطور علم النفس البيئي، بشكل مرتبط مع طبيعة التغيرات التكنولوجية والسكانية والمشكلات البيئية الملحة، ويرتبط أيضاً بضرورة العمل على إقرار علاقة متوازنة بين الإنسان والبيئة . و يعني علم النفس البيئي بالدراسة العلمية للعلاقة المتبادلة بين السلوك والبيئة

(الطبيعة، والمشيدة)، وهو في حقيقته توظيف لنظريات وقوانين وطرق علم النفس في دراسة علاقة السلوك بالبيئة (مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩٨٥، مرجع سابق، ص: ١٤٨). وقد حدد (جابر، ١٩٩١) المقصود بالبيئة بأنه كل ما يحيط بالإنسان ويدخل ضمن نطاق إدراكه، ويشتمل على البيئة كما هي في الطبيعة والتي لم يصلها تدخل الإنسان، مضافاً إليها البيئة التي عدلها الإنسان وأثر بها أي البيئة "المشيدة". أما السلوك فقد حدده بأنه: جميع أشكال النشاط الإنساني القابل للملاحظة بشكل مباشر أو غير مباشر، والتي قد يضطر الملاحظ فيها إلى استعمال الأدوات التي تمكنه من تحديد متغيرات السلوك بشكل مناسب. فيتراوح السلوك بين النشاط الظاهر الذي يمكن ملاحظته كما في السلوك الحركي، والنشاط الإشاري أو الرمزي كما في العمليات العقلية، والنفسية التي يستدل عليها من آثارها. (جابر، ١٩٩١، ص: ١٠).

وقد اتخذ مجال علم النفس البشري في تطوره، والذي نشأ بعد الثورة الزراعية والثورة الصناعية والتجور السكاني الهائل، هذه الأحداث الكبرى التي غيرت علاقة الإنسان مع البيئة وأدت إلى بداية ظهور المشكلات البيئية بشكل يدعو إلى وجود حاجة ملحة لمعالجتها - تطور مجال هذا العلم - بأشكال متعددة أهمها :

١- دراسة السلوك في محيطه العام مؤثراً ومتأثراً فيه وبما يحثونه من عوامل نفسية تؤدي إلى هذا التفاعل والتبادل بين الإنسان وبيئته .

٢- الدراسة التطبيقية للسلوك، وذلك بدراسة أسباب السلوك في بيئته وما ينتج عنه من مشكلات، وتحديد آثار هذه المشكلات البيئية والاجتماعية ووضع الحلول المناسبة لها في ضوء المبادئ النفسية للسلوك .

٣- التنوع بالطريقة، وذلك لخصوصية ميدان علم النفس البشري، وحاجته إلى الطرق المعملية والميدانية، والمسوحات العامة، وطرق الملاحظة المختلفة في الطبيعة حتى يتمكن من إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات المطروحة .

٤- التنوع في مستوى المشكلات المطروحة، فقد تكون مصغرة (تشتمل على مصنع) مثلاً أو متوسطة، (تصميم المنازل وأثره على البيئة والبشر) أو كبيرة، (كتصميم المدينة أو الإقليم وكيفية إدارته) .

٥- الاعتماد على نظريات متعددة، ومفاهيم ومبادئ مستمدة من علم النفس والعلوم الأخرى، وذلك للنقص في التراث النظري لهذا المجال. (جابر، ١٩٩١، ص: ٢٥)

المضامين البيئية والسلوكية في بعض النظريات النفسية :

• من أجل التوصل إلى نظرة شاملة للجوانب البيئية والسلوكية في بعض النظريات النفسية الرنوسة أثناء تفسيرها لعلاقة الإنسان مع بيئته سيعرض الباحث لجانبي البيئة والسلوك

في بعض هذه النظريات دون التعرض لجميع جوانب هذه النظريات كونها لا تعد محور هذا البحث .

أولاً - نظرية بافلوف في التعلم الشرطي :

إن الآثار التي تركها "بافلوف" في علم النفس ودراسة السلوك البشري تعد عميقة، بحيث حررت علم النفس التجريبي من أوهام وخرافات الماضي المثالية وفتحت الأفاق الواسعة لدراسة السلوك البشري البسيط والمعقد. وأسهمت هذه النظرية في مجال التعلم والتعليم، وفي تكيف الإنسان مع بيئته وذاته بواسطة الفعل المنعكس الشرطي الذي تحكمه قوانين مختلفة، حتى تتم عملية الاقتران الشرطي (التعميم، التمييز، التعزيز ...). (منصور، ١٩٩٢، ص: ٢٣٧-٢٤٠).

وبعد التعزيز حسب الإشراف البافلوفي التقليدي واحداً من سياقات التعلم التي يمكن أن تتدخل في تعزيز الروابط بين الإنسان ومحيطه، ويقوي التعزيز عملية الإشراف عندما يكون إيجابياً مما يؤدي إلى تكرار الفعل و يجعله أكثر استقراراً. ويلعب التأثير الثقافي دور المعزز للسلوك فيسلك الفرد نحو المواضيع المختلفة ومنها موضوعات البيئة سلوكاً سليماً إذا لاقى الاستحسان على سلوكه والذي يلعب كمعزز لهذا السلوك. (قطار، ١٩٩٢، ص: ١٢٤-١٢٥).

وفقاً لمبادئ التعلم بالإشراف الكلاسيكي، فإن الفرد يكتسب سلوكاً إيجابياً (استجابة شرطية) نحو البيئة (مثير غير شرطي) إذا اقترن هذا الموضوع بمثير سار (غير شرطي) ويكون السلوك سلبياً إذا اقترن بمثير غير سار، فالسلوك السلبي أو الإيجابي نحو البيئة عامة أو نحو موضوع من موضوعات البيئة يعتمد على الخبرات الإيجابية أو السلبية المقترنة لدى الإنسان بهذا السلوك. (مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩٨٥، مرجع سابق، ص: ١٤٩-١٥٠). وعلى الرغم من الانتقادات المتعددة التي يمكن أن توجه إلى هذه النظرية إلا أنها تعد نظرية مهمة في تفسير علاقة السلوك الإنساني مع بيئته المحيطة به عن طريق عملية الإشراف.

ثانياً - نظرية التحليل النفسي :

ماز "فرويد" شاكليين من البيئة هما البيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية وعد بيئة الفرد الاجتماعية موجهة لسلوكه وتصرفاته متوقعة النتائج التي تنتج عن سلوك الفرد، والفرد يلمو في جو اجتماعي يحيط به (الأخوة، المعلمون، الوالدان، ... الخ) ويحدد سلوكياته، ويعمل على تربيته في أنماط معينة ومحددة، في سياق الأهداف اللاهائية لهذه السلوكات والنتائج المتوقعة لها.

أما البيئة الطبيعية فقد عدها "فرويد" متضمنة في الجهاز النفسي للفرد على نحو معين وتكون استجابة الفرد لهذه البيئة كما هي في جهازه النفسي، فتكون تصرفات الفرد - حسب النظرية "الفرويدية" - في تعامله مع بيئته من حيث معناها ومغزاها ووظيفتها، مؤشراً على أن بيئة الفرد الخارجية تتحد مع جهازه النفسي وتصبح جزء منه . (جابر، ١٩٩١، ص: ٦٧-٧٠).

ثالثاً - النظرية السلوكية :

لقد اعتبر "واطسون" مؤسس المدرسة السلوكية، السلوك بكل أنماطه ومستوياته عبارة عن علاقة بين المثير والاستجابة، وأن الجزء الأكبر من السلوك يتكون لدى الطفل بصورة تدريجية وفق آلية تكون الأفعال الاتعكاسية الشرطية، نتيجة لعمليات التعليم والتدريب ... وأجرى واطسون تجاربه معتمداً على قوانين محددة كتأتون التكرار وقانون الحدأة ... وخلص من هذه التجارب إلى أن السلوك المرضي يمكن اكتسابه، كما يمكن التخلص منه وأنه لا يوجد فرق بين طرق اكتساب السلوك السوي والمرضي لاعتماد الطريقتين على التعلم، وتكوين الارتباطات بين المثيرات والاستجابات بالتعزيز. (منصور، ١٩٩٢، ص: ٢٤٨-٢٥١).

و يعتقد السلوكيون أن البيئة الاجتماعية والثقافية تؤثر على الاستجابة السلوكية إلى حد كبير ... فالسلوك بكل بساطة هو عبارة عن مثير أو عدة مثيرات تؤدي إلى استجابة أي إلى السلوك الذي ينتج عن المثير .

وبالاعتماد على ما سبق فإن النظرية السلوكية تعتبر أن من يتصدى لعملية بناء السلوك وتعليمه بالتدريب والتعليم والتربية لا بد أن يكون قادراً على تحديد الاستجابات المراد تشكيلها، أو محوها، أو تعديلها، قبل بداية العملية المطلوبة من التعلم والتدريب، إضافة إلى تهيئة ظروف نجاح التعديل أو التشكيل أو المحو للسلوك، فتكون الظروف والبيئة المحيطة بالسلوك تبعاً لذلك ذات وظائف محددة تؤدي إلى تعزيزات سلبية وموجبة نجاح السلوك المقصود . فتكون بيئة السلوك بمثيراتها هي التي تحدد زمان السلوك ومكانه، فيعمل المثير على تهيئة الظروف المناسبة لحدوث الاستجابة، وتعمل جميع المثيرات التي تشكل البيئة - السلوك - على توجيه عملية التعزيز بشكل يؤدي إلى استمرار السلوك . (جابر، ١٩٩١، ص: ٧٣-٧٥).

وقد أسهم "سكندر" إسهاماً مهماً في النظرية السلوكية وقام بدراسات على السلوك الإجرائي، حيث تكون الاستجابة السلوكية عبارة عن إجراء يحدث في البيئة ... (المرجع السابق، ص: ٧٥).

أقد اهتم "سكندر" بالمحددات الخارجية للسلوك، وليس بما يحدث داخل الكائن من ارتباطات بين المثير والاستجابة، أو الارتباطات العصبية بين المثير والاستجابة إنما يفسر السلوك على أساس، الإجراء الذي يحدث في البيئة الطبيعية ضمن شروط معينة تؤدي إلى تعلم الأنماط السلوكية المطلوبة ... (منصور، ١٩٩٢، ص: ٣٠٢).

رابعاً - نظرية الغشائات :

يركز الغشائات على عملية الإدراك كمحدد أساسي للسلوك ويتوقف فهم السلوك البشري، على فهم كيفية إدراك الفرد لنفسه ضمن الموقف الذي يجد نفسه فيه . (المرجع السابق، ص: ٣٥٠) فالتعلم عند الغشائات هو اكتشاف البيئة والذات وهو تعلم معرفي يعنى بمعرفة ما هو حقيقي في أي موقف من المواقف ومعرفة كيفية ترابط الأشياء مع بعضها بعضاً... (المرجع السابق، ص: ٣٥٢) والتعلم عملية ذات معنى لها موضوع محدد يهدف إلى معرفة العالم الخارجي بكل تعقيداته وتداخلاته (المرجع السابق، ص: ٣٥٤). ويرى علماء الغشائات أن الأحداث السلوكية لها ما يقابلها في التكوين العصبي للفرد، لذلك فإن الأحداث السلوكية الراهنة يمكن أن تؤثر على الأحداث اللاحقة لها والتي تحدث في المستقبل (المرجع السابق، ص: ٣٦٩).

وميز "كوفكا" بين البيئة الجغرافية والبيئة الواقعية والبيئة التي تتضمن سلوك وخبرة الشخص، ويرى "كوفكا" أن البيئة السلوكية هي التي تحدد سلوك الفرد على نمط معين . وتعتمد هذه النظرية على العمليات المعرفية في تفسير السلوك ولا تعتمد على المثيرات إنما يتحدد السلوك بمعان وتصورات بزغت من إدراك بعض البيئات والمواطن والأشياء والأشخاص والوقائع، وما يتصل بها من مواقف وما ينتج عنها من نتائج . وترى نظرية الغشائات أن البيئة لها بنية أو تكوين معين خاص بها يتكون من مادة خاصة بهذا التكوين، يمكن أن تتغير هذه البيئة في الإدراك الإنساني نتيجة لإدراكها بكلياتها، فيتربط على ذلك تغيرات في السلوك نحو هذه البيئة تكون متطابقة مع هذا الإدراك الجديد. (جابر، ١٩٩١، ص: ٧٧) ..

خامساً - نظرية المجال عند ليفين :

تدور نظرية المجال حول محور أساسي هو المجال الحيوي أو "حيز الحياة" يُعد "ليفين" المجال الحيوي مجموعة الحقائق التي تحدد سلوك فرد معين في مكان وزمان معينين . (منصور، ١٩٩٢، ص: ٣٧٦) ..

ومن أهم مبادئ نظرية المجال اعتبار "ليفين" للسلوك على أنه وظيفة لحيز الحياة الذي يتشكل بالنسبة للشخص من الشخص نفسه وبيئته السيكولوجية، وتتضمن البيئة السيكولوجية البيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان. وباختصار يشتمل حيز الحياة على كل ما يمكن أن يجعل السلوك واقعة ملموسة. ومن أوضح تقسيمات "ليفين" لحيز الحياة تقسيمه لهذا الحيز إلى شخص وبيئة سيكولوجية، والسلوك ووظيفة لكل من الشخص والبيئة التي تتضمن البيئة الخارجية والتي يسميها "ليفين" الغلاف الغريب. ويعتقد "ليفين" بالتأثير السلوكي المتبادل بين البيئة الخارجية والبيئة السيكولوجية الداخلية للشخص. (جابر، ١٩٩١، ص: ٨٠)

سادساً - نظرية علم النفس الإيكولوجي عند باركر :

يمكن تعريف علم النفس الإيكولوجي عند "باركر" بأنه علم النفس البيئي أو ما سماه موضوع السلوك أو موطنه، وموضع السلوك يتحدد في المكان والزمان وله ثنية لها صفات فيزيقية واجتماعية وثقافية مترابطة بحيث أنها تتوزع اشكالا منتظمة من السلوك ولقد كان هدف "باركر" تحديد العلاقات بين ما يسميه النمط السلوكي الفردي الذي يصدره جميع الناس في موضع سلوكي معين والخصائص البنائية لذلك الموضع. (جابر، ١٩٩١، ص: ٨٦)

وفي هذا السياق قام "باركر" بدراسة السلوك في مكان حدوثه وأجرى دراساته على مجموعة من الأطفال وقد تحدث "باركر" عن الموطى السيكولوجي للسلوك وقصد به "جميع الأشياء والأحداث التي لها معنى عند الطفل والتي تؤلف بيئته". (المرجع السابق، ص: ٨٧)

ويرى "باركر" أن البيئة التي تحيط بالإنسان وخصوصاً البيئة المباشرة هي التي تلعب دوراً بالغ الأهمية في تحديد سلوكهم، وليس الخصائص الشخصية التي يحملونها.

وقد أمضى "باركر" وأعدائه ما يزيد عن ربع قرن في دراسة السلوك في أماكن حدوثه، وتم وصف المئات من مواضع حدوث السلوك كالمقالات وجلسات المحاكم والمباريات... الخ، فبلور "باركر" بواسطة هذا الوصف نظريته عن مواضع السلوك، رسماًها (العلم الايكوسلوكي).

وقد درس "باركر" مواضع السلوك على أنها نظاماً اجتماعية كاملة لها إطارها الزمني والمكاني المحددين اللذان يشكلان إطاراً لتفاعل مكونات موضع السلوك الذي يضم الأشخاص وأشياء البيئة المباشرة لهم، ويتم تفاعل المكونات على شكل منظم وطبيعي دون أي تدخل بشكل يجعل نتائج وصف هذه المواضع ذو فائدة في التعامل السليم معها. وتستطيع هذه المواضع حسب رأي "باركر" تنظيم ذاتها وتنظيم سلوكيات الأشخاص فيها بحيث تحافظ على نوع من التوازن وذلك بقيام شاغلي موضع السلوك بالتعويض عن أي مكون من مكونات الموضع السلوكي يمكن أن يفقد لسبب من الأسباب.

وبتركيز "باركر" على الأهداف الاجتماعية لمواضيع السلوك التي تجري وفقاً لقواعد اجتماعية تحقق التكامل لما يعمل به الناس، وذلك بتحديد كيفية هذا العمل وفق القواعد الاجتماعية، وبيئة حدوث هذا العمل ومن يشارك فيه، وزمن حدوث هذا الفعل ومدة حدوثه. كل ذلك في الظروف الاعتيادية للحياة، بعيداً عن الترتيبات المعملية التجريبية لعلم النفس وطرقه القديمة فكانت طريقة "باركر" نموذجاً لعلم النفس البيئي الحديث الولادة بطرقه الميدانية في دراسة الحادثة السلوكية في مواقعها وكما تحدث في بيئاتها الطبيعية. (المرجع السابق، ص: ٨٧-٩٤). وهنا أهم نقاط التقاء بين الإيتولوجيا وعلم النفس البيئي، أي دراسة الظاهرة السلوكية في تعبيرها المعنوي في البيئة المعتادة.

سابعاً - الإيتولوجيا (Ethology)

إن نقاط الالتقاء بين الإيتولوجيا وعلم النفس قديمة ومستمرة نتج عنها ولادة الإيتوسيكولوجي (Etho-psychology) وقد تطورت العلاقة بين الإيتولوجيا وعلم النفس، ومنذ عام (١٩٧٠) أخذت هذه العلاقة عمقاً جديداً حيث ولدت الإيتولوجيا البشرية والتي من أهم مميزاتها:

- ١- تبني المنهج الطبيعي في البحث القائم على ملاحظة السلوك في ظروف الحياة المعتادة، كما يفعل الإيتولوجيون في ملاحظة الحيوانات في أوساطها الطبيعية.
- ٢- تبني الطرائق الوصفية التي كانت متبعة في ميدان الإيتولوجيا الحيوانية خصوصاً ما يسمح بالحصول على معطيات رقمية كمية وبناء قاموس الأعمال الحركية ودراسة تكرار السلوك والمدة الزمنية، وتتابع الوحدات السلوكية ... الخ.

وتمكنت الإيتولوجيا في السنوات الأخيرة من فتح آفاق جديدة أمام علم النفس تمثلت في:

- ١- الإلحاح على أهمية التفاعل مع الآخرين في تكوين السلوك الفردي، وضرورة تحديد طبيعة العلاقة والآليات التي تحمل فردين اثنين على التعايش والبقاء معاً.
- ٢- بلورة منهج مناسب للمقارنة بين آليات مختلفة، يمكن أن تقوم بوظائف متطابقة. حيث تسهم دراسة الأنواع الأخرى ولو جزئياً في إيضاح سلوك الإنسان.

لقد ظهرت الإيتولوجيا كعلم على يد "لورنس" و "تدبرجن" مؤسسا المدرسة السلوكية الموضوعية الحديثة. وهي باعتمادها منهج ملاحظة العضوية في شروط حياتها الطبيعية المعتادة، وبإلحاحها على مفهوم الغريزة، تتعارض مع السلوكية التقليدية في المنهج وفي التصور فهي عكس السلوكية الأمريكية التي ترفض أي تفسير للسلوك يستند إلى البيولوجيا. فالإيتولوجيا تجعل من البيولوجيا القاعدة التي يستند السلوك إليها. وتحتل المسائل المتعلقة بالغريزة، والعتاد الوراثي للنوع مركز الصدارة.

وينتقد الإيتولوجيون نتائج البحوث التي تضمنت ملاحظة السلوك في شروط مخبرية تجريبية مصطنعة ويرون أن دراسة الظاهرة السلوكية يجب أن تحدث في الشروط الطبيعية المعتادة، وفي أثناء تعبيرها العفوي، مع الإلحاح على أهمية علاقة الفرد بأقرانه. وهكذا طُبِّقَت الإيتولوجيا فجأة ما تأخر علم النفس عن تطبيقه مدة طويلة.

يرى الإيتولوجيون أن السلوك على غرار الخصائص المورفولوجية والتشريحية والفيزيولوجية يسهم في تكيف النوع مع المحيط. ومن أهدافهم الأساسية تحديد السلوكيات الاجتماعية التي تضمن للأفراد الحضور الأمثل لمورثات النوع، أي السلوكيات المتموضعة في العنق الوراثي للنوع. وقام بعض الباحثون بتحديد السلوك الاجتماعي الغريزي الذي يظهر عند جميع أفراد النوع. في حين اهتم آخرون بالدراسة النمائية للسلوك عند الأفراد في تفاعلهم مع المحيط. إذ لا يمكن أن يكون السلوك الغريزي نتيجة التعبير الجامد للوراثة، فالسلوك يتشكل عند فرد معين، أثناء النمو تحت التأثير المتبادل والمترابط للنضج والتجربة. وهكذا يظهر السلوك بالاستناد إلى هذا التصور الأخير في صيغة دينامية، يتعدل تدريجياً ويتأثر تأثيراً متلاحماً ومتبادلاً بالنضج البيولوجي، وبالتجربة التي تعيشها العضوية في المحيط. وهذا يمكن أن يؤدي إلى تغير في التكيف الفردي، ليس فقط فيما يتعلق بالنشاط الحركي، وإنما أيضاً في فعالية خصائص الإشارات التي تصدرها العضوية، أي فعالية سلوك الاتصال.

ولا يقتصر السلوك الإيتولوجي على دراسة الأسباب الفيزيولوجية للميكانيزم، وللمثيرات التي تطلق السلوك، والسياق الفردي للتطور وإنما يتعرض أيضاً للمسألة من وجهة نظر الانتخاب والتطور التاريخي وتموضع السلوك وتطوره عند النوع. إذ تمكنت جميع الأنواع، عبر تاريخها الطويل من تطوير منظومة سلوكية غريزية، سمحت لها بالتكيف والبقاء. (قنطار، ١٩٩١، ص: ١١-١٣).

ثامناً - نظرية "باندورا" في التعلم بالملاحظة :

رأى "باندورا" و "ولترز" أن نظريات التعلم القائمة على مبادئ التعزيز فقط قاصرة عن تفسير كل أنواع النماذج المتعلمة، وأكد على أهمية المحاكاة في تطوير أنماط السلوك الاجتماعي. وأكد على أن الطفل الذي يعتمد على الملاحظة في تعلم سلوكيات معينة يقوم بعملية تجريد واستخلاص المبادئ والقواعد العامة التي تكمن وراء الاستجابات المتنوعة التي تصدر عن النموذج وينقل هذه القواعد عند تعرضه لمواقف جديدة ويستطيع أن يعمم ذلك على موضوعات غير معروفة من قبل. كما يستطيع المتعلم بالملاحظة أن يبني نماذج جديدة بالاعتماد على النماذج السابقة فيكون النموذج الجديد بمكونات خاصة تعتمد على نماذج متعددة تم تعلمها بالملاحظة سابقاً. (منصور، ١٩٩٢، ص: ٤٧٥-٤٧٦).

والتعلم بالملاحظة. كثير من أنواع التعلم يحتاج إلى التعزيز، فعندما يلاحظ شخص شخصاً آخر يسلك بطريقة معينة، ربما يقوم بتقليده في نموذج السلوكي إذا لاحظ أن استجابة النموذج الذي يقوم بتقليده حصلت على الإثابة، إضافة إلى حصول الشخص الذي يقوم بالتقليد على الإثابة أيضاً عند ممارسته لنفس السلوك مما يزيد من احتمال تكرار حدوث ذلك السلوك. ويحدث العكس عندما يعاقب السلوك ... فمثلاً، إذا لاحظ طفل أن والده لايهتم بنظافة الشوارع والطرق، أو لايهتم بالمحافظة على المساء والكهرباء في المنزل فإنه قد يقلد هذا النموذج السلوكي الملاحظ ... وذلك ما يعرف بالتعلم بالملاحظة الذي يمكن الاعتماد عليه في تفسير كثير من أنواع السلوك نحو البيئة التي تتشكل نتيجة الخبرة الاجتماعية المعاشة للأفراد في بيئتهم . (مجلة العلوم الاجتماعية، العدد (٢)، مجلد (١٣)، ١٩٨٥، ص: ١٥٠).

وبعد عرض المضامين البيئية والسلوكية في بعض النظريات النفسية، وجد أن النظريات النفسية بشكل عام لا تخلو من فرضية أو قانون أو مبدأ لتفسير السلوك البيئي ولكن جميع النظريات السابقة تعاني من بعض أشكال القصور في تفسيرها للسلوك البيئي على الرغم من إسهام كل منها بجانب كبير ومهم في تفسير السلوك البيئي . وقد اختلفت النظريات السابقة في تفسيرها للسلوك البيئي وتراوحت في نظرتها بين الاعتماد على مجرد الإشراف بين المثير والاستجابة، أو الإشراف الذي يعتمد على الإجراء، أو الإشراف السلوكي البتوي، واعتمدت بعض هذه النظريات على النمو النفسي للفرد، وبعضها الآخر على العمليات العقلية المعرفية، وفسرت بعض هذه النظريات السلوك بالاعتماد على بيئة الشخص الداخلية والخارجية (حيز الحياة)، واعتمد الإيتولوجيون منهج دراسة السلوك في مواضعه البيئية وفي أماكن حدوثه المتتادة، واتجه أصحاب التعلم بالملاحظة إلى دور الملاحظة والتقليد في تفسيرها للسلوك البيئي. وهكذا نجد أن هذه النظريات تختلف في دراستها للسلوك وإن كانت جميعها تهدف إلى تفسير السلوك. وكل منها تلج على جانب معين. لذلك فإن الباحث يرى أن الأخذ بالمدخل المتعدد، أي الاعتماد على عدد من هذه النظريات في تفسيرها للسلوك وأن لا يتم الاكتصار على أي منها، وذلك حتى يتم التفسير الموضوعي للسلوك بشكل يمكن المدارس لهذا السلوك من كشف جميع أنواع الجوانب التي تحول دون تفسيره بشكل موضوعي.

وبذلك يمكن أن يحصل الباحث في هذا المجال على تفسير أكثر شمولاً للسلوك البيئي. هذا مع اعتراف الباحث أنه توجد أنواع أخرى من هذه النظريات ما قصد الباحث بالتعرض إليها جميعاً لكثرتها ولكن قصد إلقاء الضوء على إسهام بعض هذه النظريات كأمثلة بما يعتقد أنه يخدم مجال بحثه .

من أجل بيئة إنسانية أفضل

أولاً - تأثير الضغوط البيئية :

تشير جميع البحوث التي أجريت في هذا المجال إلى وجود علاقة أكيدة بين هذه الضغوط والصحة العامة، وتحدث الآثار الصحية السيئة للإنسان والحيوان والنبات رغم تحكم وسيطرته على البيئة، وربما كانت هذه الضغوط ثباتاً لهذا التحكم وهذه السيطرة. (اليونسكو، ١٩٩٠، ص: ٨٤-٨٦، ٨٩-٩٢).

وقد أدى الوعي البيئي منذ بداية السبعينات بالآثار السيئة لهذه الضغوط على الصحة إلى إحداث تشريعات وإنشاء مؤسسات وتنظيمات وأحزاب حكومية وغير حكومية في بلدان مختلفة من العالم تهدف جميعها إلى حماية البيئة والتغلب على المخاطر التي تعرضت لها. (شؤون اجتماعية، العدد (٣٤)، ١٩٩٢، ص: ١٧٥).

ثانياً - طرق التخفيف من المشكلات البيئية :

تواجه الإنسان مشكلات بيئية متعددة تتمثل في نقص مصادر الطاقة وغلاء أسعارها، وتلوث الماء والهواء وتدهور النظم البيئية الطبيعية بوجه عام. وفي مواجهة ذلك يمكن أن يقدم علم النفس البيئي إسهامات متعددة يمكن أن تساعد على حل هذه المشكلات. ومن الخطأ الاعتقاد بأن التكنولوجيا هي الحل الوحيد والناسج للمشكلات البيئية، مهما بلغت هذه التكنولوجيا من التعقيد والتطور إذ لا بد أن تتجه العلوم السلوكية إلى رسم استراتيجيات الحفاظ على البيئة، وتعديل سلوك الأفراد والجماعات، وتشجيع الأنماط السلوكية المناسبة التي تسهم في المحافظة على البيئة. وإجراءات تعديل السلوك في الحياة اليومية للناس عمل غاية في الأهمية قد تفوق أهميته في معظم الأحيان، أهمية التكنولوجيا المادية في علاج المشكلات البيئية، هذا إذا وضعنا في اعتبارنا، المشكلات البيئية الجديدة التي نجمت عن التطور التكنولوجي، وتورد مثلاً على ذلك وسائل النقل الحديثة التي خلفت متاعب السفر واختصرت الزمن والمسافة ولكنها ساهمت في تلوث الهواء، واستنزاف مصادر الطاقة، وكذلك نجد أن تعبيل الأغذية ساهم في الحفاظ على جميع أنواع الأغذية لكنه خلق مشكلات تتعلق بتراكم وسائل التعبئة في البيئة على شكل نفايات غير قابلة للتحلل بسهولة. ويمكن القياس على ذلك أمور كثيرة. وهنا يمكن القول إن استراتيجيات تعديل السلوك البيئي، لها أثر كبير في التخفيف من المشكلات البيئية. وفي غياب تكنولوجيا فعالة لعلاج النفايات يمكن القول أن تعديل سلوك الإنسان يعد أفضل الوسائل لعلاج هذه المسألة. وكذلك فإن التكنولوجيا ذاتها تحتاج إلى تربية أنماط سلوكية محددة لضمان الاستخدام السليم لها، فالأثر السيء لهذه التكنولوجيا يتوقف على سلوك الناس تجاهها وطريقة استخدامها هي التي تجعل أثرها الإيجابي على البيئة أكبر من أثارها السيئة. (جابر، ١٩٩١، ص: ٥٦٠).

١- تعديل السلوك البيئي :

هناك أشكال متعددة يمكن أن يقوم الإنسان من خلالها بتغيير سلوكه نحو البيئة. ففي مجال المواصلات مثلاً يخفف استخدام المواصلات العامة من تلوث الهواء ويقلل من التكلفة المادية لاستخدام هذه الوسائل . ويمكن أن يتخلص الإنسان من ضغط هذه الوسائل وسلبياتها باستخدام الدراجة العادية (الهوائية) على سبيل المثال فيقتصد بهذا التصرف في المال والموارد ويخفف من التلوث الجوي بالدخان والمواد السامة والضجيج. وكل ذلك ينعكس إيجاباً على صحة الإنسان ورفاهيته في الحياة في بيئة نظيفة نقية .

وفي هذا المجال يمكن أن يقوم علماء النفس بدور بالغ الأهمية يمكن أن يطال معظم أنواع السلوك الإنساني وأشكاله بالتعديل والتغيير فمن الممكن على سبيل المثال لا الحصر أن يقوم هؤلاء العلماء بالإلحاح على بعض النماذج السلوكية المناسبة للتخفيف من وطأة الضغوط على البيئة، والعمل على تهيئة الفرد نفسياً ومعرفياً لتبني سلوكيات مناسبة للبيئة، وتركيز اهتمامه على معالجة مختلف المشكلات البيئية القائمة ومثال ذلك أنه، يمكن تشكيل سلوك لدى جميع أفراد المجتمع كباراً وصغاراً للعمل على تخليص النفايات المنزلية بشكل جيد ووضعها في أماكن مخصصة لذلك بحيث يمكن نقلها إلى حيث يكون التخلص منها غير مضر بالإنسان والحيوان والبيئة ، وبشكل يكون تجمعها في تلك الأماكن مؤقتاً ليس له أية آثار سلبية .

وهناك سلوك آخر يمكن تربيته وقد يكون مفيداً جداً في الحفاظ على البيئة على بساطته وهو إعادة استخدام الأشياء القابلة للاستعمال مرة أخرى، كالزجاجات الفارغة والورق المستهلك. (جابر، ١٩٩١، ص: ٥٦١) لاسيما إذا علمنا أن هذه النفايات تساوي في العالم ما يقرب من ٧٠٠ مليون طن من المخلفات البشرية (الغذائية والمعدنية والزجاجية والورقية) فتحتوي مخلفات العالم مثلاً على (١٠٠ مليار زجاجة فارغة و ٤٠ مليار علب معدنية و ٥٠٠ مليون إطار للسيارات المستعملة) . (شرون اجتماعية، العدد (٣٤)، ١٩٩٢، ص: ٨٦)

وقد يتم التركيز مثلاً على استيراد سيارات ومصانع واليات قليلة التلوث وتوجيه الناس وإرشادهم إلى استخدامها، ومكافحة الأنماط السلوكية التي تسير في الاتجاه الصحيح بأن نجعل ثمن هذه السيارات رخيصاً مثلاً أو نعيها من الضرائب الجمركية، ومعاقبة السلوك الغير مناسب باتخاذ إجراءات معاكسة. وهذه الإجراءات تتطلب من عالم النفس البيئي أن يكون ملماً بكيفية الاستجابة لها وأن يكون قادراً على التنبؤ بطريقة الاستجابة لها، مع العلم أن الإجراءات المتخذة في هذا المجال لم تكن ناجحة حتى الآن، والتي وضعت في بعض البلدان المتقدمة . ومن المحتمل أن يحدث السلوك المرغوب فيه والذي يعمل علماء النفس البيئي على تكوينه أثراً أو استجابة معاكسة لما هو معول عليه لأن السلوك يتأثر بشبكة معقدة من العلاقات، فنجد عند المطالبة بالاعتصاف في مورد من الموارد أن الاستهلاك عليه يزداد بدلاً من أن ينقص ففي مثل

هذه الحالة يجب أن يُعرف السبب الكامن وراء هذه الاستجابة المعاكسة. هذا فضلاً عن الآثار التي يمكن أن تترتب على تنفيذ سلوك للحفاظ على البيئة .

٢- التربية البيئية :

تعد التربية البيئية أهم الطرق في سبيل تنمية السلوك البيئي السليم في تكامله مع البيئة، كونها تهدف إلى توعية الناس بطبيعة المشكلات البيئية و الأساليب المناسبة للتغلب عليها. (جابر، ١٩٩١، ص: ٥٦٣) .

ويتفق المربون على أن التربية البيئية لن تكون ناجعة في علاج مشكلات البيئة إلا إذا سعت إلى تحقيق الأهداف الإنسانية العليا، معتمدة على الأسس المناسبة لذلك و التي تتمثل في رأي (إيفان إيتش) في التعليم من العالم مباشرة فترتبط بذلك مؤسسات التعليم بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، وتدرس البيئة على أساس شامل من جوانبها كافة، ويتم بذلك الجمع بين الدراسة والعمل وتتضمن برامج التربية المشكلات البيئية التي يتعرض لها مجتمع المدرسة . (الحفار، ١٩٨٥، ص: ٤٩٢) .

وقد أعدت وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية بالتعاون مع اليونسكو والتنسيق مع الجهات المعنية في القطر عام ١٩٩٠ مشروعاً لاستراتيجية التربية البيئية في القطر . وعرفت التربية البيئية بأنها "منهج تربوي لتكوين الوعي البيئي من خلال تزويد الفرد بالمعارف والمهارات والقيم والاتجاهات التي تنظم سلوكه، وتمكنه من التفاعل مع بيئته الاجتماعية والتطبيقية بما يسهم في حمايتها وحل مشكلاتها" . (وزارة التربية؛ صندوق الأمم المتحدة للسكان، ١٩٩٢، ص: ٢٤١) .

ويجب أن تعمل التربية البيئية على إكساب الجمهور الأهداف و المبادئ العامة بما يساعد على حل للمشكلات البيئية التي تعترضهم اعتماداً على معرفة بأسباب هذه المشكلات ونتائجها، بالارتكاز على نسق من القيم ينسجم و معلومات هذه المعرفة بما يلبي حاجات المجتمع والفرد ويكون لديه سلوك بيئي مناسب يكون نتيجة لمعرفته وقيمه الإيجابية نحو البيئة. (جابر، ١٩٩١، ص: ٥٦٣) .

أهداف التربية البيئية :

- ١- تعريف الأفراد بأهمية الموارد البيئية المتعددة كثروة قومية تتنامى من خلال التخطيط العلمي لحمايتها واستثمارها في إطار الخطط للتنمية الشاملة .
- ٢- تكوين المعارف التي تمكن الأفراد من إدراك تعاقب النظم البيئية والتأثيرات المتبادلة في إطار رؤية واضحة للمحيط الحيوي .
- ٣- تعريف الفرد بالطبيعة و بالأشياء الأخرى التي هي من نتاجه وعلاقة الانسان بتلوث البيئة وتوزيع الثروات واحتمالات نضوبها وكيفية المحافظة عليها.

٤- تطوير أسلوب التفكير لدى الفرد من خلال إكسابه طرائق التفكير العلمي و مهارات التحليل والتطبيق والاستنتاج والربط والإبداع.

٥- تطوير نمط تعامل الإنسان مع البيئة المحيطة به .

٦- ترشيد سلوك المتعلم وتطوير تعامله مع البيئة من خلال تعريفه بها وإكسابه الاتجاهات والقيم الإيجابية نحوها .

٧- إعداد الأفراد على اتخاذ القرارات السليمة لمواجهة المشكلات البيئية وغيرها .

٨- تنمية قدرة المتعلم على الإحساس بالروابط التي تجمع بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها من خلال تطوير فلسفة البيئة ومقوماتها.

٩- إكساب الملوك المعتزم والواعي حيال البيئة للحفاظ على توازنها وصونها من الخلل والعبث " . (مأب سورية، ١٩٩٥، العدد (٢)، ص: ٣٤)

وتحتوي مناهج التعليم في الوطن العربي على مضامين بيئية في عدد من المواد التعليمية بشكل متفاوت ما بين قطر وآخر، ولكن على الرغم من ذلك فإن التربية البيئية في هذه الأقطار لم تصل إلى المستوى المطلوب، حيث إن الحصول على المعلومات البيئية عن طريق التربية البيئية، لم يود إلى تحقيق الأهداف العامة الرئيسة لهذه التربية، فأصبحت التربية بذلك عاجزة عن الوصول إلى الممارسة السلوكية الفعلية التي تعتمد على المهارات والقيم التي ترمي إلى الحفاظ على البيئة وتطويرها واكتساب الأخلاق البيئية التي تشكل الهدف الأساسي للتربية البيئية لتحقيق التفاعل السليم بين الفرد والبيئة . (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧، ص: ٧). ويتطلب التغيير في المواقف والسلوك نحو البيئة استيعاب معظم أفراد المجتمع للاتجاهات والتقييمات الإيجابية للبيئة لتغيير نمط الحياة السلوكي من أجل حماية البيئة . (المرجع السابق، ص: ١٢٥).

وتعد الأسرة ووسائل الإعلام أركاناً رئيسة في التربية البيئية غير النظامية لذلك يجب الاهتمام الكافي بهذه المؤسسات حتى تتمكن من بناء منظومة قيمية مناسبة لدى أفراد المجتمع لتحقيق اتجاهات عامة وإيجابية في علاقة الإنسان مع بيئته، وأن تبذل الجهود لتطبيق هذه الاتجاهات والقيم و ترجمتها إلى أنماط سلوكية باتجاهين أولاهما يعمل على علاج المشكلات الراهنة والآخر يعمل على تفادي حدوث مشكلات جديدة ... ولكن نتجح التربية البيئية في تحقيق أهدافها لابد من أن تتأزر جهود التربية النظامية مع جهود التربية غير النظامية والتشريعات والقوانين بشكل ينتج عنه سلوك عام وطبيعي يكون جزء من الإنسان، خلال تعامله مع بيئته .

٣- الحث البيئي المناسب :

ينهم الحث البيئي على أنه مجموعة من التحذيرات والتنبهات التي تستخدم بهدف الحفاظ على البيئة والحيولة دون الإضرار بها، وتوجه عادة إلى الأفراد والجماعات لتجنبهم الأفعال والسلوكيات الضارة بالبيئة، والحث هو عملية التهيئة التي تسبق السلوك المراد تعديله ويتم إيجاد أشكال الحث هذه قبل السلوك على شكل يؤدي إلى زيادة الفرص التي تؤدي إلى الإجابة المرغوبة، وفي الوقت نفسه تؤدي إلى نقص في فرص حدوث الأفعال والسلوكيات غير المرغوب فيها نحو البيئة. وعلى ذلك نستطيع التمييز بين نوعين من الحث البيئي أحدهما اقتراب من السلوك المرغوب فيه والآخر تجنب وإقلاع عن السلوك الغير مرغوب فيه .

وهناك أنواع أخرى من الحث البيئي فمنها الحث الذي يتخذ صيغة العمومية، وبعضها يتخذ صيغة التحديد، ومثال الأولى "حافظ على نظافة المدينة" ومثال الثانية "حدود السرعة ٥٠ كم/سا" وهناك نوع آخر يصاغ على أساس تحديد الحوافز التي تكافئ السلوك السليم، وبالعكس هناك نوع يحدد العقوبة التي تفرض على السلوك غير السليم من مثل رمي الفضلات في غير أماكنها .

وجميع أنواع الحث البيئي السابقة تقدم على شكل مكتوب أو منطوق في الغالب، ولكن هناك أنواع منها تعتبر رمزاً لهذا الحث، كوجود الشرطي أو سيارة الشرطة في الطريق أو وجود الحارس في حديقة فيكون وجود هذه الرموز دلالة تعمل على تذكير الفرد والجماعة بالسلوك السليم وتجرك لديه تجنب السلوك غير المناسب . ورغم وجود جميع أنواع الحث إلا أنها لا تفعل فعل النماذج السلوكية التي يقوم بها فعلاً أفراد المجتمع فتصبح عادة لدى جميع هؤلاء الأفراد بتأثير وجودها وتكرارها على أرض الواقع . كأن تتحول عملية إلقاء الفضلات في أماكنها المخصصة لها إلى قيمة لدى جميع أفراد المجتمع يقومون بفعلها دون أية رقابة أو تأثير فتنتقل من فرد لآخر ومن الكبير إلى الصغير ومن جيل إلى جيل، ويمكن أن يقاس على هذا المثال جميع أنواع السلوك المرغوب فيها، والأنواع المراد تجنبها .

و تعد وسائل الحث المكتوبة والمنطوقة من أهم الوسائل وأقلها تكلفة وأكثرها فعالية في عدد كبير من الظروف والمواقف، من مثل الدعوة إلى السلوك الذي يتجنب المشي على المسطحات الخضراء في الحدائق، أو الدعوة إلى الاقتصاد في الطاقة وفي استعمال المياه وخفض الضوضاء ونقص التلوث ... الخ .

وبشكل عام تكون عملية الحث البيئي فعالة و ناجعة كلما كان السلوك بسيطاً في تكوينه سهل الأداء والعكس صحيح أيضاً، بالإضافة إلى أن إثابة السلوك المناسب وعقاب السلوك غير المناسب، تسهم في زيادة احتمال فعل السلوك المناسب للحفاظ على البيئة .

وهناك شرط من الأهمية بمكان توافره في عملية الحدث البيئي وهو أن يكون هذا الحدث قريباً في الزمان والمكان من السلوك المراد فعله كأن يحدث التنبيه للتعامل السليم مع مراقب الحديقة قبيل دخول الإنسان إلى الحديقة بوجود إذاعة خاصة قرب أبواب الحديقة تقوم ببث الإرشادات والتعليمات خلال أوقات ارتياد المتنزهين لها، على سبيل المثال، ولعل نوع الصياغة للحدث البيئي دوراً كبيراً في قبول الحدث أو رفضه فاستعمال كلمات الرجاء يمكن أن يشجع على السلوك واستعمال كلمات الأمر والتحذير يمكن أن يثبط عملية السلوك أو يستثير الإنسان لفعل السلوك المعاكس. ومما يساعد على نجاح الحدث حجم وسيلة الحدث وعلاقتها مع مضمون الحدث، بشكل يتناسب وتقبل المتلقي لهذا الحدث.

أما الحالة التي عليها البيئة فهي العامل الأهم في إتيان السلوك المناسب إضافة إلى النماذج السلوكية التي اعتاد عليها الناس فهذان العاملان قد يكونان الحاسمان في تشجيع السلوك المناسب وتجنب السلوك الغير مناسب، فالبيئة النظيفة المنظمة والمنسقة تكون أكبر عامل للحدث على النظافة وتجنب التلوث. وسلوك الإنسان النظيف يدعم سلوك الآخرين نحو النظافة، ويمكن الاستفادة من وسائل الإعلام المختلفة في عرض وتقديم هذه النماذج السلوكية المناسبة للإنسان لتشجيع السلوك السليم.

أما هندسة المكان وتوفر الوسائل المادية فيه والتي تهدف للحفاظ على البيئة كوجود الممرات قرب المسطحات الخضراء ووجود المقاعد المريحة في الحديقة ووجود سلال المهملات في كل الأمكنة المعرضة لرمي القمامة وغيرها من الوسائل على اختلاف الأماكن ووظائفها يساعد على التغلب على المشكلات البيئية والتخفيف منها إلى حد كبير. وتعتبر رموزاً دالة لحدث بيئي مناسب. (جابر، ١٩٩١، ص: ٥٧٢-٥٧٥) (منصور، ١٩٩٢، ص: ٣١٠).

٤- استراتيجيات التعزيز :

تعد استراتيجيات التعزيز الحلقة التالية التي ترتبط بحلقة تسبقها وهي الحلقة التي تعبر عن استراتيجيات الحدث البيئي. فاستراتيجيات التعزيز تجيء بعد استراتيجيات الحدث البيئي وتهدف إلى تعديل السلوك الضار بالبيئة. ويعتبر التعزيز من أنجع الوسائل في تعديل السلوك الضار بالبيئة.

وتتضمن استراتيجيات التعزيز أشكال مختلفة أهمها :

١- التعزيز الإيجابي

٢- التعزيز السلبي

٣- العقاب

٤- التغذية الراجعة

(جابر، ١٩٩١، ص: ٥٧٥)، (ملصور، ١٩٩٢، ص: ٣١٠)

أما التعزيز فيهدف إلى زيادة احتمالات حدوث الاستجابة المرغوبة نحو البيئة عندما يكون إيجابياً، ويهدف إلى زيادة حدوث السلوك المناسب نحو البيئة لأن السلوك يكون مدفوعاً بمعيه لتجنب مشير منقر عندما يكون التعزيز سلبياً. (مجلة العلوم الاجتماعية، العدد ٢، ١٩٨٥، ص: ١٤٩) أما العقاب فيتضمن استعمال مشيرات مؤلمة مع الذين يمارسون سلوكاً ضاراً بالبيئة مثال ما يفعل مراقب الصحة عندما يفرض غرامة مالية على من يرمي الفضلات في غير مكانها أو عندما يخالف أحد المطاعم الشروط الصحية لاستخدام المطعم. (المرجع السابق، ص: ١٥٠) وتوفر التغذية الراجعة المعلومات المناسبة عن مدى تحقيق الفرد لأهدافه السلوكية نحو البيئة أو إخفاقه في تحقيق هذه الأهداف. فتقدم التغذية الراجعة بذلك للشخص تقديراً موجباً أو سالباً لأفعاله، فيعمل من خلالها على تجنب النتائج السلبية لسلوكه وتعزيز النتائج الإيجابية له. ولكي تكون استراتيجيات التعزيز ناجحة في أدائها لوظيفتها ينبغي أن يدرك المنفذ والمصمم لها خصائص المجتمع و الأفراد الموجهة له هذه الاستراتيجيات بشكل يتلقاها المجتمع المستهدف بنفس الطريقة المحددة في أهدافها حتى لا تكون النتائج معاكسة.

وتعد استراتيجيات التعزيز فعالة في المساعدة على تنفيذ السلوك السليم نحو البيئة، إلا أن ذلك لا يمنع أن تحدث بعض أنواع المقاومة لبعض أنواع السلوك التي يجري تعزيزها، وتزداد هذه المقاومة مع التعزيز السالب بينما تقل مع السلوك الموجب. ومن مساوي هذه الاستراتيجيات أيضاً أنها مكلفة اقتصادياً عند إعداد برامجها بشكل يفوق نتائجها الإيجابية. إضافة إلى عمليات المجو لآثار التعزيز والتي تؤدي إلى عودة السلوك السابق على عمليات التعزيز.

ومما عرض سابقاً نجد أن البشرية بعد ما غدت أسرة واحدة تعيش في مكان واحد هو الكرة الحية مطالبة بأن تخطط لمستقبلها، للتغلب على المشكلات البيئية وإيقاظ الأرض والأحياء عليها من خطر محقق. بأن يتبنى كل مجتمع الاستراتيجيات المناسبة للتغلب على مشكلاته البيئية والحفاظ على بيئته على أن تتكامل جميع الاستراتيجيات في كافة أرجاء المعمورة من أجل بيئة سليمة وحياة إنسانية أفضل. (جابر، مرجع سابق، ص: ٥٧٦، ٥٨٤).

الفصل الثالث

الأسس النظرية

لتفسير العلاقة بين البيئة والسلوك

بعد أن استعرضنا مناهج البحث في علم النفس بصفة عامة وفي علم النفس البيئي بصفة خاصة والتي انضح لنا من خلالها أنه لا يوجد اتجاه واحد متفق عليه في بحوث ودراسات علم النفس البيئي يمكن أن تنبثق عنه ابنية نظرية مستقلة تشمل العمود الفقري لكافة البحوث والدراسات في مجال علم النفس البيئي بصفة عامة .

ولقد حاول عدد من الباحثين في علم النفس البيئي ان يقدموا عددا من النماذج النظرية حول العلاقة بين البيئة والسلوك الا انهم واجهوا صعوبتين محددتين :

- ١ - حداثة علم النفس البيئي كعلم مستقل .
- ٢ - المعارف والمعلومات المتوفرة للآن حول العلاقة بين المثيرات البيئية وسلوك الانسان في حاجة الى دراسات اكثر سواء نظرية او تجريبية بهدف التوصل من خلالها الى استنتاجات تكفي لاقامة البناء النظري المناسب لعلم النفس البيئي .

وبالرغم من هذه الصعوبات فان بعض الباحثين في مجال علم النفس البيئي لم يتوقفوا عن المحاولة حيث يقدموا لنا عددا من المداخل النظرية التي تصلح كأساس لتفسير العلاقة بين البيئة والسلوك بشكل اولي والتي يمكن ان تكون منطلقا لاسس نظرية يُبنى عليها علم النفس البيئي .

وفيما يلي نتناول كل من هذه المداخل بشيء من الإيجاز :

مدخل الضغط البيئي :

ينظر عدد كبير من الباحثين في مجالات علم النفس البيئي الى بعض عناصر البيئة التي يتعرض لها الانسان على انها عناصر ضغط عليه ، مثال ذلك تعرض الانسان للحرارة ، التلوث ، الضجيج ، الازدحام وغيرها .

انهم يرون في مثل هذه العناصر ما يجعل الانسان - في ظروف معينة - يشعر بأنه يريد ان يتخلص من هذا العنصر او ذلك بمعنى انه لا يستطيع ان يتحملة وعليه ان يفعل شيئاً لكي يقلل من اثر هذا العنصر عليه، هذه الحالة هي ما تسمى بحالة الضغط البيئي على الانسان .

والضغط في نظر هذه المجموعة من باحثي علم النفس البيئي هو متغير متداخل بمعنى انه رد فعل لمثيرات تشتمل على عناصر سلوكية وعناصر انفعالية واخرى فسيولوجية بمعنى ان اياً من هذه العناصر لا يكون مشغولاً وحده عن حدوث الضغط على الانسان بل انها مجتمعة ومتفاعلة مع بعضها ومؤثرة على بعضها البعض هي التي توجد حالة الضغط على الانسان . وبعض ردود الفعل عند الفرد في استجابته للمثيرات غير المرغوبة تعرضه للضجيج الشديد المفاجيء مثلاً يكون مصحوبة بزيادة في ضربات القلب ، او جفاف في الحلق ، او تصبب العرق وغيرها .

لكن هل يقف الانسان مكتوف اليدين امام المثيرات التي تمثل عناصر ضغط عليه ، من المسلم به ان الانسان لديه قدرات غير محدودة على التكيف ، التكيف مع المتغيرات البيئية وغير البيئية ومن بينها متغير الضغط مثلاً نتيجة الحرارة الزائدة او المتدنية حيث يفرز الجسم عرقاً في الحالة الاولى ، او يرتعش وبشدة في الحالة الثانية (Selye, 1956)

وما يساعد على تكيف الفرد للمثيرات المسببة للضغط ان يتوفر لدى الفرد اقتناع بان هذا المثير وما يسببه من ضغوط عليه لا يمثل نوعاً من التهديد لذاته. ولنوضح ذلك ضرب مثلاً بأحد سكان المناطق الحارة ، ان درجة حرارة ٣٢ مئوية لا تعني

بالنسبة له اي ضغط بينما نفس هذه الدرجة بالنسبة لأحد الأماكن المناطق الباردة جدا تعتبر عامل ضغط شديد عليه وخاصة عندما يتعرض لمثل هذا الموقف للمرة الأولى حيث اننا نرى في هذا المثال ان درجة الحرارة (المثير) لم يطرأ عليها اي تغير انما تغير السلوك او الشعور بالضغط بين الشخصية مرده الى تقييم كل منها لهذه الدرجة من الحرارة اي ان التفسير المائل في ذهن كل منهما للمثير هو الذي يؤثر على الشعور بالضغط من عدمه لديهما .

وبما يساعد ايضا على تكيف الفرد مع الضغوط البيئية درجة تعوده على المثيرات المسببة لتلك الضغوط وهذا راجع الى أن تكرار تعرض الجهاز العصبي للانسان لمثير بيئي معين يفقد هذا الجهاز العصبي حساسيته للاستجابة لذلك المثير وهذه خاصية من خصائص الجهاز العصبي عند الانسان تعتبر بالنسبة له ميزة اذا ما قورن ببقية الكائنات الحية الاقل تطورا في تكوين جهازها العصبي .

ويخلص اصحاب هذا الرأي (مدخل الضغط البيئي) الى ان كل بيئة من البيئات لها عناصر الضغط الخاصة بها ولا تخلو بيئة منها كانت من عناصر الضغط وليس المهم هو في كم او نوع عناصر الضغط هذه بل ان المهم هو في قدرة الانسان على التكيف مع هذه العناصر وكيفية استجابته لها وتعايشه معها .

٢ - المدخل الانفعالي :

يعرف الانفعال من وجهة النظر العصبية الفسيولوجية على انه زيادة نشاط الخلايا المخية بواسطة المركز المسئول عن الانفعالات في المخ (Hebb, 1972) .

كما يصف «برلين» الانفعال بأنه مقياس استمراري طرفاه حالة النوم حيث ينعلم الانفعال وحالة اليقظة التي يصاحبها انغماس الفرد في نشاط غرضي يتصف بالاستثارة .

وتتميز الانفعالات بتمايزا كبيرا في حياة الانسان فهي تمتد من الحزن الى الفرح

ومن الضيق الى الابتهاج اي انها لا تكون قاصرة على شعور الانسان او تعرضه للتهديد او الضغط فنحن ننفعل عند رؤية شخص عزيز علينا او القيام بعمل عجب الى انفسنا كركوب قطار ذو سرعات مختلفة في مدينة للملاهي .

وانفعال الانسان يتوقف على ما يعرف باسم المستوى المثالي للانفعال بالنسبة لكل انسان على حدة ، هذا المستوى يختلف من شخص الى اخر ، ودرجة الانفعال تقل أو تزيد عن الفرد حسب وقوع المثير فوق او تحت هذا المستوى المثالي بالنسبة له .

ولا زالت مسألة قياس الانفعالات وتحديد درجة تأثيرها على سلوك الانسان من المسائل التي تحتاج الى بحوث اكثر ودراسات اعمق في ذلك نظرا لاننا لا نستطيع التعرف على انفعالات الانسان بشكل مباشر بل أن وسائل القياس من ملاحظة واستنباط وقياس التغيرات الفسيولوجية مثل نبض القلب وضغط الدم وسرعة التنفس ورسم الموجات المخية ودرجة الحرارة في الجلد وغيرها كل ذلك انما يعطينا فقط مؤشرات غير مباشرة نستنتج منها درجة ونوع الانفعال .

ولتوضيح العلاقة بين البيئة وانفعالات الانسان يمكن ببساطة ان نذكر ان الافراد الذين يعيشون في بنايات اكثر ازدحاما ويكونون معرضين من خلال معيشتهم هذه لاثار الازدحام ولاستمرار الانفعال هؤلاء يظهر من بينهم الافراد الاكثر ميلا للعدوان ، العدوان على من حولهم من الاشخاص وعلى الاشياء التي يعملون فيها بل وعلى عناصر البيئة نفسها المسببة لانفعالهم . اي اننا نرى ان زيادة الانفعال (والذي يمكن ان يقع بسبب ظروف وعناصر البيئة) تسهل الخطو نحو العدوان . (Geen & O'Neal, 1969) .

٣ - مدخل الحمل البيئي :

يتعرض الفرد أثناء معيشته في بيئة معينة لعدد من المثيرات الصادرة عن تلك البيئة ، لكن هذا الفرد له قدرة محددة على مواجهة كل او بعض هذه المثيرات وهذا

أمر يختلف من شخص إلى آخر ومن غير المتصور بداهة أن كل فرد يستطيع أن يواجه كل مثير في البيئة التي تعيش فيها .

مصطلح الحمل البيئي يقصد به مجموع المثيرات التي يتعرض لها فرد ما في مقابل قدراته على مواجهة تلك المثيرات . أي أن الإنسان عندما يواجه عددا من المثيرات لا يستطيع أن يتحملها مجتمعة نقول أن هذا الإنسان يتعرض لحمل بيئي زائد سواء كان مصدر هذه المثيرات البيئية الاجتماعية أو البيئة الطبيعية مثال ذلك عندما يقف الفرد وسط مجموعة كبيرة من الأفراد كلهم يتكلمون في وقت واحد عندئذ يصعب عليه أن يفهم ما يقوله الجميع فيكون مضطرا للقيام بعملية الانتقاء والاختيار يختار من يستمع إليه وحين يهمله وبهذا يكون قد اتخذ موقف التكيف للمثيرات العديدة الصادرة عن مجموع الأفراد المحيطين به . وهذا ما يساعد الفرد على التحكم فيها يعتبره مثيرا سلبيا في البيئة المحيطة به .

أن مثل هذا الموقف - موقف عجز الفرد عن تحمل المثيرات الزائدة عن طاقته - يتضمن عددا من الافتراضات منها : (Cohen, 1977)

أ - لكل فرد قدرة محددة على التعامل مع بعض مثيرات البيئة المحيطة به في الوقت الواحد .

ب - في حالة زيادة الحمل البيئي بالنسبة للفرد فإنه تلقائيا يقوم بعملية الانتقاء حيث يهمل بعض المثيرات ويركز الانتباه على البعض الآخر الذي يكون له صلة بموضوع اهتماماته .

ج - درجة اهتمام الفرد بمثير أو أكثر من مثيرات البيئة تتناسب تناسباً طردياً مع درجة تعقد المثير .

د - درجة اهتمام الفرد بمثير أو أكثر من مثيرات البيئة تتخللها فترات الراحة أو التغيير التي تساعد على التركيز .

ولكي يتضح لنا أهمية هذا المدخل بصفة خاصة فائنا يمكن ان نلاحظ ما يحدث في المدن الكبيرة من انعزال ساكنيها عن بعضهم البعض وانطواء غالبيتهم على انفسهم حيث يعزو بعض باحثي علم النفس البيئي هذه الظاهرة الى زيادة الحمل البيئي على هؤلاء الافراد لانشغالهم وارتباطاتهم بأمور تبدو في نظرهم اهم من العلاقات الاجتماعية وهذا كله مرده لزيادة الحمل البيئي عليهم . (Milgram, 1970)

٤ - مدخل قلة الاثارة :

عند تعرضنا للحديث عن المدخل السابق (مباشرة مدخل الحمل البيئي الزائد) اوضحنا ان مواجهة الانسان لعدد من المثيرات المتزايدة والتي تفوق طاقته يشعره بانه يتعرض لحمل بيئي زائد والعكس صحيح تماما اي ان الفرد اذا ما كان يعيش في بيئة تتصف بقلة الاثارة وتخلو من تنوع المثيرات فيها ويتكرر في حياته نفس المثيرات التي يتعرض اليها باستمرار فان هذا الفرد في الأغلب والاعم يكون مهيئا للقلق والتوتر وبعض المشكلات أحيانا (Zubek, 1969) هذا فضلا عن أن خلو البيئة من تنوع المثيرات وتعددتها قد يعرض الحواس ذاتها لنوع من الضعف حيث تحبب قدراتها تدريجيا وعبر فترات زمنية طويلة وذلك لعدم استعمالها استعمالا فيه اي نوع من التحدي .

ان تأثير البيئة على سلوك الانسان يبدو لنا في كل كبيرة او صغيرة يتعرض لها الانسان في البيئة التي يعيش فيها ، لعلنا نسلم بان كل انسان في حاجة الى الشعور بالانتماء الى مجتمع ما ، وطن ، أسرة ، مدرسة ، نادي ، حيث أن الشعور بالانتماء حاجة من الحاجات النفسية الاساسية عند الانسان لدرجة ان الانسان عندما يفتقد ما ينتمي اليه فانه يلجأ الى استخدام الرموز البديلة عما ينتمي اليه تصوره ووطنه وهو في الغربة او تعديل البيئة التي يعيش فيها حتى تتشابه بشكل او بآخر بالوطن الذي يحن اليه . والشئ الملفت للنظر ان انتماء الفرد لبيئة معينة يرتبط بدرجة توفر المثيرات

التي تتحدى عملية الادراك البيئي عند الانسان بمعنى ان البيئة الاقل اثارة اقل جذبا لانحاء الفرد اليها لأن الفرد دائما ينمي لما يعتقد انه يقويه ويعزز به .

في الحقيقة ان خديشنا عن البيئة عالية الاثارة والبيئة منخفضة الاثارة يجعلنا تلقائيا نلتفت الى الفصل الدراسي كبيئة خاصة ففيه نلاحظ ان الكثيرين يدعون لضرورة ان يوجد في الفصل دائما ما يثير انتباه التلاميذ ، صور ، لوحات ، مجسمات ، خرائط وغيرها . وكلما كانت هذه المثيرات ذات اتصال بالمادة التعليمية ، بمستوى النضج الذي وصل اليه التلاميذ ، وبالبيئة التي يعيشون فيها خارج المدرسة كلما كانت هذه الوسائل ذات اثر تعليمي وتربوي مفيد بالنسبة لهم ، الا اننا لا بد وان نشير الى ان اهمال هذه النقطة وكذلك المغالاة فيها يعتبر طرفين غير مرغوبين بالنسبة للعملية التعليمية . وهما من وجهة نظر علم النفس البيئي يمثلان حالة الحمل البيئي الزائد ، وحالة قلة الاثارة (عكس زيادة الحمل البيئي) والصحيح هو الاعتدال في مستوى الاثارة في البيئة كلما كان ذلك ممكنا .

وفي غير الفصل الدراسي اوضح (Parr, 1966) ان المناطق الجبلية والغابات تنصف بامكانية جذب الناس اليها بما يتوفر فيها من عناصر الاثارة وتنوع في الاحداث وتعدد في المثيرات باستمرار على عكس المدن التي وان اتسعت وتعددت انماط الحياة فيها الا ان نظام الحياة اليومية فيها من أساليب الانتقال ووسائل الاتصال والمباني وتلبية الحاجات الاساسية كالطعام والشراب وغيره يتم وفق نظم مكررة لا تغير فيها ولهذا نجد انها عناصر بيئية منفردة وليست جذابة بالنسبة للفرد .

ويذهب البعض فيما يتصل بنفس النقطة الى ان غياب الاثارة يؤدي الى الملل وهو عامل يعتبره الكثيرون سببا من أسباب بعض مشاكل التحضر مثل انحراف الاحداث والتخريب في المنشآت وغيرها .

٥ - مدخل مستوى التكيف :

لكل فرد مستوى امثل من التكيف هو المستوى الذي يستطيع فيه الفرد

التعامل مع المثيرات دوغما شعور لا بحمل زائد ولا بقلّة إثارة، فهو يتقبل هذه المثيرات أو يستجيب لها دوغما اضطراب من أي نوع ولا بأي درجة (Wohlwill, 1974).

فالفرد لا يحب الازدحام في بعض المناسبات في حين تجده يرحب به في مناسبات أخرى مثال ذلك لا أحد يحب الازدحام عند الطبيب فيما لا أحد يحب دخول مباراة لكرة القدم فيجدها خالية من الجمهور والشئ نفسه ينطبق على المثيرات الأخرى خاصة البيئي منها مثل الصوت ، الحرارة ، الأضواء ، والتهوية .

وهناك من يصنف المثيرات البيئية الى ثلاثة تصنيفات هي المثير الحسي ، المثير الاجتماعي ، والحركة . فأي زيادة أو نقصان في كل من هذه المثيرات الثلاثة عن المستوى الأمثل للتكيف عند الفرد يعتبر أمرا غير مرغوب فيه ويعرض سلوك الفرد للاضطراب بشكل ما .

وهذه التصنيفات الثلاث للمثيرات البيئية تختلف فيما بينها حسب ثلاثة وجوه ، درجة شدة المثير ، تنوع المثير ، وشكل أو غط المثير .

وتلعب خبرة الفرد دورا هاما في تحديد المستوى الأمثل للتكيف عند الفرد فالشخص الذي يعيش في مدينة ذات كثافة سكانية عالية مثل القاهرة وشنغهاي وهونج كونج من السهل عليه أن يتكيف مع الحياة في مدينة مكتظة بالسكان على عكس فرد آخر ينتقل من الريف الى أي من هذه المدن . ونفس الظاهرة نلاحظها عندما ينتقل أحد سكان المناطق الحارة الى منطقة حارة أخرى .

كما يتأثر مستوى التكيف عند الفرد بحسب درجة التغير التي يتعرض لها عن المستوى الذي اعتاد عليه . فمن يعيش في منطقة باردة وينتقل الى أخرى حارة قد يصعب عليه التكيف ، فيما قد يكون من السهل عليه أن يتكيف في منطقة أقل حرارة أو نقول منطقة دافئة .

٦ - مدخل السلوك المقيد :

ونقصد به تلك الحالة التي يتعرض فيها الفرد لموقف لا يستطيع فيه السيطرة او التصرف بحرية تجاه عناصر بيئية معينة مثال ذلك عندما يلتحق الفرد بمكان عمل مزدحم جدا فلا هو يستطيع ان يغير من ازدحام مكان العمل ولا هو يستطيع ان يترك العمل لحاجته اليه ، ونفس الشيء يمكن ان نلاحظه عندما نتعرض لعاصفة رملية شديدة ، فالفرد الراغب في الخروج من منزله عندئذ يشعر بأنه مقيد السلوك حيث لا هو يستطيع ان يواجه العاصفة ولا هو راغب في البقاء في المنزل .

ومن الطبيعي ان الفرد لا يقف مكتوف اليدين امام مثل هذه المواقف اللهم الا اذا كان عاجزا عن التكيف لكن الفرد السوي سرعان ما يتخذ من اساليب التكيف ما يجعله قادرا على مواجهة هذه المواقف البيئية . ففي حالة الازدحام التي تحدث من حريته يتخلص منها بواسطة الانعزال مثلا ، وفي حالة الجو العاصف يستخدم بعض التقنيات التي تساعدنا على البقاء في المنزل ، وفي حالة فشلتنا في التغلب على القيود البيئية التي قد تعوق سلوكنا غالبا ما نصل الى حالة تسمى بالعجز المتعلم تلك الحالة التي نشعر فيها بأنه لا سيطرة لنا على الموقف او نشعر فيها بضعفنا عن تغير الموقف .

وحالة العجز المتعلم هذه اذا ما تعرض لها الفرد قد تزداد تأثيرا خطيرا عليه الا اذا تكررت وطالت فترات الزمنية اذ يمكن ان يترتب عليها الشعور بالكآبة والمخاوف من عدم السيطرة على مثل هذه المواقف .

٧ - مدخل الايكولوجية الاجتماعية :

لكل مكان يلجأ اليه الفرد في البيئة التي يعيش فيها وظائف مجردة يرسم لها حدودها ويحدد وظائفها المكان نفسه من جهة والغرض الاجتماعي من المكان من جهة اخرى ، وعلى سبيل المسجد مكان للصلاة ، المستشفى مكان للعلاج والغرفة

ذات الجدران الأربعة مكان للعمل أو للنوم أو غير ذلك من الأعمال فلكل من هذه الاماكن وظيفتها المحددة .

ادراك الفرد لهذه الوظائف وممارسة لها في هذا المكان تؤثر على سلوكه باستمرار كما ان سلوك الفرد كذلك يؤثر على المكان ويكفي ان تسمع كلمة فصل دراسي عندئذ تتوقع مباشرة انواعا من السلوك التي تمارس داخله ، فهناك معلم يقوم بالتعليم وهناك طلاب يقومون بالتعلم وهكذا .

على ان اداء المكان لوظيفته الاجتماعية انما يحتاج اى عدة من الافراد يتناسب مع حجم المكان واساليب استعماله وكلما كان هذا العدد مناسباً للمهام المطلوبة كلما كان المكان اقدر على تلبية الاحتياجات وسهولة القيام بالمهام التي انشأ من اجلها وكان تأثيره على سلوك الانسان المتعامل معه فعالاً (Barker , 1968) . وعلى سبيل المثال تظل المدرسة الصغيرة الحجم افضل نسبياً من المدرسة الكبيرة الحجم اذا ما نظرنا اليها من وجهة نظر ممارسة الطلاب للأنظمة المختلفة . ومن الجدير بالذكر ونحن بصدد الحديث عن العلاقة بين امكانيات المكان وطرق استعماله وتأثير ذلك على سلوك الانسان ان نشير الى خاصية مما يتميز بها علم النفس البيئي بشكل عام وهذا التدخل بشكل خاص الا وهي محاولة دراسة سلوك الانسان في وضعه الطبيعي في الحديقة التي يلهو فيها او في المسجد الذي يصلي فيه ، في الفصل الذي يتعلم فيه او في البيت الذي يسكنه وذلك خلاف لما درجت عليه ابحاث فردية اخرى في علم النفس من اجراء دراساتها داخل المعمل حيث يظل السلوك معرضاً لتأثيرات تنحويه بعيداً بدرجة او اخرى عن السلوك الطبيعي .

لكن يعيب هذا الاتجاه في دراسات علم النفس البيئي عدم التمكن من تحديد العلاقة السببية بين البيئة والسلوك ايها السبب وايها النتيجة ، ام انهما يتبادلان الأدوار بصفة دائمة .

الفصل الرابع

أهم العوامل المحددة للسلوك من منظور علم النفس البيئي

- توطئة:

إن تفاعل المشكلات البيئية وانعكاساتها الخطيرة على المكونات الأساسية للكرة الحية والتي باتت تتذر بأخطار شتى تهدد الوجود البشري على سطح الأرض بما في ذلك المشكلات البيئية الكبرى مثل تفكك طبقة الأوزون وارتفاع درجة حرارة الأرض، وظاهرة الملو والتينا والأمراض الخطيرة كالسرطان والإيدز وأمراض القلب وجهاز التنفس، هذه المشكلات التي تعود في معظمها إلى الممارسات السلوكية الخاطئة للإنسان تجاه بيئته... في ظل هذه الظروف وبتأثير الحاجة تظهر في بداية السبعينيات فرع جديد من فروع علم النفس يدرس العلاقة المتبادلة بين السلوك والبيئة من منظور التفاعل بين الإنسان وبيئته أصبح يعرف بعلم النفس البيئي. وفي هذا الفصل سيتم تعرف أهم العوامل التي تؤثر في السلوك كما يدرسها هذا الفرع الجديد وكما درستها نظرية (روثر) في التعلم الاجتماعي.

٤-٤-٤ العوامل المؤثرة في السلوك:

٤-١-١-٤ الدوافع والحاجات وحورهما في السلوك:

إن الدافعية عبارة عن حالات يتم من خلالها شحن العضوية بالطاقة التي تحرك السلوك وتوجهه نحو تحقيق هدف أو غرض معين، هذا إضافة إلى وظيفتها فسي إعطاء السلوك صفة الاستمرارية حتى يحقق هدفه.

يشير مصطلح الدوافع Motivation «إلى نزعة للوصول إلى هدف معين وهذا الهدف قد يكون لإرضاء حاجات داخلية أو رغبات خارجية. أما الحاجة (Need) فهي حالة تنشأ لدى الكائن الحي عند انحراف الشروط البيولوجية أو السيكولوجية اللازمة لحفظ بقاء الفرد عن الوضع المستقر أو المستقر...» (توق؛ وعدس، ١٩٨٤، ص: ١٤٠).

ويختلف الباحثون في علم النفس في قضية تطابق المصطلحين في المعنى والوظيفة أو عدم تطابقهما «وقد أشار هيلجارد وهل (Hilgard and Hull) إلى أن مفهوم الحاجة ومفهوم الدافع مفهومان غير متطابقين». (ناصريف، ١٩٩٦، ص: ٣١، ٣٧).

ورغم ذلك فإن البعض استعملهما للإشارة إلى نفس الشيء «ونظراً لهذه الصلة الوثيقة بين الحاجة والدافع فقد استخدمهما بعض علماء النفس بالمعنى نفسه وللتمييز بينهما يستخدم مفهوم الحاجة للدلالة على الحالة الفيزيولوجية للخلايا الناجمة عن الحرمان، بينما يستخدم مفهوم الدافع للدلالة على الحالة السيكولوجية الناجمة عن الحاجة والتي تدفع الفرد للسلوك باتجاه إشباع الحاجة وعلى هذا يمكن القول: أن الدافع هو الجانب السيكولوجي للحاجة ومن الواضح أن الدافع لا يمكن ملاحظته مباشرة وإنما نستدل عليه من الإثارة السلوكية التي يؤدي إليها وبذلك نقول: إن الدافع عبارة عن مفهوم أو تكوين فرضي». (توق؛ وعدس، ١٩٨٤، ص: ١٤٠-١٤٢).

وتعد الدافعية (Motivation) إحدى الافتراضات الأساسية لنظرية (روثر) حيث يرى «أن الدافعية موجهة للهدف، وأن سلوك الأفراد... يكون محكوماً بتوقعاتهم التي تحدد مدى تقدمهم نحو أهدافهم الموجهة بدوافعهم... وإن التعزيزات... هي التي تدعم تقدمهم نحو الأهداف المشبعة لدوافعهم... وتؤثر الحاجات عند (روثر) - على قيمة التعزيز... فترتفع قيمة المعزز بارتفاع حاجة الفرد إليه. ومن ثم تؤثر الحاجة على الأهمية النسبية للمعزز أي قيمته النسبية التي تزداد بزيادة الحاجة إليه ونقل كلما تضاعلت هذه الحاجة.

ويرى (روثر) أن الحاجة مركبة وأنها تنطوي على ثلاث مكونات أساسية هي: قوة أو جهد الحاجة، حرية الحركة في اتجاه إشباع الحاجة، قيمة الحاجة». (الزيات، ١٩٩٦، ص: ٣٤١، ٣٤٥-٣٤٧).

- تعقيب:

بما أن هذه الحاجات لا تتحقق إلا في إطار تفاعل الإنسان مع بيئته المحيطة به، وإن الحاجة إلى تقدير الذات وتحقيق الذات اللتان تقعان في قمة هرم الحاجات والدوافع، وترتبطان مباشرة بمفهوم الشخص عن ذاته، كل ذلك يستدعي الاهتمام بمفهوم الشخص عن ذاته كموجه لسلوكه الذي يسعى لإشباع هذه الحاجات، وعند الحديث عن تفاعل الإنسان مع محيطه لابد من التطرق إلى مركز الضبط لديه ومعرفة دوره في توجيه سلوكه ضمن بيئته والعمل على مساعدة الأفراد على تكوين مفهوم إيجابي عن ذاتهم وتعليمهم وتدريبهم على الضبط الذاتي للسلوك الذي ينبع من داخل الفرد الذي يعتبر نفسه مسؤولاً عن سلوكه مطلقاً من ضبط داخلي للسلوك ومفهوم إيجابي لذاته... ولا يلقي تبعات سلوكه على غيره، أو على عوامل الحظ والصدفة، والقدر... وبذلك تكون الحاجات والدوافع كمحرك للسلوك، موجبة ومضمونة، تسهم في استمرار السلوك البشري الإيجابي المدجج بمفهوم إيجابي عن الذات ويضبط داخلي لهذا السلوك بشكل يحميه من الانحراف في طرق ومسارات تؤذي البيئة المحيطة وتسيء إلى وجود الإنسان كجزء منها.

٤-٢-٤- التوقع والتعزيز وتأثيرهما على السلوك،

من المفاهيم الأساسية التي تؤثر في السلوك مفهومي التوقع والتعزيز (Expectancy and reinforcement)، فنظراً للدور الاجتماعي الذي يتحدد بأساليب سلوكية معينة فإن الفرد الذي يشغل دوراً معيناً يمكن التوقع بأنه يسلك بأسلوب معين... وقد تكون لدى الفرد الذي يؤدي دوراً معيناً توقعات ترتبط بذلك الدور، وتنشأ عن هذه التوقعات أنواعاً معينة من السلوك... عن (الأشول، وآخرون، ١٩٧٧، ص: ٣٠٠).

وقد اعتبر (روتر) التوقع من الأركان الأساسية لنظريته في التعلم الاجتماعي وعرفه بأنه «الاحتمالية التي يضعها إنسان ما بأن التعزيز (Reinforcement) يحدث كوظيفة للسلوك المحدد الذي سيقوم به في موقف معين أو في مواقف معينة. وهو أمر مستقل عن قيمة التعزيز السابق وأهميته». (حجاج، ١٩٨٦، ص: ٢١٠).

وحسب نظرية (روتر) فإن التوقع من المسلمات الأساسية لسي تحديد السلوك حيث أن «السلوك محدد ليس فقط بطبيعة وأهمية الهدف أو التعزيز ولكن أيضاً بالتوقع المبني على الخبرة السابقة والذي يفيد أن المعززات سوف تحدث». (الفقي، ١٩٨١، ص: ٣٩٠) أما بالنسبة لقيمة التعزيز فقد ورد في الافتراضات الأساسية للنظرية أنه «لا البيئة وحدها، ولا الفرد كل على حده بعد مسؤولاً عن السلوك ومعنى ذلك أن قيمة التعزيزات لا تعتمد كلية على نمط التأثير الخارجي المعزز وخصائصه، ولكن على معناه ودلالاته المدركة التي تحدد بالمسعة المعرفية، كما لا تعتبر الخصائص

أو السمات الشخصية وحدها محدداً للسلوك... وتعرف قيمة التعزيز على أنها درجة تفضيل أي معزز أو تعزيز يمكن الحصول عليه إذا كانت احتمالات أو إمكانيات الحصول على أي منها متساوية». (الريات، ١٩٩٦، ص: ٣٣٩، ٣٤٣).

ويرى (روثر) أن «الأهداف السلوكية والحاجات والتعزيزات تكتسب قيمتها لارتباطها بأشكال التعزيزات الأخرى... فتكتسب النفود قيمتها من أشكال التعزيز التالية التي ترتبط بها». (حجاج، ١٩٨٦، ص: ٢٣٢).

- تعقيب:

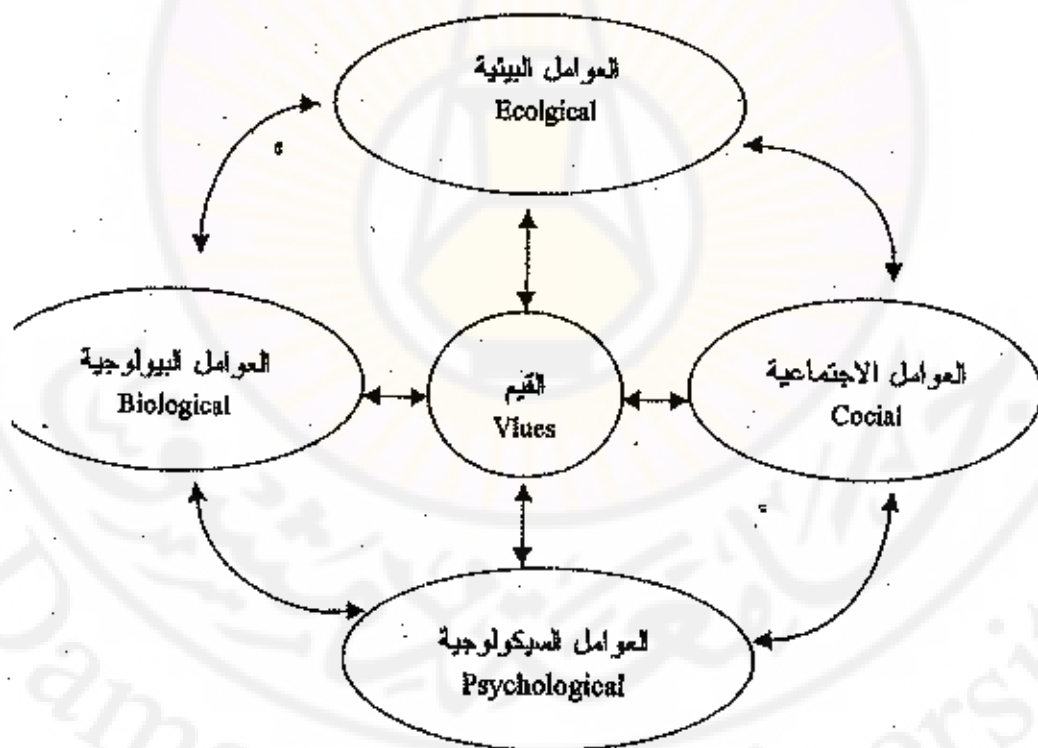
ومن ذلك يمكن الاستنتاج أن التوقع والتعزيز لا يدخلان ضمن التركيبة المعقدة للعوامل التي تحرك وتوجه وتعمل على استمرار السلوك من حاجات ودوافع وأهداف واتجاهات وغيرها ولكن التعزيز والتوقع من العوامل الضرورية والمهمة لأداء هذه التركيبة المعقدة من العوامل لعملها وإيجازها للسلوك المناسب في الوقت والمكان المناسب، فهي كالضوء بالنسبة للنبات الخضراء، لا تصل إلى هدفها في صنع غذائها وإيضاج ثمارها إلا بوجود الضوء المساعد على ذلك... وعليه فإن الشخصية الثابتة نسبياً تجعلنا قادرين على التنبؤ بسلوك الفرد... كما أن محاولة الناس للوصول إلى تحقيق أهدافهم بسبب توقعاتهم للنجاح بعد تحقيق هذه الأهداف يجعل المرء يستنتج أن السلوك البشري محكوم بما يتوقعه الشخص في ضوء التعزيزات والأهداف التي وضعها لهذا السلوك وعلى ذلك فمن المفترض أن المفهوم الإيجابي للذات يرتبط بالضبط الداخلي لدى الشخص ويعملان معاً على توجيه السلوك في اتجاه ما يتوقعه الشخص من الأهداف التي توجهه السلوك نحو النجاح المرتقب. كل ذلك في ضوء معرفة الشخص بذاته وسعيه لتحقيقها، وثقته بقدراته الذاتية، وإمكانية التحكم والضبط الذاتي أو الداخلي لديه، أو استسلامه لعوامل الحظ والصدفة وتدخل الآخرين.

إن الشخص الذي يكون مفهوماً إيجابياً نحو ذاته ويقبل الآخرين ويتقن قدراته الذاتية يعمل على المحافظة على بيئته ويرى النتائج الإيجابية لسلوكه، كأن يتمتع من يحافظ على النظافة بصحة جيدة وبنية قوية، فإنه يميل إلى تكرار سلوك المحافظة على النظافة لاسيما إذا كان هذا السلوك إضافة إلى نتائجه الإيجابية عليه يؤدي إلى ردود فعل إيجابية معززة من قبل الآخرين فسيان هذا الشخص يميل إلى تكرار مثل هذه السلوكات حتى تصبح سمة أساسية وأصلية لديه، أما في الطرف المقابل فإن الشخص الذي يشعر بالعجز تجاه بيئته وأنه غير قادر على التغيير فيها وأن كل ما يحدث له نتيجة لعوامل الحظ والصدفة والقدر فإنه لا يسعى إلى أي نوع من التغيير وينظر إلى المكان الذي يعيش فيه على أنه جزء من تركيبته الشخصية فيرتبط الإحباط لديه بقذارة المكان على سبيل المثال مما يشعر هذا الشخص بعدم القدرة على عمل أي شيء في سبيل تغيير واقعه الذي يعيشه.

٤-٤-٣- القيم ودورها في السلوك:

يكتسب الفرد في إطار التفاعل بينه وبين محيطه الاجتماعي من خلال التشبُّه الاجتماعي مجموعة من القيم (value)، تنمو وتتطور وتتدرج وتتسق فيما بينها مكونة منظومة واحدة يستند إليها الفرد في الحكم على المواقف واتخاذ القرارات وتستمر القيم في توجيه سلوك الفرد وتسعى إلى التطابق بينها وبين هذا السلوك.

وتعتبر القيم «حالات خاصة من مفهوم الاتقاء، تعتبر محصلة تطور الكثير من عمليات الابتقاء والتعميم التي تنتج اتساقاً طويلاً المدى، وتنظيماً في سلوك الفرد. فالقيم اتجاهات مركزية نحو ما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه، أو نحو ما يصح وما لا يصح. وتنقسم القيم بأصناف الوجوب أو الإلزام التي تكتسب في ضوء معايير المجتمع والإطار الحضاري الذي تنتمي إليه هذه القيم». (خليفة، ١٩٩٢، ص: ٥٧، ٥٩). وتكتسب القيم وفق محددات متنوعة يوضحها الشكل التالي:



الشكل رقم (٢)

الشكل رقم: (٢) يوضح محددات اكتساب الثيم حسب تصنيف موريس (Morris). عن (م.س)، ص: ٨٧.

إن القيم تشكل محور ثقافة أي مجتمع، بل تمثل لب الثقافة وجوهرها، فهي التي تحدد وتنظم النشاط الاجتماعي لكافة أفراد المجتمع وقد ربط علماء النفس بين القيم والشخصية الإنسانية، حتى اعتبر ميرفي (Mirphy) أن التنظيم القيمي يقع في القمة من تنظيم الشخصية. عن (أحمد، ١٩٩٢، ص: ٢٤).

وقد صنف ريشر (Rescher) القيم وفق أسس متعددة منها التصنيف على أساس موضوع القيمة وضمن هذا التصنيف «القيم البيئية، كتفضيل الترتيبات والتعديلات ومثلها الجمال وتقوم القيم بوظائفها، باعتبارها أدوات لاستمرار صورة الفرد عن ذاته وتحسينها وهو ما أشار إليه (ماككوجل) بعاطلة اعتبار الذات». (خليفة، ١٩٩٢، ص: ١٣٧، ١٥٣).

تؤكد أهمية القيم في دفع السلوك وتوجيهه أن الأشكال المختلفة من الحلول التي توجه لمعالجة المشكلات البيئية يجب أن تقدم في إطار نظام أخلاقي قيمي شامل، يعمل على تعزيز السلوك الإيجابي نحو البيئة، في إطار تنمية قابلة للاستمرار، أحد أهم أهدافها استبدال القيم التي تدفع إلى أشكال السلوك الضلبي نحو البيئة، وإحلال قيم بديلة مكانها، فتمتدح القيم التي تفترض أن العالم يحتوي على موارد لا نهائية مسخرة للإنسان الذي يتمتع بمركز خاص، فوق الطبيعة وخارجها وأن الطبيعة شيء يجب قهره والتغلب عليه... هذا إضافة إلى قيم تعزز عادات الاستهلاك المتسرع والتسريع للموارد المختلفة، حيث تعمل الصناعات الحديثة وبهدف الربح فقط على إنقاص عمر السلعة، والآلة «فلكي يزيد الاستهلاك يجب أن تنقص باضطراد مدة بقاء ما يستهلك من سلع، سواء بتخفيض مستوى المواد المستخدمة من حيث الكم أو الكيف، أو بالاستفادة من التقدم التكني، وتقلبات الأنواق في تسريع ظاهرة التآكل لمتوسط مدة بقاء السلعة أو الآلة». (عثمان، ١٩٩٤، ص: ٥٦).

إن عملية اكتساب القيم عملية معقدة جداً، لا يمتلكها الإنسان إلا عبر مراحل طويلة من التنشئة الاجتماعية، وبعد رسوخ القيم لدى الفرد يمكن تغييرها أو تعديلها ولكن هذه العملية ليست عملية سهلة أبداً وتتطلب «معرفة القيم التي يتمسك بها الإنسان ويكون اختياره لها عن اقتناع، ولا يكتفى بالاختيار وإنما... ترجمة هذه القيم عملياً وإدخالها في نسيج الحياة اليومية للفرد». (عيسى، ١٩٨٦، ص: ١١١).

وعليه فإن ما تتعرض له البيئة من مشكلات يستدعي استبدال الأخلاق البيئية السائدة وإحلال أخلاقيات بديلة «إن مثل هذه المواقف تؤدي بوجه عام، إلى مبادرة المجتمع بالقيام بالاجراءات

اللازمة لتخفيف حدة المعاناة والمشقة، والتصدي للمشاكل على كثرة أنواعها». (نص تقرير لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي، ١٩٩٥، ص: ٧٤).

وبذلك يمكن أن يسلك الفرد بشكل إيجابي نحو بيئته فيكون منسجماً مع قيمه المخزونة في شخصيته المتوازنة، بقدر من خلالها ذاته ويضبط سلوكه معتمداً على قيمه البيئية التي تسعى للحفاظ على البيئة وتوجه السلوك في هذا المسار.

٤-٤-٤- الاتجاه ومدوره في السلوك،

إن الاتجاه (Attitude) يدخل في مكونات كل سلوك إنساني، ويسهم المكون الاجتماعي في السلوك، بتوجيهه نحو هدفه، ويمتد تأثير الاتجاه النفسي إلى كل أشكال السلوك التي يمارسها الفرد في بيئته الطبيعية والمشيدة، ويمكن تعريف الاتجاه النفسي بأنه «تركيب عقلي نفسي أحدثته الخبرة المتكررة، ويمتاز بالثبات والاستقرار النسبي. وهو حالة عقلية نفسية: حالة مع أو ضد حالة حسب أو كراهية». (منصور غبريال، ١٩٨٥، ص: ١٤٩). وعرف (ألبرت) الاتجاه بأنه «حالة من الاستعداد العقلي العصبي التي تكون أو تنظم خلال التجربة والخبرة والتي تسبب بدورها تأثيراً موجهاً على استجابات الفرد لكل الموضوعات والمواقف التي ترتبط بهذا الاتجاه». (صكر الأتصاري، ١٩٨٣، ص: ١٠٥).

والاتجاهات مفاهيم قابلة للتعديل والتغيير بطرق مختلفة «ويلاحظ عديد من الباحثين في علم النفس البيئي أن أكثر الأساليب السائدة في تغيير اتجاهات الأفراد نحو البيئة تنحصر في أسلوبين رئيسيين هما أسلوب الدعاية والإعلان بوسائل مختلفة... وأسلوب الثواب والعقاب أو ما يعرف باسم التعزيز الإيجابي والتعزيز السلبي... كالأعلانات التي تحذر من التلوث... أو ما تقوم به العديد من الدول المتقدمة من تحديد جوائز لمن يستخدمون وسائل نقل صغيرة» (م.س، ص: ١١٣).

ويحدث تغير الاتجاه اعتماداً على الخبرات السابقة للشخص وتحليله لمضامينها، كما تؤثر الجماعة في الشخص وتشكل عامل ضغط عليه، فتعمل على إقناعه بتغيير اتجاهه، كما يحدث في الحملات التي تقوم بها الجمعيات والمنظمات والمؤسسات المختلفة، لكسب التأييد لأمر مثل المحافظة على الحيوان والرفق به أو القضاء على التلوث البيئي. وهذه المحاولات لتغيير الاتجاهات عن طريق نقل المعلومات واستدراج العواطف تسمى (اتصالات إقناعية) والاتصالات الإقناعية ذات تأثير كبير على المجتمع وعلى سلوك الأفراد فيه... وتكون الاتصالات أكثر فاعلية عند تركيزها على نوع الحجج التي تقدمها، وكيفية هذا التقديم وزمنه، والتركيز على العواطف والمعتقدات،

وخصائص الشخص المتلقي للرسالة الاتصالية، إضافة إلى وجود الاستعداد عند الشخص لأن يفسر اتجاهه. عن (موسى، ١٩٨٥، ص: ٥٧٩-٥٨٢).

- تعقيب:

إن الاتجاهات باعتبارها عنصراً أساسياً في تكوين السلوك، وخاصيتها الديناميكية وقابليتها للتعديل، تفتح الأمل في إمكانية كبيرة لتعديل الاتجاهات السلبية نحو البيئة ومنها تعديل السلوك البيئي غير المناسب من أجل الوصول إلى بيئة صحية وصحيحة مناسبة للإنسان، وخصوصاً إذا ما روعيت أثناء إعداد الرسالة الخاصة بتعديل الاتجاه الخصائص السابقة التي تؤدي إلى نجاح الاتصالات الإقناعية في تحقيق أهدافها، انطلاقاً من الفهم الإيجابي للذات والضبط الداخلي لدى الشخص وتضمين الرسائل الاتصالية التي تهدف إلى تعديل الاتجاه معلومات وتقنيات لا تتناظر مع مفهوم الشخص عن ذاته، ومركز الضبط لديه، وعندما يحدث هذا الاتصال بين الرسالة الإقناعية وهذين المتغيرين في الشخصية فإن ذلك يسهم دون شك في فاعلية الرسالة في تعديل الاتجاهات السلبية نحو البيئة وإحلال اتجاهات إيجابية تعمل على استجلاء سلوكيات ماعسة تسهم في حل المشكلات البيئية القائمة وتمنع وقوع مثل هذه المشكلات مستقبلاً وهذا ما معى إليه هذا البحث في الجانب الميداني منه.

٤-٥-٤-١- الحيز الشخصي والحيز المكاني وعلاقتهما بالسلوك:

يتأثر الفرد في علاقاته مع الآخرين بمجموعة من العوامل ويكون تأثير بعض هذه العوامل مباشراً، ومنها الحيز الشخصي (personal space) والحيز المكاني للفرد.

٤-٥-٤-٢- تعريف الحيز الشخصي:

يعرف الحيز الشخصي «بالحدود غير المرئية التي تحيط بالفرد... ويحدها لنفسه ويتصور أنه يعيش داخلها. وأنه ليس للغير أن يخرقها وأنه يحرم على من سواء تجاوزها حفاظاً على شخصيته». (عسكرا الأكصاري، ١٩٨٣، ص: ١٥٩).

وبسبب أهمية الحيز الشخصي للتوازن النفسي يبقى الإنسان متيقظاً أبداً للدفاع عنه ضد أي اختراق من الآخرين، وفي معظم الحالات يتجنب الإنسان الاقتراب من الحيز الشخصي للآخرين ويرعى حرمة. وقد افترض (هول) وغيره أن الحيز الشخصي يكون نوعاً من النفاذة السيكولوجية القابلة للحمل والتي تغلفنا. وعندما يقتحم الحيز الشخصي نصبح غير مرتاحين أو شائشين... ويرتبط ذلك بمركز الضبط الداخلي والخارجي لدى الشخص، إذ تبين أن الأشخاص ممن ذوي وجهة الضبط الداخلي يحتاجون إلى حيز شخصي أقل من ذوي المصدر الخارجي. وربما يرجع ذلك إلى أنهم

معرون أنهم أكثر قدرة على مواجهة التهديد إذا حدث لهم ذلك. عن (عبد الخالق، ١٩٩١، ص: ٦٤١).

٤-٥-٢- تعريف الحيز المكاني:

الحيز المكاني هو «المكان الذي يعيش ويتعامل معه وفيه الإنسان وإن اختلفت درجة ملكيته». وهو يختلف نسبياً عن الحيز الشخصي من حيث كونه يمتاز بحدود مرئية ومنظورة. يمكن القول: أن الحيز المكاني أو المكانية هي مجموعة من السلوك تصدر عن الفرد أو الكائن حي عموماً مبنية على إدراك ملكية مساحة مادية ما... وهذا يعني التفاف عن هذه الملكية.. وكما نارت البحوث فإن حوادث التخريب غالباً ما تقع في الأماكن والمنشآت غير محدودة الملكية». (عسكراً الأكصاري، ١٩٨٣، ص: ١٦٤-١٦٥).

ولد وصف (البيمان، ١٩٧٠) العوامل المؤثرة في السلوك وضمها الحيز الشخصي وقال: إن صفات البيئة الفيزيائية تعد أحد هذه العوامل من حيث عدد شاغلها وترتيبهم في الموضع، الأثاث الموجود فيه». (جابر وآخرون، ١٩٩١، ص: ٢٤٤). ويشير (Elzman) إلى وجود ثلاثة طردية بين العمر والحيز الشخصي، ويفسر ذلك بزيادة النشاط المرافق لعمليات النمو ويزور مفهوم الذات (التمان، ١٩٧٥). عن (عسكراً الأكصاري، ١٩٨٣، ص: ١٦٢).

ويرتبط الحيز الشخصي والحيز المكاني بشكل مباشر بمركز الضبط الداخلي - الخارجي الذي يتحكم بتفضيلات المسألة الشخصية أو الحيز الشخصي، وكذلك يتحكم برودود الأعمال نحو زحام وزيادة المكانية المرتفعة... فالأشخاص ذوي الضبط الخارجي يشعرون بأمان أكثر إذا كانوا مبنين عن أماكن تواجد الآخرين الغرباء الذين يتحكموا بمصيرهم... بينما يتحمل ذوي الضبط الداخلي شدة عالية مقارنة مع الخارجيين وذلك في شروط الحياة العالية الشدة. كما يشير للنقص في سباب الضبط المدرك ضيقاً أو إزعاجاً نفسياً فضلاً عن أن ذوي الضبط الداخلي يتعلمون ستراتيجيات التكيف بشكل طبيعي، ويؤمنون بتطور أكثر لآليات السيطرة على المواقف الصعبة بالشدة المرتفعة والكبيرة. (Clifford, 1997, p.83).

ويتأثر السلوك بشكل مباشر فيما يعرف بالمجال الحيوي الذي قال به (اليفين) وهو يشير «إلى مجموع الوقائع الممكنة والتي تحدد سلوك شخص ما في وقت معين، فالسلوك هو دالة أو وظيفة لمجال الحيوي، والمجال الحيوي هو نتاج التفاعل المتبادل بين الشخص والبيئة. ويمكن النظر إليه على أنه يشتمل على الماضي والحاضر والمستقبل، ولا ينكر (اليفين) أن للإنسان ماضياً إنما يؤكد للنظر إلى سلوك الإنسان فقط في محتواه الحاضر». (عليوم، ١٩٨٧، ص: ٦٤٦-٦٤٧).

إن ما ذكر سابقاً يجعل الباحث يفترض إمكانية المحافظة على البيئة إذا نظر الشخص إلى هذه البيئة بشكل تكون فيه دائماً كحيز شخصي وحيز مكاني للفرد يشعر بالانتماء إليها وبمسؤوليته في الدفاع عنها والمحافظة عليها وكذلك أن ينحو الضبط الداخلي في سلوكه وكل ذلك من شأنه أن يؤدي إلى المحافظة على البيئة ومواردها وإيجاد الحلول التي يمكن أن تقلل أو تخفف من مشكلاتها المتزايدة...

وبمعنى آخر... بما أن التخریب لا يقع غالباً إلا في الأماكن غير المحددة الملكية «أو في الممتلكات العامة نتيجة عدد من الظروف النفسية كالاعتداء النفسي أو نتيجة لظروف التطور الاقتصادي والثقافي هذا إضافة إلى إحساس الفرد بأنه مجهول ولن يعرف عليه أحد» (ابراهيم: ١٩٨٧، ص: ٢٢٢). يمكن منع ذلك جعل جميع موجودات البيئة التي يتعامل معها الإنسان ضمن الظروف السابقة ملكية مباشرة تخص إما الأفراد وإما المؤسسات الاجتماعية أو قطاع من هذه المؤسسات بشكل تكون المؤسسة قادرة على الدفاع عن هذه الملكية، وقد تكون هذه الطريقة من الطرق الفعالة في منع أشكال كثيرة من السلوك السلبي على البيئة ومواردها وخصوصاً ضمير المتجددة منها.

٤-٤-٦- العجز المتعلم وعلاقته بالسلوك.

يمكن الاعتماد على مفهوم العجز المتعلم (Learned Helplessness) كمدخل من مداخل تفسير السلوك عامة والسلوك البيئي بشكل خاص، وقد توصل جورين وجورين (Gurin and Gurin) إلى أن الشخص الذي هو عرضة للفقر «غالباً ما يسيطر عليه توقعه بالعجز وعدم القدرة. ومن الواضح أن فكرة العجز وعدم القدرة قريبة من مفهوم نظرية التعلم الاجتماعي الخاصة بمركز الضبط بمعديه الداخلي والخارجي، فشعور الفرد أنه قادر على التأثير في النتائج سيؤدي إلى سلوك أكثر نشاطاً وأكثر على التحكم». (حجاج، ١٩٨٦، ص: ٢٧٥).

ونظرية العجز المتعلم لسليمان (Seligman) «تنص على أن نقص تحكم الفرد في بيئته يؤدي إلى مشاعر العجز، والتي تقود بدورها إلى الانسحاب... إن الآثار السلبية للمعيشة في بيئة ذات كثافة مرتفعة تنتج غالباً عن الشعور بالعجز وهو شعور بأن السرد لا يستطيع التحكم في علاقته الاجتماعية، ولا يتمكن من أن ينظم اقتحام الآخرين المساحة الشخصية له». (عبد الخالق، ١٩٩١، ص: ٦٣٥).

وهناك مدخل آخر يتعلق بمدخل العجز المتعلم في تفسير السلوك وهو مدخل الحمول البيئي الذي يقصد به مجموع التأثيرات التي يتعرض لها فرد مقابل قدرته على حمل تلك التأثيرات ومواجهتها. وعندما يقع الفرد تحت سيطرة العجز، يشعر بفقد السيطرة على المواقف التي يتعرض

لها، ويشعر بضغفه عن تغيير تلك المواقف، وعند تكرار حالة العجز وطول فترته الزمنية، يؤدي إلى الكآبة والمخاوف عند الفرد وهذا ناتج عن شعور بعدم القدرة على السيطرة على الموقف الذي يتعرض له الفرد.

فعندما يتعرض الفرد إلى الضوضاء مثلا ويرى بأنه غير قادر على التحكم بها أو ضبط مصدرها، فيؤدي ذلك إلى رد فعل نفسي يؤدي إلى العجز المتعلم، عند التعرض للمثير مع استمرار الشعور بعدم القدرة على التحكم فيه، وهذا ما يؤكد أصحاب مدخل السلوك المقيّد في تفسيرهم السلوك. عن (عسكر؛ الأنصاري، ١٩٨٣، ص: ٧١، ٧٥، ١٣٢).

- تعقيب:

ومنه يمكن القول: إن الكثير من المشكلات البيئية تستمر ويستمر الإنسان في صنعها نتيجة شعوره بالعجز تجاهها فمن يقود سيارة مثلا ويرى التلوث الجوي يدخان السيارات ويشعر بعدم قدرته على تغيير الواقع يستمر في ركوب سيارته، أو يستمر في عدم إصلاحها كونها لا تحترق القود بشكل كامل، ويمتد بها واحدة من ضمن مئات أو آلاف السيارات وهكذا فإن الشعور بالعجز عند مجموعة كبيرة من الأفراد يؤدي إلى استمرار المشكلة ويجعل منها ظاهرة عامة، وكذلك يمكن القول: ويتفسي الطريقة فيما يتعلق بسلوك النظافة إذ يشعر الفرد أنه عاجز عن القضاء على ظاهرة إلقاء القمامة والفضلات والأوساخ فيعتبر نفسه جزء من الواقع الذي يعيشه، لذلك يستمر في فعل السلوك السلبي نحو البيئة نتيجة شعوره بالعجز. ويمكن أن تنطبق هذه الأمثلة على الكثير من أشكال السلوك السلبي نحو البيئة.

٤-٧-٤ العدوان على البيئة.

توجد نظريات عديدة تفسر العدوان (Aggression) وقد «اعتبره بعضها سلوكا فطريا، يولد الإنسان به، ويأتيه بحكم تكوينه الفسيولوجي والبيولوجي؛ واعتبره البعض الآخر سلوكا مكتسبا، يتعلمه الإنسان من البيئة التي يعيش فيها... ويقصد بالعدوان الأفعال الصريحة التي فيها تعدي على النفس أو المال بالإيذاء أو الإكلاف والإضرار. وهدف العدوان إما الانتقام مسن للضحية أو وسيلة للحصول على ما مع الضحية... ويتعلم الإنسان الكثير من أنماطه السلوكية عن طريق مشاهدتها عند غيره، وقد افترض باندورا وروس، ١٩٦٢ (Bandura and Ross) أن الأطفال يتعلمون سلوك العدوان عن طريق ملاحظة نماذج العدوان عند والديهم ومدرسيهم وأصدقائهم، ووسائل الإعلام لمرئية، والقصص والحكايات... الخ». (مرسي، ١٩٨٥، ص: ٤٨، ٥٥).

وعند الحديث عن التفاعل بين الإنسان وبيئته من منظور علم النفس البيئي يمكن الحديث عن سلوك العدواني نحو البيئة، إذ يمكن اعتبار السلوك السلبي نحو البيئة سلوكا عدوانيا يمكن أن تدفعه

واقع متعددة، وقد يتمثل هذا السلوك بالعنوان المباشر نحو البيئة الخارجية أحياناً، وقد يكون موجهاً شكل لا شعوري نحو الذات في أحيان أخرى، وذلك عندما يرتبط السلوك العدواني بجوانب متعددة في الشخصية، ويتخذ منحى رمزياً يتمثل في العدوان على الذات.

وترى (هورني) أن جميع الناس يستخدمون العدوان ويفتالي العصبيون فيه خلال علاقتهم الآخرين، ويميل العصبي للانتقام من الناس الذين يهذون وفقاً للأمور التالية:

١- يقاوم العصبي العدوان الذي يتعرض له (حسب اعتقاده) شعورياً ولا شعورياً منطلقاً من مسألة نقادها أن العالم الذي يعيش فيه كله عدواني.

٢- دفاعاته المتبقطة لحماية نفسه من الآخرين الذين لا يثق بهم، يدفعه لذلك رغبة في القوة بالسيطرة على الآخرين.

٣- الرغبة الشعورية واللاشعورية في القوة والسيطرة على الآخرين، عن طريق تقديم المساعدة الإنسانية لهم، انطلاقاً من رغبة لدى العدواني في السيطرة على الآخرين فتكون المساعدة مشبعة لحاجة إلى السيطرة.

٤- اعتقاد العصبي بأن العالم من حوله تعود القوة والميول العدوانية، مما يدفعه إلى النظر إلى الآخرين نظرة مزدوجة من الازدراء والإشفاق، تدفعه إلى العدوان عليهم. حسن (غليسم، ١٩٨٧، ص: ٦١٩).

وتؤكد نتائج الأبحاث المتعددة على أن الظروف البيئية المحيطة بالفرد تؤثر في سلوكه ويمكن أن تحرك لديه العدوان. «الأفراد الذين يعيشون في أبنية مزدحمة، يظهر من بينهم الأفراد الأكثر ميلاً للعدوان، على من حولهم من الأشخاص والأشياء... وعناصر البيئة نفسها المسببة للعدوان». (حسكرا الأنصاري، ١٩٨٣، ص: ٧٠). «وتتوافر كذلك أدلة متزايدة على أن الروائع التي تلوث الجو كبقية أشكال التلوث المنقر تنقص التجاذب أو مشاعر المحبة بين الأشخاص وتزيد من السلوك العدواني. كما ظهر أن الأشخاص الغاضبين يميلون إلى التصرف بعدوانية إذا تعرضوا لضوضاء غير متوقعة». (عبد الخالق، ١٩٩١، ص: ٦٣٩-٦٤٠).

ويمكن مشاهدة السلوك العدواني في مواقف وأماكن مختلفة تؤدي إلى اختلاف أساليب التعبير عن هذا العدوان فعلى سبيل المثال يمكن أن «تشتت العدوانية بين الرجل وبين قائد السيارة، فيعبر السائق عن عدوانيته إزاء مضايقة الرجل له باصطراض طريقه... فاللتنافس على المكان أو من أجل المكان... إنما يؤدي إلى النفقة العدوانية، وزيادة إفراز الأدرنالين ويمكن مع ذلك أن تقطع بشأن الكثافة السكانية تمتدحت العدوانية... باستثناء ظروف أو أوقات معينة بشكل خاص. ومن المؤكد أنها

تدرج في عداد العوامل المؤدية إلى ازدياد العنف في المدن الكبرى». (عثمان، ١٩٩٤، ص: ١٠٧-١٠٨).

إن ما ذكر سابقا عن العدوان وأسبابه وأماكن وظروف وقوعه إنما يرتبط بشكل مباشر بما لدى الأفراد من خصائص نفسية وشخصية، ومن أهم العوامل المتدخلة بهذا المجال مفهوم الشخص عن ذاته ومصدر الضبط الذي يتحكم بأشكال السلوك والانفعال لديه، فهذان العاملان من التفسيرات الهامة جدا التي تقف وراء إدراك الفرد للظروف المحيطة به، هذه الظروف التي تحدد ما إذا كان الفرد عدوانيا أم لا. وما ذكر سابقا عن العدوان والظروف التي تؤدي إليه تجعل من الممكن القول: إن العدوان يقع على الآخر (الفرد والمجتمع) كما يقع على موجودات البيئة المادية، وللتغلب على ظاهرة العدوان على الآخر والتي يمكن أن تكون عدوانا لا شعوريا على الظروف المحيطة التي تستثير هذا العدوان، تستعدي تحسين الشروط البيئية المحيطة وتصميمها بشكل يمنع الاعتداء والتخريب سواء كان هذا العدوان موجه إلى البيئة بشكل مباشر أم بشكل رمزي، بالاعتداء على الذات أو على الأشخاص الآخرين في المحيط.



الفصل الخامس

الاتجاهات النفسية
وعلاقتها بالبيئة

تنبع أهمية الاتجاه النفسي في العلوم الاجتماعية عموما وفي علم النفس بصفة خاصة لكونه قوة دافعة وراء السلوك الذي هو موضوع الدراسة الاساسي بالنسبة لكل المهتمين في علم النفس حيث ان الانسان وهو يتعامل مع بيئته يتخذ مواقف او قرارات احيانا (مع) و احيانا (ضد) ، هذه القرارات تكون محصلة لمجمل الخبرات والمواقف التي مر بها الفرد في السابق ، وهو عندما يتخذ هذه القرارات يستخدم في حقيقة الامر اطارا مسبقا او فلنقل انه يستند الى مرجع مسبق له ثبات نسبي لديه وهذا هو ما نطلق عليه اسم الاتجاه النفسي .

وبصورة عامة يمكن تعريف الاتجاه النفسي بأنه استعداد عقلي ناتج عن مجمل خبرات الفرد في الحياة ويعمل على توجيه استجاباته للمثيرات التي يتعرض لها سواء كانت افكارا او أشخاصا او موضوعات .

وإن أردنا مزيدا من الدقة حول تعريف الاتجاه النفسي وتحديد محتواه وما المقصود بالمصطلح تماما فانه يمكننا أن نستعرض عددا من التعريفات التي وردت بهذا الخصوص لدى بعض باحثي علم النفس عموما وعلم النفس الاجتماعي بصفة خاصة مثل :

١- تعريف البورث للاتجاه النفسي :

« حالة من الاستعداد العقلي والعصبي التي تتكون أو تنظم خلال التجربة والخبرة والتي تسبب بدورها تأثيرا موجها على استجابات الفرد لكل الموضوعات والمواقف التي ترتبط بهذا الاتجاه (عيسوي ، ١٩٧٤) .

- 68 -

— تعريف بوجاردوس للاتجاه النفسي :

« نزعة نحو أو ضد بعض العوامل البيئية، تكون لهذه النزعة قيمة ايجابية أو سلبية » (عيسوي، ١٩٧٤) .

— تعريف ثرستون للاتجاه النفسي :

« تعميم لاستجابات الفرد تعميما يدفع بسلوكه بعيدا او قريبا من مدرك معين » (عبد الرحمن، ١٩٧١) .

— تعريف توماس للاتجاه النفسي :

« هو موقف الفرد تجاه إحدى القيم او المعايير السائدة في البيئة الاجتماعية » (عبد الرحمن، ١٩٧١) .

وهكذا وباختصار من خلال هذه التعريفات يمكننا القول بأن الاتجاه النفسي هو نزعة أو استعداد نحو تقييم شيء أو ظاهرة بصورة ايجابية أو سلبية (الحب أو الكره) ويتضمن الاتجاه النفسي الذي يتبناه الفرد عادة مكونات ثلاثة هي :

الجانب المعرفي : ونقصد به المعلومات أو المعارف المتوفرة حول المثير سواء كان فكرة أو شخصا أو موضوعا ما .

الجانب الوجداني : ونقصد به ميل أو اهتمام الفرد بالمثير أو نفوره منه .

الجانب السلوكي : ونقصد به رد الفعل لدى الفرد نحو المثير والذي لا يصدر إلا في ضوء الجانبين السابقين .

والحقيقة أننا عندما نقسم الاتجاه النفسي الى مكونات فاننا لا نقصد الفصل بينها فهي مكونات متداخلة متفاعلة باستمرار .

ولقد تطرق عديد من الباحثين لموضوع تكوين الاتجاهات وفي أي المراحل

ثم هذه العملية . وهناك اتفاق على أن تكوين الاتجاه يمر في مراحل ثلاث (ع : الرحمن ١٩٧١) وهي :

أ - المرحلة الإدراكية المعرفية :

وهي المرحلة التي يدرك فيها المفرد مثيرات البيئة وما تتصف به من خصائص ويجمع فيها من المعارف والخبرات ما يجعله على معرفة بتلك المثيرات .

ب - المرحلة التقييمية :

وهي المرحلة التي يقيم فيها الفرد نتائج تفاعله مع المثيرات مستفيدا من أظاره المعرفي الذي كونه عن تلك المثيرات .

ج - المرحلة التقريرية :

وهي المرحلة التي يتبلور فيها نزوع الفرد لأمر ما أو تقريره لأي اتجاه يسلك مع أو ضد هذا الشيء وتقريره هذا إنما يكون من خلال معرفته بالمثيرات البيئية المختلفة وكذلك تقييمه لتلك المثيرات فالنزوع محصلة للمرحلتين أو للخطوتين السابقتين .

والحقيقة أننا عندما ننظر إلى ما عرضناه على أنه مكونات الاتجاه وما عرضه آخرون على أنه خطوات أو مراحل لتكوين الاتجاه أن هي إلا شيء واحد يقصد به أن الاتجاه النفسي عند الفرد إنما يتكون وينمو ويتطور من خلال تفاعل الفرد مع بيئته بعناصرها ومقوماتها وأصولها ، وهذا التفاعل يأخذ صورا ثلاث هي الصورة المعرفية والصورة الوجدانية والصورة السلوكية والتي لا انفصال بينها جميعا على الإطلاق .

وما دنا بصدد الحديث عن الاتجاه النفسي بصورة عامة فلا بد وأن نتعرض لبعض من خصائص الاتجاه النفسي كقوة دافعة لدى الإنسان .

يتصف الاتجاه النفسي أول ما يتصف بأنه مكتسب بمعنى أنه يأتي من تفاعل الفرد مع بيئة معينة ذات سمات وصفات خاصة بها وبالتالي تختلف الاتجاهات من بيئة لأخرى بل ومن شريحة اجتماعية لشريحة أخرى داخل نفس البيئة .

كما يتصف الاتجاه النفسي بالثبات النسبي بمعنى أنه لا يتكون فجأة بل يتكون عبر معاناة تتمثل في تفاعل مستمر بين الفرد وعناصر البيئة المختلفة التي يتواجد فيها بما تتضمنه من عناصر مادية ومن أفراد بعضهم ذوي ثقل اجتماعي أو ثقافي مؤثر وطالما يتكون الاتجاه النفسي لدى الفرد عبر هذه المعاناة فإنه لا يكون عرضة للتغير السريع بل تتوفر له القدرة على الاستمرار مع الإنسان في العديد من المواقف بمقتضى ما استغرق في تكوينه من وقت ونواحي عقلية وانفعالية متداخلة .

كما يتصف الاتجاه النفسي بالتنوع فهناك الاتجاه العام والاتجاه النوعي وهناك الاتجاه الجماعي والاتجاه الفردي وهناك الاتجاه العلني والاتجاه السري وهناك أيضا الاتجاه القوي والاتجاه الضعيف وهذه التقسيمات للاتجاه النفسي إنما تنبع جميعا من مواقف يتم فيها التفاعل بين الفرد والبيئة التي يتواجد فيها ويكون في هذا التفاعل قادرا على أن يتبنى ذلك الاتجاه أو أن يرفضه وقد لا يقبل اتجاه ما لكنه لا يستطيع أن يرفضه نتيجة ضغوط اجتماعية مختلفة .

تكوين الاتجاهات نحو البيئة :

يهتم الباحثون في علم النفس بفروعه المختلفة بموضوع الاتجاهات ، ولعل فيما عرضنا سائفا ما يكفي للدلالة على أهمية موضوع الاتجاهات بالنسبة لعلم النفس بصفة عامة وعلم النفس الاجتماعي بصفة خاصة . لكن ما أهمية موضوع الاتجاهات بالنسبة لدراسي علم النفس البيئي أو بالأحرى لمن يريد التعرف على العلاقة المتبادلة بين البيئة وسلوك الإنسان .

من المتفق عليه ، وما تعرضنا له مرارا فيما سبق من فصول هذا الكتاب أن سلوك الإنسان يؤثر تأثيرا مباشرا وغير مباشر على البيئة التي يتواجد فيها . وطالما أن

سلوك الانسان يتأثر كذلك بما لديه من اتجاهات فالعلاقة اذن يمكن ان تصاغها على النحو التالي :

الاتجاهات الفرد تؤثر على سلوكه وهي قوة دافعة لهذا السلوك .

سلوك الفرد له نتائج على البيئة اي ان الاتجاهات الفرد لها تأثيرها واهميتها بالنسبة للبيئة بشكل عام يستوجب الدراسة والتحليل او فلنقل ان السؤال الاول الذي يواجهنا بهذا الخصوص هو كيف تتكون الاتجاهات لدى الفرد نحو البيئة .

ويجيب الباحثون في علم النفس البيئي على هذا السؤال بأن مبادئ التعلم تلعب دورا رئيسيا في تكوين الاتجاهات وهم في هذه الاجابة لا يخرجون عما يتفق عليه الباحثون في اغلب فروع علم النفس الاخرى . لكنهم عندما يشيرون الى مبادئ التعلم انما ينتقون من بينها ما يرون ان له اولوية على غيره من المبادئ وهي :

- أ - مبادئ التعلم الشرطي
- ب - مبادئ التعلم الوسيلى
- ج - مبادئ التعلم الاجتماعى

ونتناول فيما يلي كلا من انواع التعلم الثلاث لبيان درجة تأثير كلا منها في تكوين الاتجاه النفسى لدى الفرد .

أ - التعلم الشرطي :

يقصد بالتعلم الشرطي صدور استجابة من الفرد في مواجهة مثير ما ، هذه الاستجابة أصلا كانت تصدر لمثير آخر يعرف باسم المثير الطبيعى ولسبب تكرار اقتران المثيرين معا (المثير الطبيعى والمثير المقترن به ولنسميه المثير الشرطى) لعدد كاف من المرات وفي تتابع زمنى سريع ينشأ عند الانسان ارتباط عصبي يساعد على صدور الاستجابة للمثير الشرطى حتى اذا واجهه وحده بدون وجود المثير

الطبيعي . فان حدثت هذه الاستجابة للمثير الشرطي وحده يقال لقد تعلم هذا الفرد شيئا ما لم يكن يعرفه من قبل . هذا الذي تعلمه هو ان يستجيب بتلك الاستجابة للمثير الشرطي الذي لم يكن يستجيب له اصلا في السابق .

ولنرى هذا الكلام الذي يبدو نظريا من خلال موقف تطبيقي في البيئة . ان الفرد يكون اتجاه نحو مكان ما بالكراهة او الحب نتيجة ارتباط او اقتران هذا المكان بمخبرة سارة او غير سارة مرت على الانسان لعدد كاف من المرات وفي فترات زمنية متقاربة وكافية لحدوث او لتكوين ذلك الاتجاه عند الفرد اتجاه بالنفور من هذا المكان او اتجاه بالاقبال على التردد عليه دائما .

وعلى سبيل المثال لو تكرر دخول طالب إلى الفصل الدراسي وشعر برائحة غير مقبولة فيه فما هي الاستجابة المتوقعة من هذا الطالب ؟

- الرائحة غير المقبولة هي المثير الطبيعي .
- النفور والابتعاد عن المكان هو الاستجابة الطبيعية .
- الفصل الدراسي هو مكان محايد أو مثير محايد بالنسبة للطالب .
- لو تكرر وجود الرائحة غير المقبولة في ذلك الفصل الدراسي فان المنتظر هو ان ينفر الطالب من الفصل ذاته سواء في تلك الرائحة أم لا .
- هنا يكون الفصل الدراسي (المكان الذي كان محايدا) قد اكتسب نفس القدرة على استصدار الاستجابة (النفور) التي كانت للمثير الطبيعي (الرائحة غير المعتدلة) .

- المهم هنا هو ان البيئة مليئة بالمثيرات المحبة والاخرى المنفرة وهي التي تتدخل بشكل حاسم في تكوين اتجاهاتنا نحو البيئة وبالتالي تحدد لدرجة كبيرة سلوكنا في البيئة .

- فالبيئة التي تتسم بالنظافة والتي توفر فيها عناصر الهدوء والسكينة والجمال تكون

لدى الفرد اتجاهات ايجابية للمحافظة عليها وحمايتها والعمل من اجلها والعكس صحيح تماما .

- حتى ان مرور الانسان على مناطق مختلفة في مدينة واحدة تكون في خبرته ارتباطات معينة بتلك الاماكن تؤدي الى النفور او الارتياح لكل من هذه الاماكن حسب ما تكون لديه من اتجاهات سابقة .

ب - التعلم الوصيلي :

يقصد بالتعلم الوصيلي ان الانسان عندما يستخدم وسيلة ما في مواجهة منير معين ويؤدي استخدامه هذه الوسيلة الى نتائج يرضى عنها وتحقق له ما يريد (الثواب / التعزيز) فان المحتمل ان يكرر استخدام نفس الوسيلة كلما واجه هذا المنير او ما يشبهه من منيرات .

اذا قلنا ان سلوك الانسان الذي يؤدي لتحقيق اهدافه يقوي ويتعزز والسلوك الذي يبعده عن اهدافه او يسبب له العقاب او الألم يضمحل ويؤدي فكأننا نقول ان الانسان يكون اتجاهاته نحو ما يستخدم من سلوكيات بناء على نتائج هذه السلوكيات اي ان الاتجاه يصبح في هذه الحالة وسيلة للحصول على النتائج المرجوة او التي يرضى عنها الانسان ، وطالما اصبح الاتجاه وسيلة لدفع السلوك فكأننا نتعلم اتجاهات معينة بدلا من ان نقول نتعلم استخدام وسائل معينة . ويجمع انصار المدرسة السلوكية على ان المنيرات الخارجية، اي المنيرات التي نتعرض لها في البيئة هي التي تحدد الى حد كبير استجابات الانسان وسلوكه وهي مرتبط الفرس في رسم الاتجاهات التي تبناها الفرد . وعلى سبيل المثال اذا كانت الاسرة المكونة من خمسة افراد تستهلك مقدارا معيناً من الطاقة واعلنت الجهات المعنية عن ان الاسرة ذات الخمسة افراد التي تنخفض استهلاكها عن هذا المعدل سوف تحصل على مكافأة معينة مثل الاعفاء من نسبة معينة من تكاليف هذا القدر من الطاقة هناك بالطبع احتمال ان تسعى بعض الاسر خاصة المحتاجين منهم لان ينظموا

استهلاكهم للطاقة (يغيروا من غط السلوك السائد) وإذا استمر هذا الأمر لفترة من الزمن فإن المتوقع ان تتغير الاتجاهات الاستهلاكية بصفة عامة عند هذه الاسرة وعند غيرها من الاسر في موضوع استهلاك الطاقة بل وفي غيرها من الموضوعات .

مثال آخر من المجال السياسي نلاحظه على بعض المرشحين عندما يعلنون انهم سوف ينفذون كل الجهات الناخبين وذلك للفوز بالانتخابات كأنهم يستغلون الجهات الناخبين كوسيلة للوصول لاهدافهم .

جـ - التعلم الاجتماعي :

يقصد بالتعلم الاجتماعي ذاك السلوك الصادر عن الفرد بسبب تقليده للمحيطين به في البيئة التي يتواجد فيها . فنحن نستجيب كثيرا بنفس الطريقة التي يستجيب بها الآخرون من حولنا لأننا لاحظنا ان الآخرين حصلوا على القبول الاجتماعي لسلوكهم هذا او انهم حققوا منفعة شخصية لهم بهذا السلوك .

وعلى سبيل المثال عندما يضع بعض السكان في بنائة نفاياتهم في اقباس للقيام ويلقي هذا السلوك استحسان الآخرين في المنطقة فإن المتوقع ان يتوجه آخرون للقيام بنفس السلوك رغم انهم قد لا يستطيعون توفير التكلفة المطلوبة لهذا العمل .

مثال آخر يمكن ان نلاحظه في اوقات معينة من العام عندما ترى بعض الافراد يمارسون رياضة المشي او الركض على شاطئ البحر ، ان الاستحسان الاجتماعي الذي يلقاه هذا السلوك يدفع بالبعض لأن ينخرط في هذا النوع من الرياضة حيث يسعى الانسان دائما للسلوك الذي يلقى القبول الاجتماعي .

وبالطبع نجد العديد من الامثلة البيئية المختلفة والتي يتعد الانسان فيها عن سلوك معين او يقترب من سلوك آخر وفق ما يلزمه من القبول الاجتماعي لهذا السلوك او ذاك .

وجدير بالذكر أن هذه الامثلة الثلاثة من انواع التعلم التي تؤثر تأثيرا كبيرا في تكوين اتجاهات الفرد عموما واتجاهاته نحو البيئة بشكل خاص هي انواع متداخلة لا تنفصل عن بعضها فالفرد عندما يكون اتجاهها يكون متأثرا بها جميعا او ببعض منها بدرجات متفاوتة حسب طبيعة الموقف والتفاعل الحادث بين الفرد والبيئة ومردود ذلك التفاعل .

تغيير الاتجاه نحو البيئة :

اتضح لنا في هذا الجزء من الدراسة أن الاتجاه النفسي كقوة دافعة لسلوك الانسان له تأثير كبير على البيئة التي يعيش فيها الانسان ، تأثير يمتد الى كل سلوك يمكن ان يقوم به الفرد في أي من البيئات التي يتواجد فيها الطبيعة او المشيدة ، الدائمة او المؤقتة . ومن هنا كان لا بد لكي نستطيع التأثير على سلوك الانسان نحو عناصر البيئة المختلفة ان نتعرف اولا على كيفية تغيير اتجاهات الانسان التي بدورها تؤدي الى تغيير سلوكه . اي أننا نفترض أنه اذا كان هناك فرد له اتجاهات غير بناءة نحو البيئة فلا بد من وجود طريقة ما او طرقا متعددة لتغيير تلك الاتجاهات بشكل ايجابي حتى يتعدل سلوك هذا الفرد نحو بيئته .

يلاحظ عديد من الباحثين في مجال علم النفس البيئي أن أكثر الأساليب السائدة في محاولة تغيير اتجاهات الأفراد نحو البيئة تنحصر في أسلوبين رئيسيين هما أسلوب الدعاية والاعلان بوسائل وأدوات مختلفة مرئية ومسموعة ومقروءة وغيرها ، وأسلوب الثواب والعقاب او ما يعرف باسم التدعيم الايجابي والتدعيم السلبي ، اذ كثيرا ما نلاحظ انتشار اعلانات معينة تحذر من التلوث ، مصادره ، عواقبه ، كيفية تجنبه ، وماذا يجب على الفرد ان يفعل حتى لا يسبب مزيدا من التلوث في البيئة التي يعيشها وهكذا . كما نلاحظ في عدد غير قليل من المجتمعات خاصة المتقدم منها تحديد جوائز لمن يستخدمون وسائل نقل صغيرة او تحديد اوقات معينة في كل اسبوع لاقامة الحفلات ومن يتجاوز هذه الاوقات يتعرض للمنع او العقاب احيانا وتلك كلها امثلة لمحاولات تتبع في اسلوب الاثابة والعقاب .

لكن السؤال الذي يلح علينا الآن هو : هل لمثل هذه الأساليب سواء منها ما نلاحظه في الدعاية والاعلان او عن طريق الحوافز ووسائل التدعيم آثار ايجابية في تغيير اتجاهات الافراد بالفعل ام لا ؟

استنادا على نظرية تقليل الدافع وجد أن الاعلان أو الرسالة أو التبليغ الذي يحمل للانسان نوعا من التهديد يخطر سوف يحقق به اذا هو سلك سلوكا معيناً يكون من شأن هذا الاعلان أن يسبب نوعاً من الانفعال لدى الانسان يقلل من رغبته في الاثبات بهذا السلوك وبالتالي يقلل من دافعيته له . ويكون تأثير هذا الاعلان اكبر بكثير لو اتبع بعدد من الارشادات والتوضيحات التي تساعد الفرد على العودة إلى حالة الاتزان التي فقدتها اثر انفعاله وذلك بتغيير اتجاهه نحو هذا السلوك الذي يمكن ان يكون سبباً في الحاق الاذى به .

مثال على ذلك الرسائل الموجهة اذاعياً صباح كل يوم عن تجنب السرعة خاصة انها تؤدي للموت ان مجرد سماع هذه العبارة يجعل بالفعل كثيرين يقللون سرعتهم ونفس الشيء ينطبق على عبارة « التدخين يسبب السرطان » حيث تؤدي لنفس النتيجة (Leventhal, 1970) .

واستنادا على ما يسمى برد الفعل النفسي ويقصد به ان الفرد بطبيعته يكون ميالاً لرفض اي فكرة او محاولة يشتم منها سعي الاخرين لسلبه جزءاً من حريته او فرض حل معين عليه دونما اقتناع منه او العمل على اكراهه بالقيام بشيء معين ضد رغبته . عندئذ يرفض الفرد اية رسالة او تبليغ او اعلان وحافز يتصل بالموضوع . إن فكرة رد الفعل النفسي تنفي اي اثر ايجابي لاسلوبى الدعاية والاعلان ، التدعيم والحوافز طالما هي تتم بعيداً عن اقتناع الفرد بها . والغريب في هذا الصدد ان الانسان يتوفر لديه الشعور برد الفعل النفسي حتى لو لم يكن العمل الدعائي يسبب له اية قيود على حريته . ان مجرد اعتقاده بان في هذا الاعلان جرمان من جزء من الحرية كاف لان يجعله يرفض كل ما له صلة بهذا الاعلان . ولذلك فان اتباع اي من اسلوبى تغيير الاتجاهات المتمثلة في الدعاية والاعلان او

تحديد الحوافز والمكافآت يمكن أن تكون أكثر فعالية وتحقيقاً للهدف إذا ما استندت على الاقتناع ومشاركة الفرد أو الأفراد المقصودين في عملية تغيير الاتجاهات في الوصول للرأي أو الفكرة المطلوب توصيلها اليه في أساليب تغيير الاتجاهات . (Brehm, 1972)

العوامل المؤثرة في تغيير الاتجاهات :

عندما نكون بصدد محاولة تغيير اتجاهات الأفراد في بيئة معينة ، ومهما كانت الأساليب التي يمكن أن تتبعها في محاولة التغيير فإن هناك عدداً من العوامل التي تؤثر في عملية تغيير الاتجاهات نذكر منها :

١ - مدى الثقة في مصدر الرسالة الموجهة الى الأفراد . ونقصد بذلك من هو الشخص الذي يقوم بتبليغ الأفراد بفكرة معينة ، هل هو شخص خبير في المجال الذي يتكلم عنه ، هل هو شخص له خبرات أو مر في أحداث يمكن الاعتماد بها عند الحديث في الموضوع ، هل هو شخص يتحدث من أجل مصلحة شخصية لذاته أم يهدف لتحقيق مصلحة عامة لمن يستمعون اليه .

٢ - مدى التوتر الذي تثيره الرسالة الموجهة الى الأفراد ونقصد بذلك أن أي إعلان أو تبليغ للأفراد يمكن أن يثير لديهم قدر من الخوف أو التوتر الذي يؤدي لتقليل الدافع ازاء سلوك معين ، لكن يحظر دائماً من زيادة ما يمكن أن يستثيره هذا الاعلان من الخوف عن القدر الذي يساعد على تغيير الاتجاه حيث الافراط في استثارة النواحي الانفعالية يمكن أن يؤدي الى نتيجة عكسية مثل الاصرار على اداء السلوك غير المرغوب .

٣ - نوعية الأفراد الذين توجه إليهم الرسالة المتعلقة بتغيير الاتجاهات نحو البيئة حيث يختلف هؤلاء الأفراد بطبيعة الحال باختلافات بيئية في خبراتهم وما يتوفر لديهم من معلومات حول موضوع الرسالة والطريقة المناسبة لمخاطبتهم ،

والعلاقات الاجتماعية التي تربط بينهم ودرجات التأثير المتبادلة بينهم كأفراد
وكجماعات صغيرة تكون جماعة أكبر .

٤ - مدى الاتفاق بين المعايير الاجتماعية السائدة والاتجاهات المطلوب تغييرها .
ذلك أن الفرد قد يغير من اتجاهاته ليس بسبب إقناعه الشخصي بضرورة هذا
التغيير بل لأن السائد في مجتمعه يتطلب منه هذا التغيير (Fishbein, 1976)

٥ - مدى التوازن الذي يستطيع الفرد أن يحققه لذاته من الآراء التي قد تكون
متعارضة عن طريق الرسائل والتبليغات المختلفة والموجهة إليه والتي
تستهدف تغيير اتجاهاته نحو امر معين . ذلك أن الفرد عندما يتعرض لآراء قد
تبدو له متعارضة أو قد ينشأ بسببها نوع من الصراع فإنه من الطبيعي أن
يتوجه نحو التخلص من هذا التعارض أو نحو تقليل هذا الصراع والوصول
إلى حالة من الانسجام الذهني أو التوازن الذي يوجه سلوكه .

وبصفة عامة فإننا نجد من يقترح أنه يجب مزج الأخذ بالأسلوبين معا
إستخدام التبليغات والرسائل الموجهة بوسائل مختلفة وفي نفس الوقت إستخدام
الحوافز والمكافآت والعقاب حيث أن إستخدامها في وقت واحد يؤدي للتكامل
والتفاعل بينهما بحث يساعد على تغيير الاتجاهات البيئية بشكل ايجابي وفعال
(Brovold, 1973)

طرق قياس الاتجاهات النفسية :

تعرضنا فيما سبق لمعنى الاتجاه النفسي وتعريفه ، وكذلك لمكوناته ومراحل
تكوينه ، ثم تعرضنا للقضية الأهم ألا وهي كيف يتغير الاتجاه النفسي وما هي أهم
العوامل المؤثرة في عملية التغير ، غير أن ما تعرضنا له لا يكتمل إلا إذا تعرضنا
كذلك لكيفية قياس الاتجاهات البيئية لأننا إذا كنا نريد أن نتنبأ بسلوك الأفراد في
المواقف البيئية المختلفة أو إذا كنا نتوقع ما يمكن أن يتم في مجال تغيير الاتجاهات

البيئة المنتظر حدوثها في مجال التفاعل بين الفرد والبيئة التي يتواجد فيها . اذا كان الأمر كذلك وحتى تكتمل لنا الرؤية حول علاقة الاتجاه النفسي بالبيئة فلا بد لنا من استخدام طريقة أو حتى عدة طرق لقياس الاتجاهات النفسية .

وهناك اتفاق بين أغلب المهتمين بعلم النفس البيشي على استخدام نفس الطرق الشائعة التي يستخدمها معظم المهتمين بقياس الاتجاهات سواء في علم النفس الاجتماعي أو في الفروع المختلفة الأخرى لعلم النفس بشكل عام . . . ويمكن حصر هذه الطرق الشائعة في :

● طرق تعتمد على التعبير اللفظي وهي التي تستخدم الكلمة كأساس لبناء الاختبار المستخدم في القياس سواء كان استعمال الكلمة شفويا أو تحريرا وسواء توجه لفرد أو لمجموعة من الأفراد . وتعتبر هذه الطريقة من أكثر طرق القياس شيوعا نظرا لسهولة استخدامها ولتناسبتها لمختلف الأعمار وكذلك لمختلف ألوان الخبرات وبها يمكن أن نحصل على نتائج أسرع لا كبر عدد ممكن من الأفراد في وقت قصير نسبيا .

وتتضمن الطرق اللفظية في قياس الاتجاهات عدد من الأساليب نذكر منها :

أ- أسلوب الانتخاب :

ويتلخص هذا الأسلوب في اعداد استبانة تشمل عددا من المواقف البيئية أو السلوكية ويطلب من المستجيب أن يعين أحب الموضوعات اليه وأبغضها بالنسبة له ، مثال :

ضع علامة (✓) أمام أحب المواقف (السلوك) وعلاقة (x) أمام أبغضها اليك :

١ - التدخين

٢ - كتابة الاعلانات على جدران المباني

- ٣ - قضاء اوقات الفراغ في الأماكن الخلوية
- ٤ - استخدام السيارات الأكبر حجماً
- ٥ - السكن في منزل يقع على شارع رئيسي
- ٦ - الاستماع للراديو مساء وبصوت عال
- ٧ - قضاء العطلات في التجول في المدن
- ٨ - التخلص من نفايات المصانع بالقائها في البحر
- ٩ - الأيام الممطرة
- ١٠ - زراعة حديقة في المنزل

ب - أسلوب الترتيب :

ويتلخص هذا الأسلوب في ترتيب المواقف (السلوك) المقترحة حسب ما يراه المستجيب .

مثال : رتب المواقف (السلوك) بالنسبة لك بحيث يكون أولها من حيث الترتيب هو أحب المواقف إليك وآخرها هو أبغضها بالنسبة لك .

- الاسهام في مشروعات خدمة البيئة المحلية
 - قراءة كتاب عن أخطار التلوث الهوائي
 - المشاركة في جماعة نشر الوعي البيئي بالمدرسة
 - اتباع التعليمات الخاصة بترشيد أستهلاك الماء والكهرباء
 - الاهتمام بالجانب العملي في التصميم الداخلي لمكان الإقامة .
- أسلوب المقارنة الزوجية (المفاضلة الثنائية)

ويتخلص هذا الأسلوب في عرض عدد من المواقف (السلوك) بشكل ثنائي وعلى المستجيب أن يختار أحدهما باعتباره أقرب إليه ويترك الآخر باعتباره أبغض بالنسبة له

مثال ضع علامة (✓) أمام الموضوع (الموقف) الذي تفضله أكثر من الآخر في كل ثنائية .

تفضل أن تقضي وقت فراغك في :

حديقة منزلك	حديقة عامة
منطقة جبلية	على شاطئ البحر
مشاهدة التلفزيون	ممارسة الرياضة
قراءة كتاب عن المناظر البيئية المعاصرة	قراءة كتاب في ميكانيكا السيارات
الانضمام لجماعة تحذر الناس من	ملاحظة اللافتات على
أخطار البيئة	المحلات التجارية

أسلوب التقدير :

ويتلخص هذا الأسلوب في إعطاء درجات متفاوتة في مقياس استمراري لكل اتجاه من الاتجاهات المعروضة في المقياس وعلى المستجيب أن يختار التقدير الذي يراه مناسباً من وجهة نظره لكل من هذه الاتجاهات .

وهذا الأسلوب هو الذي بني على أساسه أشهر من أعدوا مقياس الاتجاهات النفسية مما أنتجوه من مقياس مثل ليكرت ، ترستون ، بوجاردوس ، وجونمان .

مثال (على النمط الذي بني ليكرت اختباره)

(الذهاب الى العمل مع الآخرين في سيارة واحدة) يجيب المستجيب على رآيه في هذه العبارة التي تمثل موقفا سلوكيا له إتصال مباشر باتجاه الفرد نحو البيئة ومدى وضوح الحاجة لتقليل استخدام السيارات الخاصة وبالذات في المدن المزدحمة بوضع علامة على أي من الاستجابات التالية :

- أوافق جداً

- أوافق

- أعارض

- أعارض بشدة

● طرق تعتمد على ملاحظة السلوك وهي التي تتمثل في متابعة فرد معين في عدد من المواقف ولعدد من المرات وبواسطة عدد من الأشخاص . وهذه الطرق تحتاج الى وقت وقد يكون طويلا ذلك لأنه يلزمها تكرار الملاحظة عددا كبيرا من المرات ، وتحتاج إلى جهود مضاعفة حيث تستلزم الملاحظة أن تتم في عدد من المواقف وليس موقفاً واحداً . فإذا كنت تريد أن تحكم على مدى حرص تلميذ على نظافة البيئة المدرسية فينبغي عليك أن تلاحظه في الفصل الدراسي وفي المطعم وفي الفناء وأثناء خروجه من المدرسة وحتى تستكمل ملاحظتك تسأل عن موقفه من النظافة في المنزل . واضح أن تعدد المواقف المطلوب اتمام الملاحظة فيها قبل إصدار الحكم يستغرق جهدا كبيرا ووقتا طويلا . ونظرا للتكلفة المالية التي تتطلبها أيضا هذه الطريقة حيث ينبغي أن يشارك في الملاحظة أكثر من أخصائي ، لهذه الأسباب مجتمعة وأيضاً لأنها توفر لنا مقياساً يصلح للجماعة بل يصلح في أغلب الأحوال للفرد فقط فإن طرق ملاحظة السلوك تعتبر من أقل مقاييس الاتجاهات النفسية أهمية وصدقاً وثباتاً بشكل عام .

● طرق تعتمد على قياس الانفعالات . وهي التي تتمثل في ملاحظة ردود الأفعال لدى الفرد إزاء مشيرات معينة . فإذا كنا بصدد قياس الاتجاهات البيئية فمن الطبيعي أن نلاحظ انفعالات الفرد إزاء مشيرات بيئية مختلفة كرائحة كريهة أو صوت مزعج أو حديث عن أخطار تحيط بالبيئة التي يتواجد فيها الفرد وهكذا . وهناك عدد من الأساليب التي يمكن إتباعها لقياس الاتجاهات النفسية عن طريق الحالة الانفعالية للفرد ومنها ما وصل في دقته الى مستوى التفنن مثل الاختبارات الاسقاطية واختبارات بضع الخبر واختبارات الرسوم والصور وكذلك استخدام بعض الاجهزة العملية مثل السيكو جلفانوسكوب .

ومن الجدير بالذكر أن طرق قياس الاتجاهات بصفة عامة يمكن استخدامها بطريقة مباشرة مثل سؤال فرد عما يحبه أو يكرهه في موقف بيئي معين أو عن نوعية سلوكه إزاء مشير بيئي معين ، كما يمكن استخدامها بطريقة غير مباشرة كعرض صورة أو قصة أو شريط سينمائي عليه وطلب ابداء الرأي فيه . ومن أحدث ما يستخدم في هذا الصدد محاولات مثل ترك مجموعة من الرسائل موجهة إلى جمعية ما في المجتمع وتركها في مكان عام أو حتى عدد من الأماكن العامة وحصر عدد الرسائل التي يمكن أن يلتقطها بعض الأفراد ويقوموا بالفعل بإرسالها للجهة المعنية عليها . حيث أن الشخص الذي يرى الرسالة ويقوم بوضعها في البريد إنما يدل بسلوكه هذا على اهتمامه بتلك الجمعية أو الجهة المعنية عليها عكس الفرد الآخر الذي يمكن أن يرى الرسالة ويكتفي بأهملتها أو التخلص منها بشكل أو بآخر . فكاننا نتعرف على الاتجاه سلبيا كان أم ايجابيا عن طريق سلوك الفرد في مثل هذا الموقف بطريقة غير مباشرة .

التجميع والاتصال البشري مثل النوادي والحدائق العامة وبيوت الشباب والمساجد وفي الميادين العامة وأمام المدارس مثلاً ، وهي تهدف في مجموعها

وباشكالها المختلفة الى تنبيه وإثارة إهتمام الأفراد والجماعات الى ما يجب عمله للمحافظة على البيئة .

وهذه الاعلانات والملصقات واللافتات يمكن أن تحقق أثر بالغ الأهمية على الأفراد والجماعات كلما روعي في تصميمها وتنفيذها شروط المثير التي تحقق جذب الانتباه وترك الأثر مثل لون وحجم وشكل وموقع اللافتة أو الملصق أو الاعلان .

على أن وسائل التذكير والارشاد لا يقتصر على الكلمة المكتوبة سواء في اعلان أو لافتة بل إن مجرد توافر عناصر البيئة بشكل منظم نظيف أو سلوك الآخرين وخاصة ذوي الاعتبار منهم (الأب بالنسبة لابنه ، المدرس بالنسبة للتلميذ ، النجم الرياضي أو المسرحي بالنسبة لجمهوره) يمكن أن يكون في حد ذاته أحد أهم المنبهات التي تؤدي الى التذكير والارشاد بل وربما بشكل أقوى تأثيراً من الاعلانات واللافتة التقليدية .

ولقد أشارت العديد من بحوث ودراسات البيئة في هذا الصدد إلى أنه كلما كانت البيئة على درجة أعلى من النظافة كلما أدت بحالتها الى فرض نوع من السلوك الايجابي من قبل الفرد تجاهها ولعل دخولك الى مستشفى نظيف تماماً على سبيل المثال يمنعك وسعده من أن تلقي أعقاب سيجارتك في الأرض أثناء وجودك داخل هذا المكان .

وبما يجدر ذكره ونحن في مجال وسائل التذكير والارشاد ضرورة الإشارة الى أن الطبيعة البشرية بشكل عام أكثر تقبلاً للتوجيهات والارشادات والمخاطبة الأكثر دقة والأقل تهديداً مثل عبارة « لطفاً نرجوك المحافظة على هدوء المكان » في مقابل عبارة « الزم الهدوء » أو عبارة « ممنوع التدخين » .

وفي النهاية يمكن أن نشير الى ظاهرة انتشار الحاويات بأشكال متنوعة وجذابة وبأحجام متناسقة مع المكان الذي توضع فيه حيث أدى ذلك حسب ما أشارت بعض البحوث الى تأثير كبير على سلوك الأفراد في استخدامها .

الإدراك البيئي و المعرفة البيئية

الإدراك البيئي والمعرفة البيئية

تمهيد :

لكي نتحدث عن الإدراك يجب أن نعرف شيئاً ما عن السيكوفيزياء وهذا يعني أن نطلع على عمليات: الاكتشاف Detecting والتعرف Recognition والتمييز Discrimination والتقدير Scaling وعادة ما يجاب عن الأسئلة التالية أثناء التعامل مع المثيرات المختلفة : هل يوجد شيء ما ؟ (اكتشاف) . ما هو ؟ (التعرف) . هل هذا المثير يختلف عن مثير آخر ؟ (التمييز) . وأخيراً كمية هذا المثير ؟ (التقدير) . حيث تمثل هذه العمليات أساس دراسة الإحساس والإدراك التي كانت موضوع الكثير من البحوث المبكرة في علم النفس . ففي المرحلة الأولى يتم اكتشاف المثير عن طريق النظام الحسي العصبي الذي ينقل تغييرات الطاقة الواقعة على الأعضاء الحسية والمنبوعة من المثيرات . ثم في المرحلة الثانية يتم التعرف على المثير هل يشبه شيء سبق رؤيته أم أنه جديد؟ ثم تمييز المثير أي تحديد هويته، وفي المرحلة الأخيرة يتم تقدير المثير ، التي نحدد من خلالها حجم المثير أو كميته (Russell & Arkkelin, 1995, p.76-78)

وتناولت المداخل التقليدية دراسة الإدراك من جوانب مختلفة منها تفسيري ترى أن الإدراك يتم نتيجة لاستثارة المثيرات للجهاز العصبي والرجوع إلى ذاكرة الخبرات السابقة حول المثيرات ، ومنها بنائي ترى أن الإدراك يحدث نتيجة عمل العمليات العقلية مثل الانتباه والتفكير والتذكر ... ، وهناك المدخل الوظيفي الذي يرى أن حاجتنا ودوافعنا تجعلنا ندرك ما يتوافق معها .

ويلاحظ بصفة عامة من الدراسات التقليدية حول الإدراك أنها بنيت على البحوث المخبرية التي تحذ من التنوع والتعقيد في المثيرات ، بالإضافة إلى أن دراسة الإدراك بهذه الطريقة تقوم على مفهوم الإثارة أحادية البعد ، بينما يتفق الباحثون في مجال الإدراك البيئي على أن عملية الإدراك البيئي أكثر تعقيداً من الإدراك التقليدي رغم احتوائها على جوانب تفسيرية وبنوية ووظائفية إلا أنها تتضمن ميكانزمات أكثر ومختلفة أيضاً . وهذا ما يدعو إلى الاعتراف كما يقول باتريسيوس Patricios إن النموذج الكلاسيكي : مثير - استجابة لعلاقة الإنسان - للبيئة ، هو تبسيط لعلاقة أكثر تعقيداً بكثير ، حيث رأيت دراسات الإدراك البيئي في علاقة الإنسان ببيئته أنها عملية معقدة من الإحساس وتفسير المعلومات على نحو انتقائي ، لذلك إن العلاقة بين السلوك الظاهري للإنسان والبيئة ليست مباشرة ولكنها تتم من خلال «توسط الفهم الذاتي للبيئة» (Patricios, 1976, p.200). وعلى الرغم من أهمية مدارس علم النفس التقليدية المختلفة مثل الجشطلتية والسلوكية ... إلا أن سيطرة منحنى التكيف على

البحث النفسي فيما بعد حرر الظاهرة الإدراكية من دينامية الأشكال التي أرساها الجشتالتيون ومن الحتمية البيئية أيضاً ، التي نشرتها المدرسة السلوكية ، فالظاهرة الإدراكية ليست محكومة فقط بالأشكال ، ولا البيئة هي المسيطرة وحدها على الإدراك . لذا فقد ظهرت مداخل جديدة استندت إلى حاجات الفرد وأهدافه في تفسير الظاهرة الإدراكية .

ولكي نحلل الإدراك البيئي يجب علينا أن نفصل عملية الإدراك البيئي عن المعرفة البيئية ، حيث اتفق علماء النفس البيئي على أنهما تشابهان من حيث طبيعتهما وهدفهما ولكنهما يختلفان في نوع المعلومات البيئية التي تهتمان بها ، حيث تركز المعرفة البيئية على المعرفة المكانية ، من حيث الكشف عن الطرق التي يعالج بها الأفراد خصائص بيئتهم وكيف يتعلمون ويمثلون المكان وكيف يطورون قدرتهم على التوجه في المكان . بينما يهتم الإدراك البيئي بالبيئة بكافة جوانبها حيث تشمل العملية مكونات أخرى بالإضافة إلى المعرفة ، منها الانفعالية والجمالية والوظيفية .. ومع ذلك يجب الإشارة إلى أن العمليتين متداخلتان وأن الفرد يتفاعل مع البيئة المحيطة به بجوانبها كافة وأن عناصر الإدراك البيئي تساعد في المعرفة البيئية ، لذا فإن الفصل في دراسة كل عملية هو لتسهيل الفهم ، ولإبراز نوع المعلومات التي تركز عليه كل عملية . ونبدأ بشرح الإدراك البيئي

تعريف الإدراك البيئي :

إن مقدرة الحصول على المعلومات حول البيئات وتخزينها أمر مسلم به ، حيث تركز بعض تعريفات الإدراك البيئي على كونه عملية تقوم على جمع المعلومات حول البيئة واستخلاصها وتخزينها . حيث يرى كريك Craik أن الإدراك البيئي يركز على خبرة الأماكن والمواقع البيئية ، وعلى العمليات والعوامل المؤثرة في الانطباعات المتنوعة التي يشكلها الملاحظ للبيئات ، لذا فإن مصطلح "الإدراك البيئي" يستخدم بشكل واسع ، بحيث لا يشتمل فقط على الإدراك البصري المباشر ولكن أشكالاً أخرى من الوعي البيئي ، ويتضمن العمليات الوصفية والتقييمية كلاهما (Craik, 1977, p147) .

ويقول جيفورد إن الإدراك البيئي هو التجميع المبدئي للمعلومات، ويستخدم أحياناً هذا المصطلح بشكل أكثر اتساعاً ليشتمل على جوانب مثل كسوف قدر البيئات وتقييمها (Gifford, 1997, p.17) . ويعرفه فيشر وآخرون بأنه القدرة على استخدام كل العناصر الموجودة في البيئة كوحدة واحدة (Fisher et al., 1984, p.22) وأنه الطريقة العامة للتفكير في البيئة ، وكيفية تنظيمها (Fisher et al., 1984, p.29)

بينما تركز بعض التعريفات على كونه عملية أشمل من جمع المعلومات وتخزينها ، من حيث أنها عملية يتداخل فيها الجانب الذاتي وحاجات الفرد ودوافعه وخبرته السابقة ومنها

تعريف إيتلسون الذي يرى أن الإدراك البيئي هو " العملية التي يضيف بواسطتها شخص معين من موقعه السلوكي الخاص به دلالات ومعاني لموقعه البيئي المباشر ،... حيث ندرك البيئة حقيقة فقط عندما نربطها بأهدافنا " (Ittelson, 1984, p.105). كما ينظر إليه على أنه القدرة على عمل مصالحة بين العالم الذي نعرفه حديثاً والعالم الذي عرفناه من قبل

(Ittelson, 1974, p.15)

أما رؤية ليفي -ليبوير (Levey-Leboyer, 1982) لعملية الإدراك البيئي فهي تركز على مستويات أربعة متداخلة فيما بينها وهي : أ - معرفة الفرد لمكان وجوده معرفة تتسم بالتحديد والدقة كلما أمكن ذلك . ب - قدرة المرء على التنبؤ بما يمكن أن يتعرض له من مثيرات وأحداث في المكان الذي يتواجد فيه . ج - قدرة الفرد على تقييم ما يتعرض له آنياً وما يتنبأ بأنه يمكن أن يتعرض له مستقبلاً من مثيرات وأحداث . حيث تعتبر عملية التقييم هذه مكملة لما استطاعه من تنبؤ . د - استعداد الفرد للقيام بالسلوك المطلوب منه في ضوء ما يعيشه وما يتوقعه في المكان الذي يتواجد فيه ، وهذا الاستعداد يمثل خاتمة الخطوات في عملية الإدراك أو المرحلة الأخيرة من التصور العقلي . (علي عسكر ، محمد الأخصاري ، ٢٠٠٤ ، ص ٩٤)

مما سبق يمكن تعريف الإدراك البيئي على أنه العملية التي يضيف فيها فرد معين المعنى على الموقف البيئي المباشر الموجود به منظماً ومفسراً إياه في ضوء المعلومات التي حصل عليها ، وتقييم ما يتعرض له آنياً ، والتنبؤ بما يمكن أن يتعرض له مستقبلاً من مثيرات وأحداث ، واستعداد الفرد للقيام بالسلوك المطلوب منه في ضوء ما يعيشه وما يتوقعه في المكان الذي يوجد فيه .

خصائص الإدراك البيئي :

يتفق الباحثون في علم النفس البيئي على أن العمل في الإدراك البيئي مختلف نوعياً عن الدراسة التقليدية للإدراك في أكاديميات علم النفس . حيث وسعت أدبيات علم النفس البيئي مفهوم «الإدراك» ليصبح أكثر شمولاً ، «فالإدراك البيئي» يتضمن المعرفة على نحو واسع (مع الإدراك والتفكير والتخيل وما إلى ذلك من موضوعات فرعية) بالإضافة إلى الانفعال Affect والمعنى Meaning والتقييم Valuation فالإدراك البيئي باختصار يتضمن جوانب عديدة لم تعالج في التراث على أنها إدراك (Ittelson, 1978, p.195-196).

فالبيئات الكبيرة تمتد من حيث الحجم من الغرف إلى المنازل إلى التجمعات السكنية في المدن والأقاليم إلى العالم كله ، وهي تمتلك بالضرورة خصائص عديدة . وتحدد هذه الخصائص طبيعة الإدراك البيئي وهي :

١- لا يمكن للفرد أن يكون منفصلاً عن البيئة إنه لا يستطيع أن يلاحظ البيئة بل إنه

يكتشفها وهذا ما يدعو للقول أن البيئات ليس لها حدود محددة فسي المكان أو الزمان . فالملاحظة هي «لشيء» والاكتشاف «للبيئة» ، فلا يمكن للفرد إلا أن يكون مشتركاً في البيئة فهي تحيط وتحتوي وتغمر ولا يمكن لشيء أو أحد أن يكون منعزلاً عنها ، ويعرف (يدرك) بأنه يقف خارجها وبعيداً عنها (Ittelson, 1977, p.149) . إن الحدود المدركة لأي بيئة هو ناتج عن المعلومات المتولدة من خلال تفاعل المدرك وما يحيط به أكثر من كونها مفروضة عليه بواسطة الظروف الخارجية ، فالاكتشاف الفرد للبيئة لا يتم بدون هدف ، و تتفاعل أهدافه وأفعاله باتساق مع المعلومات البيئية وفرص الفعل التي يصادفها ، مما يقوده إلى نقل الحدود لتشمل المواقع أو الأماكن التي يدركها بنجاح . ومع أن بعض البيئات تبدو بأن لها حدوداً ثابتة ، إلا أنه من الممكن ألا يتفق شخصان في إدراكها ، وهذا يعود إلى التفاعل بين المعلومات البيئية والمبادئ والقوانين الثقافية والفردية . ويبقى الفرد هو المركز المنظم للبيئة والجوانب المكتشفة على الرغم من تغير حدود البيئة عبر الزمان والمكان بالنسبة لكل شخص ، ويمكنه باستمرار عن طريق إدراكه للبيئة أن تمتد حدود البيئة إلى أماكن كثيرة وفترات طويلة من الزمن ، فهو يبحث باستمرار ، ويخلق الحدود البيئية التي تخدم أهدافه المباشرة . فالإدراك يتضمن استخدام الذاكرة ويحدد الهدف والقدرة على تمييز الفروق النوعية بين البيئات (Ittelson, 1984, p.106-107) . ويشير راسل إلى أهمية الإدراك البصري في توجيه السلوك إذ يذكر : " يلعب الإدراك البصري دوراً كبيراً في توجيه الغالبية العظمى من نشاطنا اليومي فهو يوجه سلوكنا الحركي ، و يزودنا بالمعلومات عن أماكن بعيدة من خلال توسيط الصور والتلفزيون والجرائد والكتب والمجلات .. ، فأنت تستطيع أن تقدر برودة القارة القطبية الجنوبية وحرارة الصحارى أو ازدحام مدينة كالكتا بدون أن يكون قد سبق لك زيارتهما " (Russel & Arkkelin, 1995, p.79) هذا يعنى أننا نستطيع أن نوسع حدود البيئة المدركة حتى لو لم نخبرها بشكل مباشر .

٢- تزود البيئات الفرد بالمعلومات من خلال الحواس جميعها : يقوم الاكتشاف الإدراكي للمكان على استخدام كل الأعضاء الحسية في بيئة تتفاعل معها العضوية ، وفي الأغلب يعتبر مستحيلاً تصور أن البيئة تقدم معلومات من خلال حاسة واحدة فقط .

(Itteson, 1984, p.106; Itteson 1977, p.150)

وعلى الرغم أنه يبدو لنا في بعض الأحيان أن إدراكنا مسيطر عليه بحاسة واحدة فقط ، مثلاً الرائحة الزكية في غرفة يمكن أن تؤثر في إدراك جاذبية الغرفة ، والكيف يمكن أن يستخدم حاسة اللمس ، وصورة من صور الرادار المرتبط بشدة بحاسة السمع لديه ، ولكن بالنسبة لمعظمنا خلال معظم ساعات يقظتنا فإننا نلتقي من البيئة خليطاً من المعلومات ينقل عبر جميع حواسنا في وقت واحد (Itteson, 1984, p.106)

٣- وهذا يقودنا إلى الخاصية الثالثة للبيئات وهي أنها تقدم دائماً معلومات محيطية بالإضافة إلى المركزية ، حيث تعبر المحيطية بالمعنى الميكانيكي - عن المنطقة خلف الفرد التي تمثل جزءاً من البيئة يقابل الجزء الذي يقع أمام الفرد - وهي تمثل المعلومات المتوفرة التي ليست بالضرورة مفيدة دائماً و تصبح مركزية عندما تكون مركز الانتباه ، وعلى الرغم من أن الكثير من المعلومات المحيطية يمكن ألا تدخل الوعي أبداً ، فإن آثارها بعيدة الأجل يمكن أن تكون هامة وممكنة القياس. فالمنطقة التي خلفنا ليست أقل أهمية من التي أمامنا، وتحديدنا لما هو مركزي وما هو محيطي يعتمد على ما نبحث عنه أي أهدافنا وأغراضنا .

٤- البيئات تزود باستمرار بمعلومات أكثر مما يمكن أن يعالج وتوسع على جهازنا العصبي مهمة التعامل مع هذا الكم من المعلومات ولكن إذا زادت كميتها إلى الحدود القصوى سنعاني من حمل المعلومات ، وبالمقابل إذا انخفضت كميتها سنعاني من حرمان حسي ، وبين هذين الطرفين تكون معالجة المعلومات البيئية المتعارضة والغامضة والتي تتطلب زيادة الاهتمام بالدراسات الإدراكية (Ittelson, 1977, p.150; Canter, 1977, p.10; Fisher et al., 1984, p.22; Ittelson, 1984, p.107) إن الخصائص الأربعة السابقة لا تستطيع الأشياء أن تعالجها أو عادة لا تعالجها . هذا بالإضافة إلى خصائص أخرى هي :

٥- الإدراك البيئي يتضمن دائماً الفعل والفرد خلال عملية الإدراك البيئي ليس سلبياً تماماً ، والبيئة تُعرف وتُخبر من خلال الفعل ، والمدرّك يتصرف كمكون من الموقف الذي يدركه ، فهو يتعلم أنواع التدخلات التي يمكن أن يقوم بها في البيئة وعواقب هذه التدخلات ، و يسجل التغذية الراجعة البيئية في العلاقة مع حاجاته الخاصة وأهدافه . هذه العلاقة تعتبر أساسية للشخص المدرّك الذي يقوم بالسلوك لفهم البيئات اليومية . بهذا المعنى تلعب البيئة دوراً مزدوجاً في حياتنا : فهي تزودنا بمصدر للمعلومات التي يبنى عليه الفعل ، و تقدم المبدآن الذي تتم فيه الأفعال في الواقع (Ittelson, 1984, p.107-108). أيضاً

٦- تزود البيئة بالمعاني الرمزية والرسائل الدافعية التي يمكن أن تؤثر في الاتجاهات التي يتم بها الفعل (Ittelson, 1977, p.150) فلدَى البيئة معنى رمزي لأن الأهداف والأفعال التي تحدث فيها قد حُدِدت اجتماعياً ، مثلاً بالنسبة لعيادة الطبيب تستبطن مسدركات حسية مباشرة لما يجب أن يحدث في هذا المكان والأهداف التي ستجيز فيه ، ولا يمكن تخيل بيئة لا تكشف رمزياً عن مجموعة توقعات سلوكية تحدد أنواعاً من الأفعال المرجح حدوثها في تلك البيئة (Ittelson, 1978, p.199-200; Ittelson, 1984, 1977, p.108, p.151)

٧- للبيئات نوعية منظمة للمكونات المختلفة والأحداث المرتبطة مع بعضها بطرائق

معينة تخدم تحديد خصائص بيئة معينة والتعريف بها ، وتحديد هذه العلاقات المنظمة هي واحدة من الخصائص الرئيسية لعملية الإدراك البيئي (Ittelson, 1977, p.151)

"فالتبيعة تمقت الخواء (الفراغ) بشدة ، والإنسان يمقت بشدة العشوائية والتشوش وأن الطبيعة الواضحة ، والتنظيم الواضح للعالم الخارجي هو في الحقيقة واحدة من أكثر استجاباتنا الأساسية له ، وعن طريق الوعي بالذات Self- Conscious يتم خلق الترتيب والقابلية للتنبؤ واكتشاف البيئة التي من صنع الإنسان و العالم الطبيعي ، ونكون قادرين على أن نتكيف مع كل منهما ونعيش فيها . إذا العشوائية هي مناقضة للحياة " (Ittelson, 1984, p. 109).

وهكذا نرى أن البيئة تزود بمعلومات غير مباشرة فيما يتعلق بحدودها في الزمان والمكان ، كما أنها تزود بمعلومات من خلال كل أنظمة الحواس وهذه المعلومات من طبيعة معقدة جداً ، وتكتسب المعلومات البيئية دائماً من خلال الفعل ، ويتم اكتشافها بين أشياء أخرى ، وللبيئة معان رمزية ومعرفية ، وأخيراً لديها نوعية منظمة للعلاقات المتداخلة الترتيب .

أبعاد عملية الإدراك البيئي :

إن تحليل طبيعة الإدراك البيئي وتحديد خصائصه أوجت للمنظرين بتحديد عدد من الأبعاد لعملية الإدراك البيئي . حيث رأى اثليسون أن مفهوم الإدراك في دراسات الإدراك البيئي يتضمن جوانباً معرفية (التفكير) وعاطفية (الانفعالي) وتفسيرية وتقييمية ، وهي تعمل في وقت واحد عبر نماذج حسية متعددة . فعندما ندرك البيئة فإن العمليات المعرفية المتضمنة يمكن أن تشمل ما الذي يمكن أن نفعله في البيئة ؟ ، بالإضافة إلى التمثيل البصري والسمعي والتصورات الأخرى للبيئة ، أكثر من ذلك نحن يمكن أن نقارن هذه البيئة مع أماكن أخرى خبرناها أو قرأنا حولها أي تقييم هذه البيئة . وعلى الرغم من أننا نناقش العمليات المعرفية والتفسيرية والانفعالية والتقييمية المتضمنة في الإدراك البيئي بصورة منفصلة إلا أن مفهومنا عن الإدراك البيئي يعتبر أن هذه العمليات تساهم في الوقت نفسه في تشكيل الخبرة الكلية . فنحن نستخدم كل العناصر الموجودة في البيئة معاً لكي ندركها كوحدة واحدة .

ولكننا أثناء دراسة عملية الإدراك البيئي نفصل هذه الأبعاد لتسهيل فهمها ، لذا عندما نتحدث عن البعد المعرفي في الإدراك البيئي فإننا نشير إلى الخبرة والذاكرة كما تشمل على المعنى الذي نستنبطه من البيئة وهل تذكرنا بخبرات سابقة؟ هل توحى بأفكار؟. أما عندما نتحدث عن البعد التفسيري فإننا نشير إلى العمليات المرتبطة بكيفية تفسيرنا للموضوعات والقضايا البيئية بصيغة لها معنى . بالإضافة إلى البعد المعرفي والتفسيري هناك البعد الانفعالي (العاطفي) حيث تؤثر مشاعرنا حول البيئة في إدراكنا لها وإدراكنا لها يؤثر في مشاعرنا . فنحن عندما ننظر إلى جدول كبير على سبيل المثال نملكنا مشاعر من الإعجاب والدهشة ،

بينما من ناحية أخرى رؤية مشهد مليء بالنفائات تثير فينا الغضب والأسف . وأخيراً البعد التقييمي في عملية الإدراك البيئي الذي يتضمن تحديد العناصر الإيجابية والسلبية ، فنحن على الأغلب نرى أن مقالب القمامة شيء سيء ، والوادي الكبير شيء جيد

(Ittelson et al., 1974, p. 112-113 ; Ittelson, 1978, p.197; Bell et al., 1990, p.29 ; Bell et al., 2001, p.58).

كما يضيف البعض أبعاداً أخرى إلى عملية الإدراك البيئي ، فتركيز الفرد على المثيرات الهامة بالنسبة إليه من بين الكم الكبير للمثيرات والمعلومات البيئية المحيطة به يدعى بالوظيفية **Functionalism** وانطلاقاً من هذه الرؤية فإن إدراكنا منمذجة بواسطة ضرورة «النجاح في تدبر أمرنا» في البيئة . مثلاً نحن نقارن الإحساسات الحالية مع الماضية من أجل أن نرى إذا كانت المثيرات الحالية مؤشراً لحظر ما أو نخدم كمؤشر للطعام أو المأوى، ويرى أغلب الباحثين أن هذه العمليات الوظيفية قد تطورت بيولوجياً كجزء من تكيف البشر مع المطالب البيئية (Fisher et al., 1984, p.22; Bell et al., 1990, p.30).

أيضاً تتضمن العمليات الإدراكية أفعالنا التي نقوم بها ، إذ أننا نجلب توقعاتنا وخبراتنا وقيمنا وأهدافنا إلى البيئة ، إنها تزودنا بالمعلومات ونحن ندركها من خلال النشاط وهذا بدوره يتأثر بالبحث من أجل المعنى وبمشاعرنا ، وبكيف نقيم البيئة . حيث يحدد جزءاً من هذا النشاط لاكتشاف بسيط لتوجيه Orient أنفسنا في البيئة (أي التنقل والتحرك في البيئة) وجزء منه لإيجاد استراتيجيات لاستخدام البيئة لتحقيق حاجتنا وأهدافنا ، ويرتبط جزء آخر ببناء مشاعر الأمن والطمأنينة في البيئة (Fisher et al., 1984, p.22 ; Bell et al., 1990, p.30-31)

يبدو مما سبق أن الإدراك البيئي عملية معقدة جداً ومتشابهة من حيث صعوبة فصل مكوناتها ومن حيث شموليتها .

نظريات الإدراك البيئي :

ما يزال العمل في الإدراك البيئي غير موجه بنظرية واحدة ، وربما يرجع ذلك إلى أن تعقد عملية الإدراك البيئي هي بقر تعقيد البيئة ، والتي يصعب معها وجود مدخل واحد يلمس بكل جوانبها ويفسرها . لذا كان هناك تنوع في المداخل النظرية المفسرة لعملية الإدراك البيئي إذ أن كلاً منها يركز على جانب من البيئة أو على مبدأ معين في تفسير الإدراك البيئي . فالإدراك البيئي مثل باقي موضوعات علم النفس البيئي يحتاج إلى نظريات أو أطر عمل من أجل تقديم التوجيه وبناء تصور لعملية الإدراك البيئي ، ولإنشاء فرضيات قابلة للبحث والدراسة حيث لا توجد ، إلى الآن ، نظرية واحدة مقبولة وحدها حول الإدراك البيئي ، لذا

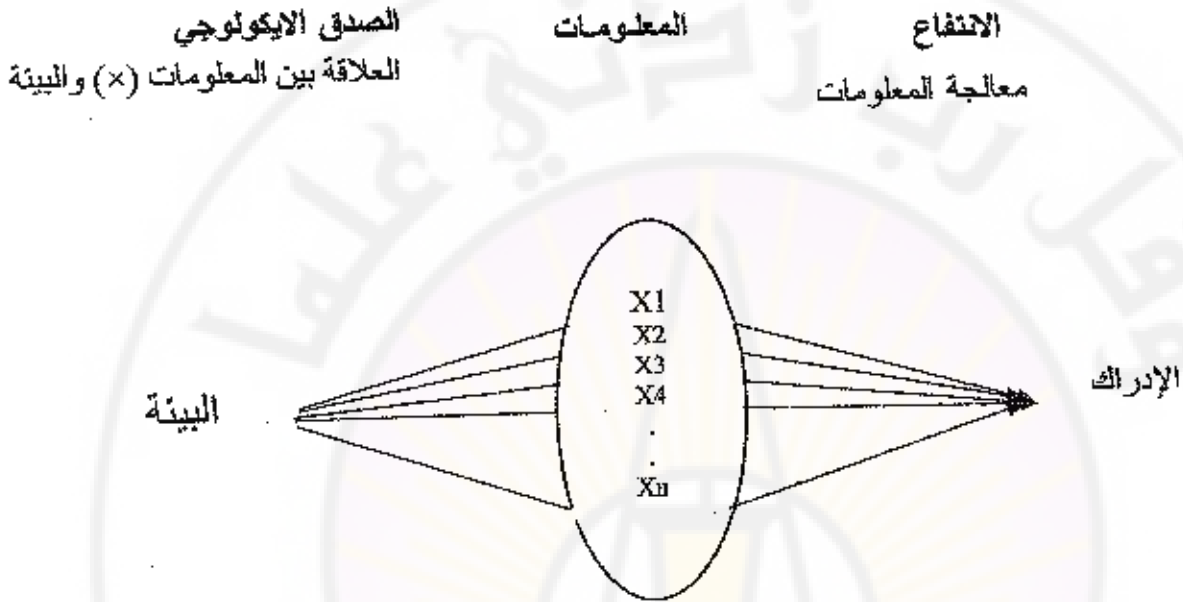
ستعرض الباحثة بعض المداخل النظرية الأكثر شيوعاً في أدبيات علم النفس البيئي التي تناولت عملية الإدراك البيئي والتي يمكن أن تقضي يوماً ما إلى نظرية قيمة وشاملة .

[١] - نظرية برونشفيك Brunswik:

يعتبر إيجون برونشفيك ١٩٥٦ من أوائل من أسسوا لمفهوم " المثير كمصدر للمعلومات " بدلاً من فكرة المثيرات التقليدية (أي كمصدر للإثارة) في تراث علم النفس ، حيث ينظر برونشفيك لعملية الإدراك كنظام لمعالجة المعلومات Information processing system (IPS) وذلك استناداً إلى دور المعلومات البيئية في تشكيل الظاهرة الإدراكية ، كما وضع نموذجاً سيكولوجياً للإدراك سمي بنموذج العدسة Lens model يُعنى بإدراك البيئة بشكل كلي ، فالمعلومات الحسية لا تعكس العالم الواقعي بدقة ، وهي غامضة بحكم طبيعتها وعلى الأفراد استخدام هذه المعلومات لإصدار أحكام احتمالية عن الطبيعة الحقيقية للبيئة ، حيث تقوم العمليات الإدراكية البشرية في نموذج العدسة ، مقام العدسة في العين أو آلة التصوير ، فبمجرد أن تلتقط العدسة خطوطاً مبعثرة من الضوء تركز على نقطة واحدة في الشبكية (أو على الفيلم) ، وفي نموذج العدسة لبرونشفيك فإن العملية الإدراكية تستقبل خطوطاً مبعثرة من المنبهات البيئية وتلقيها ثم تعيد إخراجها في إدراك منظم وموحد ويتعلم الأفراد بالخبرة ما هي المثيرات التي تعكس البيئة الواقعية بدقة ومن ثم تُعطى وزناً أكبر في تنظيم الإدراكات المستقبلية . ويتعبّر برونشفيك أن لهذه المثيرات صدق أيكولوجي مرتفع ونحن لا نقوم عادة بهذه الأوزان عن وعي وإنما نتعلم تدريجياً ما الذي نبحث عنه في موضع ما ، وبعد التعرض لمواقف كثيرة يصبح لدينا مخزون كبير من الأحكام الاحتمالية .

و لا تختلف المؤشرات البيئية فقط في فائدتها الموضوعية (الصدق الايكولوجي) ولكن يمكن للأفراد أن يعطوها وزناً كبيراً أو صغيراً (الانقاع من المؤشرات) بسبب الخبرات السابقة والشخصية أو الفروق الأخرى .

وللقيام بهذه العملية يرى برونشفيك أن الفرد يجعل بيئته في عينات إدراكية ومن ثم يختبر دقة إدراكه للبيئة من خلال أفعاله ، ويمكن لإدراكاته هذه أن تكون من الدقة بقدر ما لديه من عينات إدراكية لكل البيئات الممكنة ، وبما أنه ، كما يرى برونشفيك أن البيئات لا تتفق كلياً مع بعضها البعض ، وأن صنع العينة عن البيئة لا يمكن أن يكون متقناً تماماً لذا فالرسائل التي يدركها الفرد من هذه البيئات هي دائماً احتمالية أكثر منها مطلقة ، وبما أن البيئات تقدم عدداً كبيراً من المؤشرات ، لذا فعلى المتلقي أن يكون حساساً لأكثر هذه



الشكل رقم (١) يمثل
نموذج العدسة في الإدراك البيئي لبرونشفيك
(Russel & Arkkelin, 1995, p.86)

المواقف أو الإلماعات أهمية من أجل العمل بفعالية في الموضع الفيزيقي ، وهذا ما يدعوه بروتشفيك بالوظيفية . مثلاً الأطفال أو أولئك الذين يجدون أنفسهم فجأة في موضع جديد يمكن أن يصابوا بتشوش على المستوى الإدراكي لأنهم أغرقوا (أحيطوا) بالمواقف أو الإشارات ولم يتعلموا بعد التمييز بين الهام منها وغير الهام

(Brunswik(In): Matthews, 1992, p.83-84, p.109-112 ;Russell & Arkkelin, 1995,p.85-86 ;Gifford, 1997, p.26-27 ;Bell et al.,2001, p.63-64 ;Bonnes & Secchiaroli, 1995, p.25-26).

إذا الأفراد المدركون هم فعالون يفحصون باهتمام مشاهد البيئة التي تساعدهم على شق طريقهم في هذا العالم .

[٢] - نموذج جيبسون الايكولوجي Gibson's ecological model

على الرغم من أن جيبسون ١٩٦٦ ينظر إلى الإدراك البيئي كنظام معالجة معلومات إلا أنه يعتقد أن المعلومات البيئية هي مطلقاً أكثر منها احتمالية ، حيث يرى أن كل المعلومات الضرورية من أجل الإدراك متضمنة بشكل مباشر في نموذج الطاقة الفيزيكية التي تتوضع على أعضاء الحواس بما يشبه الإدراك التقليدي ولكن إدراك البيئة لدى جيبسون أكثر مباشرة وأقل تفسيرية من الإدراك التقليدي ، أي أنه يتطلب وساطة أقل من قبل المراكز العليا في الدماغ لإدراك المعنى في البيئة ، فالمعنى موجود مسبقاً في البيئة والميكانيزمات الحسية مزودة مسبقاً بروابط الاستجابة للجوانب ذات المعنى في بيئتنا .

وترتبط نظرية جيبسون بالبيولوجيا الايكولوجية التي تدرس تكيف العضويات مع بيئتها. فقد طبق جيبسون مفهوم البيئة الايكولوجية الملائمة Ecological niche (وهو يشير إلى البيئة التي تمتلك خصائص يمكن أن تنتفع بها العضوية و تمنحها أعظم فرصة للنجاة والحياة) على الإدراك البشري ورأى أن لدى البشر ، فطرياً ، المقدرة على إدراك الجوانب التي لها قيمة وظيفية لهم في بيئتهم . لذا يولد الطفل ولديه مقدرة على إدراك وجه أمه طالما أن المثير يمتلك قيمة واضحة للنجاة . وقد توصلت دراسات (Gibson&walk,1960) حول المنحدر البصري Visual cliff الذي صُمم بحيث يخلق انطباعاً بوجود منحدر شديد على سطح من الزجاج الصلب وذلك للكشف عن أن القدرة على إدراك العمق فطرية ، وتبين لهما أنه حالما يستطيع الطفل الحبو (أي قبل أن يتعرض لخبرة السقوط) كان يتوقف عندما يصل إلى هذا المنحدر. كما بينت الدراسات أيضاً أن الأطفال حديثي الولادة يظهرون نزعة واضحة في البقاء وقتاً أطول ينظرون إلى صور الوجوه البشرية أكثر من صور الأشياء غير البشرية، ولهاتين المقدرتين الإدراكيتين قيمة بقائية

واضحة : الأولى لتجنب مخاطر السقوط والثانية لتمييز مصدر التغذية
لقد ابتدع جيبسون مفهوم الخصائص البيئية Affordances الذي يشكل أساس نظريته ،
وهو مشتق من مفهوم البيئة الأيكولوجية الملائمة وهو يشير إلى ما تقدمه البيئة للعضو أو
تزوده به أو تمنحه إياه من أجل الصحة والمرض - إنها صفات الأشياء المحددة بالعودة إلى
الملاحظ ، ولكنها قيم غير ذاتية فتصميمات عمرانية مختلفة تقدم سلوكيات مختلفة لكائنات
مختلفة ، وهي ثابتة أيضاً فخصائص شيء ما من المفترض ألا تتغير عندما تتغير حاجة
الملاحظ لها ، حيث أن صلاحية المادة للأكل بالنسبة للعضو لا تعتمد على جوع العضو ،
وإمكانية المشي على سطح ما تبقى سواء كان العضو يمشي عليه أم لا ، لذا فإن الخاصية
الموجبة للشيء يمكن أن تدرك فيما إذا كان الفرد يحتاجها ليستفيد منها أم لا ، إنها تقدم ما
تقوم به لأنها ما هي عليه . والخصائص مرتبطة بالأنواع ، فالشجرة مثلاً تقدم المأوى للطير
والطعام لحيوانات معينة والوقود وأشياء أخرى للإنسان لهذا السبب يجب أن ينظر إلى
الخصائص من وجهة نظر أيكولوجية فهي تؤكد على الحقائق البيئية الأكثر ملاءمة للتكيف
البيولوجي للأنواع مثل إيجاد المصادر الحيوية والمأوى والانتقال الناجح وما إلى ذلك . أيضاً
الخصائص البيئية يمكن أن تتغير ، ويعتمد إدراك هذا التغير في البيئة على فقدان واكتساب
العضو لما يمكن أن تقدمه الخصائص البيئية

وبصفة عامة يكتشف العضو الخصائص الثابتة للأشياء والتي من شأنها المساعدة على
التكيف مع البيئة - كنتيجة لانخراطه الفعال مع البيئة . ولا يقوم الجهاز العصبي أثناء ذلك
ببناء الإدراكات بقدر ما يستخلصها

(Russel&Arkkelin, 1995, p.84 ; Bonnes & Secchiaroli, 1995, p.28-33 ;
Bell et al., 2001, p.65-66 ; Bechtel , 1997, p.130-132; Gifford, 1997, p.26-
27; Winter, 1996, p.238-242;)

إن الإدراك عند جيبسون يحدث كنتيجة مباشرة للخصائص الأيكولوجية للمثيرات البيئية
وهذه الخصائص مرتبطة بالأنواع ، وقيمتها التكيفية للفرد في البيئة ونجاته أيضاً ، وأن
التغير في البيئة هو فقدان أو اكتساب للفرد لخصائص بيئية . ويختلف جيبسون مع برونشفيك
من منطلق رؤيته أن المعنى موجود مباشرة في البيئة ولا يحتاج إلى تدخل من العمليات
العقلية العليا . ويؤكد على الطبيعة المطلقة للمعلومات البيئية ، وبالتالي يرفض فكرة العيش
في العالم الاحتمالي الذي وضعه برونشفيك .

[٣]- النظرية التفاعلية :

إن النظام لا يمكن أن يقسم إلى عناصر منفصلة أو علاقات متمايزة ، كذلك البيئة التي
يخبرها الفرد هي حدث في الزمان تتشابه مكوناته بدرجة كبيرة لا يمكن معه فهم أي جزء

منها بدون تضمين النسيج المعقد لكل جوانب الموقف معاً ، وهو تفاعل بين المكونات التي تم التمييز بينها من أجل الدراسة فقط. (Bell et al., 2001, p.61). فالفرد من منظور هذه النظرية هو مكون مدمج في البيئة ، إنه يستخدم معارفه ويمارس أنشطته ليس وحده فقط ولكن كعمليات لموقف متكامل للعضوية - البيئة . و يصبح كل فرد منذ ميلاده إلى مماته جزءاً من البيئة ، لذلك لا الفرد ولا أي شيء يتصرف أو يعاني يمكن أن يكون مفهوماً عندما يفصل عن حقيقة الاشتراك في المدى الواسع من التفاعلات ، من منطلق كونه شخص ما يمكن أن يسهم ويعدل في البيئة وليس فقط من منطلق كونه جزء منها (Ittelson, 1977, p.154) .

وقد ظهرت هذه المدرسة في منتصف الأربعينات مع أدلبيرت أميس Adelbert Ames مع تجاربه الأولى والتي استمر فيها مع مجموعة من باحثي جامعة برينستون وهم: كانتريل Cantril وكيلباتريك Kilpatrick وإيتلسون ... وتم تبني مصطلح التفاعلي Transactional ليشير إلى نموذج معين لفهم العلاقة بين الفرد وموضوع الإدراك (Bonnes & Sechiaroli, 1995, p.33).

وتتفق التفاعلية مع النظريات التي ترى فقراً في مفهوم المثيرات فيما يتعلق بالبيانات البيئية واستبدال طاقة المثير بمعلومات المثير لتتوافق مع طبيعة البيئة . كما تلقي التفاعلية عبئاً كبيراً على الخبرة السابقة والعوامل الشخصية الأخرى . ولا تتفق رؤية التفاعليين مع الجشتالتية من حيث أن المبدأ المنظم للعملية الإدراكية يتمثل في الشكل Form ، حيث ترجع التفاعلية المبدأ المفسر لكل نتيجة إدراكية إلى سلوك الفرد في البيئة ، وإلى نشاطه الموجه بواسطة الأهداف . فعلى الرغم من تصميم أميس ١٩٥١ لسلسلة من البراهين غير المختلفة عن الجشتالتية إلا أنها كانت تهدف إلى كشف بعض الافتراضات الأساسية جداً حول الإدراك والتي يمكن أن تخدع العين ، وقد تضمنت نافذة أميس وحجرة أميس . بالنسبة للنافذة كانت تبدو أنها تدور إلى نقطة ومن ثم تبدو أنها تتقلب من نفسها ولكن في الحقيقة هي تتحرك باستمرار . ويكشف هذا الافتراضات الضمنية في ملاحظة كيف يمكن أن تكون النافذة الطبيعية ، وعندما يخبر المفحوص أن الشكل غير طبيعي ، عندها يكتشف أن الحركة مستمرة (Bechtel, 1997, 132-139). وفي تجربة الحجرة المحرفة Distorted room يوضع المفحوص في مكان ثم ينظر من خلال ما يبدو أنه نافذة إلى ما يبدو أنه غرفة طبيعية . وهناك شخصان داخل الغرفة ، فجأة يبدأ أحدهما السير نحو الجدار الخلفي ويظهر بأنه يكبر مع كل خطوة يخطوها ليصل إلى حجم عملاق . عندها يخاف المفحوص وفي الأغلب لا يستطيع أن يصدق ما يحدث . هنا الافتراضات الطبيعية يتم تشويهها ، فالغرفة معدة بحيث تبدو طبيعية لشخص ما ينظر إليها من خلال النافذة باستخدام عين واحدة ولكن في الحقيقة هي

شبه منحرف وبالتعاون مع شعب الخطوط البصرية أدى ذلك إلى خداع العين والاعتقاد بأنها مستطيلة (Ittelson, 1984, p.117; Bonnes & Secchiarioli, 1995, p.35; Bechtel, 1997, p.133) , جابر عبد الحميد وآخرون، ١٩٩٣، ص ٢٠٧

وقد استخدم كيلباتريك ١٩٥٤ حجرة أميس حيث طلب من المفحوصين أن ينفذوا بعض الأنشطة مثل إلقاء كرات ولمس بعض أجزاء الحجرة بواسطة عصا بينما يشاهدونها من النقطة المحددة للنظر إليها وبعد فترة من ممارسة هذه الأنشطة اكتشفوا أن الحجرة مشوهة للإدراك ومحرفة له . وقد انتقل إدراكهم هذا إلى حجرة أخرى كانت مستطيلة بالفعل، وتبين أن هذه التجربة تلقي الضوء على الدور الهام للفعل في البيئة وتزويده المدرك بالتغذية الراجعة ، كما أنها توحي بأن المنركين يبدأون في اختبار صحة المؤشرات البيئية عن طريق الفحص البصري وحده فقط (Ittelson, 1984, p.117; جابر عبد الحميد وآخرون، ١٩٩٣، ص ٢٠٧-٢٠٨) .

أيضاً قام أميس وآخرون بتجارب أخرى حول تأثير الخبرة في الإدراك من خلال تغيير نوع المعلومات القادمة من البيئة وليس بتغيير البيئة نفسها مثل التجارب التي استخدمت فيها النظارة المحرفة لمسار الأشعة الضوئية الواصلة إلى الشخص الذي يستخدمها. ويطلب من المفحوص أن يستخدمها لفترة من الزمن ثمند من دقائق إلى عدة أيام وأحياناً أسابيع ويعتمد ذلك على طبيعة وحجم التصحيح ، ولكن على أية حال ، طول أو قصر المدة ينشئ تمثلاً للمعلومات البصرية ومطابقتها مع النموذج الإدراكي السابق (أي قبل التجربة) وعندها يتشكل نموذج جديد وثابت لمعالجة المعلومات

(Ittelson, 1984, p.114-115; Bonnes & Secchiarioli, 1995, p.35).

مثلاً المفحوص الذي يرتدي نظارة محرفة تظهر أن المتقدم إلى الأمام يبدو بأنه يعود إلى الوراء وعندما يطلب من المفحوص أن يرتدي النظارات ويركب دراجة سوف يبدو وهو يتقدم إلى الأمام أنه يسير إلى الخلف ولكنه مع مرور الوقت سوف يتعلم أن الوراء هو أمام والعكس صحيح . وكذلك الأمر في استخدام العدسات التي تظهر الأشياء مقلوبة رأساً على عقب ولكن مع مرور الوقت أصبح المفحوص يمارس نشاطاته اليومية بشكل طبيعي حتى ركوب الدراجة ...، إنه أسس علاقات جديدة بين المعلومات البيئية والأفعال التي يقوم بها وذلك بدلاً عن العلاقات السابقة التي كانت توجه سلوكه (Ittelson, 1984, p.115).

لقد صممت تجارب أميس Amis بحيث تبرز دور المدرك كمسيطر ومشارك فعال في العملية الإدراكية لتشكيل المدرك النهائي . فالأشياء لا تترك طبقاً لتشويبهها المتنبأ به من قبل فيزيولوجيا الإدراك . ففي العديد من التشويبهات لم تظهر (تدرك) مباشرة ولكنها تدرك مع

مرور الوقت بتكرار الملاحظة ، فالدور الأساسي لفعل الفرد في البيئة هو أن يوجه النتيجة الإدراكية ، بالإضافة إلى ذلك أيضاً فإن المدرك واستناداً إلى الخبرة المبنية على الفعل في البيئة يبدأ بالتشكك في مصداقية المؤشرات الإدراكية التي يزود بها البحث البصري البسيط . ومن خلال هذا النوع من الدراسات استطاع أميس وزملاؤه أن يثبت ترجيح الأخذ بأهمية الخبرة السابقة كسبب في الانطباع البصري أكثر من الشيء الذي يخدم في الواقع كباعث للمُدرِك فالبحث من أجل الموضوعية المطلقة هو بحث عقيم ، و أن التطابق بين الإدراك والشيء ليس تاماً أبداً ، وبدلاً من ذلك إن الإدراك هو احتماليات وظيفية للبنى التي تبرز من النتائج الطبيعية للأفعال السابقة وتخدم كموجهات لأهداف لاحقة للفرد من خلال النشاط .

فالإدراك هو ذلك الوجه من العملية الكلية التي هي وعي ضمنى بالنتائج المحتملة للفعل الهادف مع أخذ الشيء بعين الاعتبار نسبياً . ولا يمكن للإنسان أن يعرف عن العالم الخارجي أكثر من تلك الجوانب التي هي مرتبطة مباشرة بتنفيذ أهدافه . وتشكل افتراضاتنا ما يسمى بـ «عالمنا الافتراضي» الذي نجلبه إلى كل مناسبة لبنى إدراكاتنا ، و لذلك العالم الوحيد الذي نعرفه يتحدد بواسطة افتراضاتنا (kilpatrick, 1961, p.4).

ويرى كانتريل أن المدرسة التفاعلية تذهب وراء الخصائص الإدراكية البسيطة . حيث يشرح موقف التفاعلي بقوله: " إن كل تفاعل في الحياة يتضمن عوامل كثيرة وجوانب خاصة بالإنسان الذي يقوم بها ، وكل مناسبة في الحياة يمكن أن تحدث فقط من خلال البيئة وهي مصبوغة بهدف ما ، وتتطلب فعل من نوع ما و بالتالي تسجيل النتائج الملاحظة للفعل . و كل فعل مبني على وعي ما ، أو إدراك يُحدد بواسطة افتراضات تُجلب إلى هذا الحدث . كل هذه العمليات متداخلة ولا تستطيع أية عملية أن تقوم بوظيفتها بدون الأخريات " (Cantril, 1950, p.59) ، أيضاً نحن لا نخبر البيئة مستقلة عنا و لا نحن مستقلون عن البيئة ، بل نكون مشتركين في البيئة ، وأكثر من ذلك نحن نخبر أنفسنا في ومن البيئة... كما أننا لسنا حبيسي أو أسرى بيئتنا ولا نقف خارجها ولكن بالمقابل إننا نخبرها وتفاعل معها من خلال الانخراط الفعال .. كما ترفض التفاعلية الحتمية التي ترى أن هناك ظروفاً بيئية خارجية معينة تجعلنا ندرك ونتصرف بطرق معينة (Ittelson, 1984, p.104-105).

لقد أصبح واضحاً أن تفسير الخبرة وحتى المعرفة هو على نحو واضح وظيفية للقيم الثقافية والاجتماعية والعادات والذاكرة و الانفعال والعاطفة و المخاوف والمعتقدات والأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة والقدرات العقلية والتوقعات والقيم الشخصية الأخرى إلى جانب العوامل الفيزيائية والاقتصادية والمؤسسية التي لا تحدد خصائص البيئة الموضوعية فقط ولكن هي جزء أساسي من المعلومات التي تأتي منها... (Gollledge, 1987, p134).

إن قبول المدخل التفاعلي يتيح بحث المواقف الوسيطة للعلاقات بين الشخص والبيئة ، بمعنى أنه بينما يفضل الفرد استجابة سلوكية لموقف ما يمكن لهذه الاستجابة أن تكبح بسبب وجود أفراداً آخرين أو قيود مجتمعية أو ثقافية أو محرمات (Bows, 1973,p307-333) إذاً إن قبول المدخل التفاعلي يؤدي إلى قبول الثقافة أي نظرية التعلم . وقد قامت دراسات عديدة على المقارنة بين الشعوب من بيانات مختلفة في الإدراك .

ويفترض منظرو مدخل التعلم أن الأثر الهام للخبرة و التعلم في الإدراك هو نمو افتراضات حول العالم من حولنا تيسر تفاعلاتنا مع البيئة لأنها توفر لنا الوقت والجهد في مواجهة المثير ، حيث نفترض أن العديد من عناصر الموقف الجديد هي مشابهة لتلك المواقف التي خبرناها مسبقاً ، لهذا نحن نجلب إلى الموقف افتراضاتنا المتعلمة في شكل توقعات Expectations حول ما يمكن أن يحدث . وهي عادة ما تصحح المعلومات وتجعل معالجتها أسهل ، وتقلل التكيف أيضاً . إذاً نظريات التعلم ليست مختلفة عن الوظيفية ، فعلى سبيل المثال في المقارنات عبر الثقافية للحساسية لخداعات معينة تشير إلى أن الخبرات بأنواع مختلفة من البيانات مرتبطة بالفروق في القابلية لحدوث تلك الخداعات . فقد بين البورت وبيتغرو (Allport & petligrow,1957) أن الأطفال في ثقافات المنحنيات Curvilinear (وتعني الثقافات الاقريقية البدائية حيث كانت المساكن مدورة أكثر منها مستطيلة) أكثر قابلية للخداعات التي تقوم على إدراك الخطوط والزوايا مثل خداع شبه المنحرف (Ittelson, 1984, p117; Bonnes & Secchairoli, 1995, p.36 ; Russell & Arkkelin, 1995, p85).

أيضاً في دراسة Turnbull, 1961 على أقزام زائير تبين أنه حتى ثبات الحجم مرتبط بالخبرات التي لدى الأفراد عن رؤية الشيء نفسه من مسافات مختلفة . وفي دراسة أخرى وجد أن قاطني المدن أكثر حساسية لخداع ميللر - لير Muller-Lyer من قاطني الأرياف . جميع هذه الدراسات ودراسات أخرى كثيرة في هذا المجال توجهت نحو إظهار أثر الخبرة الإدراكية السابقة في النتيجة الإدراكية لدى الفرد وهي هنا محدده بواسطة خصائص سياق ثقافي محدد . ولكن في الوقت نفسه نلاحظ أن الدراسات الأخيرة أقرب إلى علم النفس الاجتماعي ، وعلى الرغم من التداخل بين أصحاب التفاعلية في منظور علم النفس البيئي وعلم النفس الاجتماعي إلا أن أصحاب المدرسة التفاعلية في علم النفس البيئي يحددون رؤيتهم بـ : " أن كل إدراكات الإنسان هي شخصية متفردة وخاصة " (Kilpatrick, 1961, p.4). و أن الإدراك هو "عملية يسهم بواسطتها شخص ما من مركزه السلوكي الخاص به بفعالية في موقفه البيئي المباشر " (Ittelson, 1974, p.105).

إذا إن العلاقة بين الفرد والبيئة من وجهة نظر التفاعلية على الرغم من تأثرها بعلم النفس الاجتماعي إلا أنها تنزع إلى أن يكون لها خصائص أساسية تنفرد بها تركز على المعتقدات الفردية أكثر منها البين شخصية و الثقافية الاجتماعية . وهذه الخبرات الشخصية والمعتقدات تلعب دور الفلتر للمعلومات البيئية واختيار ما يتوافق معها .

- و بعد هذا العرض للنظريات الإدراك البيئي يتبين لنا أن رؤية برونشفيك تتفق مع رؤية أميس والمدرسة التفاعلية عموماً من حيث أن الإدراك البيئي لا ينشأ مباشرة من الخصائص الموضوعية للعالم الخارجي ، ولكن العالم حوّل إلى بيئة الفرد النفسية عن طريق إدراكه له ومعرفته به ، أي أنها عملية خلق تتم بفاعلية من قبل الفرد الذي ينخرط في الموقف الإدراكي ، وملاءمة هذه الإدراكات تقيم من خلال الانتفاع منها في مساعدة الفرد في تحقيق أهدافه الشخصية والاجتماعية . ومع مدخل التعلم في تفسير الإدراك من حيث أن الفرد يتعلم بحكم الخبرة إدراك الأشياء في بيئته ومعناها ، غير أن برونشفيك كان أقل تركيزاً من المدرسة التفاعلية ومدخل التعلم على الخصائص الشخصية للفرد ، واهتم بالخصائص البيئية التي تحمل معنى للفرد أو لا ، وهذا ما جعله يقترب أيضاً من رؤية جيبسون الإيكولوجية ، إلا أن جيبسون على العكس من برونشفيك يرى أن المعنى موجود مسبقاً في البيئة فالمعلومات البيئية هي مطلقة وليست احتمالية .

لا شك أن هذا التنوع في وجهات النظر حول الإدراك البيئي يغطي معظم جوانب الظاهرة ، إلا أنه يفضي إلى عدم وجود مدخل بعينه يوحد بينها ويعبر عن مختلف جوانب الظاهرة ، ومع ذلك تبدو المدرسة التفاعلية هي الأكثر شمولاً والأقرب إلى الواقع وممكنة التطبيق أيضاً ، مع عدم إغفال الجوانب الإيكولوجية التي تحدث عنها جيبسون ، ودور الفرد في اكتشاف البيئة الذي تحدث عنه برونشفيك .

المعرفة البيئية :

لقد ذكرنا سابقاً أن المعرفة البيئية تتفق مع الإدراك البيئي حول طبيعة العملية وهدفها ولكن تختلف في مضمون المعلومات البيئية حيث تركز المعرفة البيئية على المعرفة المكانية ، فمصطلح المعرفة يشير إلى العمليات الفكرية ، لهذا تهتم المعرفة البيئية بالتفكير في البيئة (يعني الطرق التي يعالج بها الأفراد المعلومات وتنظم معرفتهم حول خصائص بيئاتهم) أيضاً الاهتمام بكيفية اكتساب هذا النوع من المعرفة ، أو كيف يتم تعلمها بالإضافة إلى كيف يختلف الأفراد في معرفتهم بالبيئة ، وكيف تؤثر التباينات في البيئة في القدرة على فهم المكان (Russell & Arkkeline, 1995, p.87)

وكانت بدليات المعرفة المكانية مع المدرسة الجشتالتية ، التي ركزت على الدور الفعال للدماغ في البحث عن المعنى في المثير ، فمصطلح الجشتالت يعني الشكل الجيد ، وافترضت أن الدماغ منظم بطريقة معينة لتشكيل المعنى من المثير وأيضاً لاستنباط المعنى منه ، ورفضت الطرق الاختزالية في تفسير الإدراك وأكدت على أن الإدراك أكثر كلية وحاولت إثبات ذلك من خلال تحديد القواعد التي من خلالها نرتب أو نحول الأجزاء الصغيرة إلى كليات كبيرة ، ولماذا بعض هذه الأشياء تصبح المركز (الأشكال) لانتباهنا والأخرى خلفية وتدعى هذه القواعد بقوانين التنظيم الإدراكي ومنها مبدأ الشكل البسيط ، والتوجه الكلي (الكل أكبر من مجموع الأجزاء) ، التقارب ، والتشابه ، والإغلاق ، وثبات الحجم ، ...

(Russel & Arkkelin, 1995, p.83; Bell et al., 2001, p.61-62; Winter, 1996, p.230:233) .

وقد استخدمت قوانين التنظيم الإدراكي في تفسير كثير من الظواهر الإدراكية مثل إدراك الحركة (الشكل، الحجم، اللون) وتأثير الشكل والخلفية ، حيث للشكل ملامح مترابطة أما الخلفية غير محددة . وهناك إدراك العمق من خلال هاديات خارجية مثل الارتفاع والانحدار والحجم والانطباق وأيضاً استخدام العينين معاً .

إذاً هناك جزء كبير من إدراك العالم يحكمه العالم ذاته أي مثيراته من انتظام وخصائص مادية ومكانية . وعلى الرغم من إغراق الجشتالتيين في شكل المثير إلا أن مبادئهم كانت البداية للكثير من الدراسات الإدراكية اللاحقة ومنها دراسات إدراك البيئة .

فالمعرفة البيئية تهتم بالطريقة التي نستخلص بها ، ونخزن ، وننظم ، ونسترجع المعلومات حول المواقع والمسافات والترتيبات في الأبنية والشوارع والأماكن الرئيسية خارج المبنى (المزمل) . فهي تتضمن المعرفة المكانية التي تعني عمليات التفكير التي تساعدنا على إيجاد طريقنا (مثلاً التوجيه الناجح في البيئة) وتقدير المسافات وتنظيم الإلماعات (المؤشرات) في الطريق وصنع وقراءة الخرائط ، وعموماً فهم الموقع المحدد لأماكن مختلفة في مساحة ما (Gifford , 1997, p 29) حيث يتوقف نجاح البشر وبقاؤهم على تفاعلهم بشكل مناسب مع البيئة لذا علينا أن نتعلم قيم الأشياء المختلفة الموجودة في البيئة ومواقعها . حيث تكون هذه الأشياء مثل (قطاع الطرق والرفاق والطعام والمأوى والمخاطر) مبعثرة في الفراغ المكاني ومن المهم أن نمتلك المهارات المعرفية والجسمية المطلوبة للتحرك في هذا الفراغ المكاني للاقتراب من هذه الأشياء أو تجنبها . فنحن نخطط لمستقبلنا المباشر باستحضار وفحص المترتبات البعيدة صور البيئات التي تكونها في ضوء الخبرات الماضية وباختصار فإن قدرتنا على التوقع الناجح لما سيحدث لاحقاً أمر مهم للبقاء خلال تاريخنا التطوري ، وهي تعتمد تماماً على قدرتنا في تخزين المعلومات عن البيئة الفيزيائية

بدقة ، وتسمح لنا الذاكرة المكانية بأن نعيش في عالم متسع الحيز نكون فيه واعين بالأسماك والأشياء التي تقع خارج نطاق حواسنا (ماك أندرو ، ١٩٩٨ ، ص ٦١) .

ولأن القدرة على التوجه ضمن البيئة خاصية هامة لكل خبرة بيئية ، فهو عملية تأسيس مكان للفرد في العالم ، وأيضاً بناء علاقة للفرد مع هذا العالم ، وأوضح مثال على أهمية التوجه في المكان هو دوره في إيجاد مكان أو مجموعة من الأماكن في البيئة الفيزيائية . لذا تهتم بحوث المعرفة المكانية بذاكرة التوجه في المكان ، والمعرفة حول المسافات والمواقع في المواضيع الفيزيائية . فالأفراد يستخلصون ويخزنون ويسترجعون المعلومات حول المواقع والمسافات وترتيبات الأماكن بشكل ميكانيكي ومع ذلك فإن طرائقنا في القيام بذلك هي وظيفية وليست عشوائية ، وأن دراسة الخرائط المعرفية تكشف بعض الاستراتيجيات لدى البشر حول معالجة المعلومات البيئية (Gifford , 1997, p 31; Ittelson et al ., 1976, p 199)

لذا يتبين مما سبق أن المعرفة البيئية يمكن أن يتم تمثيلها بشكل جيد من خلال مفهوم الخريطة المعرفية فهي تشتمل على تمثل المعلومات البيئية وإيجاد الطريق الذي يقتضي ضمناً للتوجه ، ثم تقدير المسافة . لذا سوف نعرض المفاهيم التي تتدرج تحت هذا المفهوم ونبدأ بالخريطة المعرفية ثم إيجاد الطريق وأخيراً تقدير المسافة .

أ- الخريطة المعرفية :

تعريفها : إن الخريطة المعرفية كما يعرفها لازلو وآخرون Laszlo et al هي " تمثيلات عقلية للعالم التي نعيش فيها ، إنها تبنى من خبراتنا الفردية وتسجل كذاكريات وتختبر من خلال المطالب التي لا تتوقف للواقع ، إنها نماذج ديناميكية للبيئات حيث نقوم بنشاطاتنا الحياتية اليومية ، وبذلك تحدد الكثير من الذي نتوقعه وحتى الذي نراه ، لذلك هي تمثل ونشارك في الوقت نفسه في خلق عوالمنا الفردية " (Laszlo et al., 1996, p.3) .

ويعرفها بروشانسكي وآخرون Proshansky et al بأنها "عبارة عن تخطيط هيكلي للبيئة ويعتبر هذا الهيكل مفتاحاً لمفهوم الفرد عن البيئة" (Proshansky et al, 1976, p108) . وهكذا يراها جيفورد الذي يقول " إنها صور تصويرية أو وصفية لما حولنا ، والدليل على تكوين الخرائط المعرفية يمكن إيجاده في الإعلانات وخرائط الأنفاق الأرضية والمجلات وفي ذاكرة كل شخص وتفكيره " (Gifford , 1997, p 29) .

ويعرفها فيشر وآخرون بأنها " تمثيلات معرفية للعلاقات المكانية في البيئة التي يعيش فيها الفرد كما ينظر إليها على أنها شبكة مترابطة في الذاكرة من المعلومات المكانية يمكن تصورها " (Fisher et al., 1984, p.32-33) وتتطابق هذه الرؤية مع تعريف كوليدج " بأنها عملية تمثيل الذاكرة للمعلومات المكانية في البيئة إنها تمثل المجموع الكلي

للمعلومات البيئية المخزونة في الذاكرة " (Golledge, 1987, p143) ويرى إيفانس وبيزدك (Evans & Pezdek, 1980) " أن الخرائط المعرفية تحتوي على معلومات في

~~الخرائط المعرفية هي أنبيات المعرفة البيئية وجود مصطلحات ، من بينها مفهوم التخطيط~~

ويلاحظ في أنبيات المعرفة البيئية وجود مصطلحات ، من بينها مفهوم التخطيط المعرفي ، يستخدمها البعض على أنها مرادفة للخريطة المعرفية ، ويرى البعض الآخر أنها مرحلة من مراحل تشكيل الخريطة المعرفية . حيث يرى داوونز وستي (Downs & Stea) ، وكوليدج Golledge " أن التخطيط المعرفي هو عملية اكتساب المعلومات المكانية والمعرفة المكانية وتشكيلها والحفاظ عليها ، وناتج المجموع الكلي للمعلومات البيئية المخزنة في الذاكرة يدعى الخريطة المعرفية " (Downs & Stea, 1973, p9; Golledge, 1987, p.133)

وبصفة عامة المعرفة البيئية أو الخريطة المعرفية تقوم على مفهوم التمثيل العقلي الذي يشير إلى العملية التي من خلالها يتم إعادة تواجد وإنتاج الأشياء والأشخاص والأحداث والأفكار التي لا تكون حاضرة في الشعور وتحدث من خلال استدعاء المعلومات من الذاكرة وعرضها بشكل يشبه بطريقة ما الخبرة الإدراكية الأصلية فهو رمز عقلي لموضوع معين على شكل صورة أو فكرة (شاكر عبد الحميد ، ١٩٨٩، ص ٥٣-٥٧)

انطلاقاً من ذلك يمكن أن نعرف الخريطة المعرفية بأنها : تمثيل عقلي للعالم الذي نعيش فيه ، حول المواقع والمسافات والترتيبات في الأبنية والشوارع والأماكن الرئيسية والطرق ... ، يبنى من خلال الخبرة بالمكان ويستخدمها الفرد كوسيلة لحل صعوبات التحرك في البيئة

وعن بدايات هذا المفهوم فإن تولمان Tolman هو الذي ابتكر عبارة " الخرائط المعرفية " ، وذلك من خلال دراساته على الفئران حيث تبين له أن الفئران في متاهات التعلم لديها قدرات تشبه ما لدى البشر - من حيث تكوين خريطة عقلية Cognitive Map - فهي كانت تدرك ارتباط كل ممر في المتاهة بالممرات الأخرى التي تليه والتي سبقتها ، عن طريق التعلم الكامن وكانت خريطة معرفية لموقع الطعام في المتاهة . ففي إحدى التجارب ففّر الفأر من صندوق البداية وركض مباشرة عبر سقف المتاهة إلى الصندوق الأخير حيث يوجد الطعام ، فبدلاً من تعلم سلسلة من الدورانات إلى اليمين وإلى اليسار في المتاهة كان الفأر يرفع رأسه فوقها وينظر إلى العلاقة بين الطعام (المكافأة) وموقع الضوء في سقف غرفة التجربة ، وبعد سلسلة من التجارب اكتشف تولمان أن الفأر غالباً ما كان ينظر إلى مثير فعال وهام من أجل أن يشكل خريطة معرفية ، ولم يكن مجرد مدرك سلبي وإنما كان يتفاعل مع كل المثيرات الموجودة وكأنه بنى حقيقة تمثلاً داخلياً - خريطة معرفية - للمتاهة

(Tolman, In: Downs & Stea, 1973, p189-209

; Laszlo et al., 1996, pp4:22- 23:26 ; Bechtel, 1997, p150)

وقد شكلت أعمال تولمان بالإضافة إلى جزء من أعمال بافلوف بسدور علم النفس المعرفي ومن ثم نشوء المعرفة البيئية التي تتجاوز البيئات المصغرة إلى البيئات الواقعية المكبرة . و كان هناك نموذجان متميزان نسبياً في علم النفس المعرفي حول كيف يتم تمثيل المعلومات معرفياً ، أولهما : النماذج الافتراضية Propositional للتمثيل المعرفي التي تقول أن المعلومات تخزن في قوائم أو شبكات عمل مترابطة تقوم على تمثيلات مجردة للمعنى ، ويرتبط مفهوم السكيمات Schemata بقوة بوجهة النظر هذه ، ويتم النظر إلى الخرائط المعرفية على أنها نمط من البنية العقلية المجردة التي تساعد البشر على البحث واستيعاب (فهم) المعلومات البيئية الهامة من أجل تحديد مواقع الأماكن والتوجه . أما وجهة النظر الثانية حول التمثيلات المعرفية للمعلومات هي وجهة النظر القياسية Analogical التي تذكر أن التمثيلات العقلية تحافظ على بعض التطابق الفج والتشاكل مع البيئة الفيزيقية الواقعية للمعلومات في العالم . ولكن التطابق بين البنى التخيلية الداخلية و الشيء الخارجي يعتبر وظيفياً وليس حرفياً Literal ، وأن إعادة بناء الترتيب الخارجي من قبل التمثيل الداخلي يعيد استثارة العمليات العصبية التي هي وظيفياً معادلة لتلك العمليات العقلية المستتبطة من قبل الترتيب الخارجي مباشرة . هذه الآراء المتعارضة قد عدلت إلى فكرة أن التمثيلات المعرفية يمكن أن تشفر المعلومات بصيغة افتراضات ولكن يمكن أن تعالج تماثلياً Analogically أو قياسياً . أما وجهة النظر اللاحقة ترى أن الخرائط المعرفية تحتوي كلاهما العناصر الافتراضية والقياسية معاً ، على سبيل المثال معظم المعلومات حول البيئة يمكن أن تكون مخزنة في الذاكرة من خلال الافتراضات ولكننا نستطيع استخدام وتحويل هذه الشبكة الافتراضية إلى بنية عقلية بسرعة ، ونقترب الصورة القياسية من نوعية الصورة الفوتوغرافية والتي يمكن أن تستخدم أكثر من الشبكة الافتراضية . وتتضمن الخرائط المعرفية مسميات مجردة للعناصر البيئية (الممرات والعلامات والمقاطعات) والاتجاهات الرئيسية ، وهي متأثرة بالمعرفة السابقة للمواقع و بشكل عام هناك بعض المعلومات مثل المواقع النسبية للأشياء في الأماكن يمكن أن تعالج قياسياً

(Beli et al., 2001 p 85 ; Chen & Stanny, 1999)

إذا يمكننا القول أنه لا يمكن فصل وجهتي النظر تلك عن بعضهما فالصورة العقلية مبنية على مواد في الواقع المادي ولكن تفسير هذا الواقع يخضع فسي جوانب منه ، للعوامل الشخصية والثقافية التي تفسر الواقع المادي وبالتالي يتدخل الجانب الافتراضي . وتتفق هذه الرؤية مع رؤية جارلينغ وآخرون (Garliang et al., 1984) الذين رأوا أن الخريطة المعرفية تشمل على الأقل تمثيل ثلاثة مكونات متداخلة الارتباط : الأماكن ، والعلاقات المكانية بين الأماكن ، وخطط التنقل . بهذا المعنى : يشير المكان إلى الوحدة

المكانية الأساسية التي تربط المعلومات بها مثل الاسم والوظيفة والخصائص الإدراكية مثل النوعية الانفعالية أو الخصائص الشكلية . والمكان يمكن أن يكون عمارة أو مدينة أو بلد أو كوكب . بالإضافة إلى ذلك تعكس الخرائط المعرفية الخصائص المكانية ، مثل المسافة والاتجاه بين الأماكن وتضمن مكان في آخر (الاحتواء) Enclusion (غرفتك داخل العمارة التي هي نفسها ضمن حدود المجمع السكني وما إلى ذلك) . أما خطط الفعل فتُمثل الخطط العقلية للتوجه في المكان وتنفيذها سلوكياً والتي تمكن الفرد من الوصول إلى الآخرين انطلاقاً من نقطة محددة في المكان البيئي

(Bonnes & Secchiaroli ,1995,p142 ; Bell et al .,2001 ,p 69;
Chen&Stanney,1999,p4)

ويشكك أصحاب مدخل معالجة المعلومات في رؤية بعض علماء علم النفس المعرفي للخريطة المعرفية أنها مجرد قطعة ورق مثنية في الدماغ أو أنها تمثيل صغير جداً لمواقع توجيهية داخل رؤوسنا ، فهم يرون أن الخرائط المعرفية تحتوي على الكثير جداً من المعلومات التي لا يمكن أن يتم استحضارها كصورة ذهنية دفعة واحدة - بمعنى أننا نتذكر جزءاً جزءاً من معلوماتنا المكانية ونحن نرسم الخريطة ولا نحضر الخريطة كاملة في أذهاننا دفعة واحدة - ومع ذلك فنحن نعالج الكثير من المعلومات المخزنة - جزء منها صور وآخر لفظي - حول الممرات والحواف والنقاطات والمقاطع والعلامات الأرضية للأماكن التي نعرفها (Gifford , 1997, p 30) .

وتتفق الباحثة مع القول بأن الخريطة المعرفية لا تبنى على المعلومات البصرية فقط على الرغم من أهميتها وتعتبر الأساس في تكوينها ، فالطبيعة الكلية أو الشمولية للعمليات المعرفية المرتبطة بالمعلومات المكانية تحوي نماذج حسية أخرى مثل اللمسية والسمعية والتذوق الجمالي التي تتحد مع بعضها لتشكل تمثلاً دمجياً لأي بيئة مكانية . وأن هذه النماذج متكاملة على الرغم من اعتقادنا الحسي (ونحيزنا اللفظي) أن المعلومات البصرية هي المسيطرة (Downs & Stea,1973 ,p22) .

ب- إيجاد الطريق Way Finding

إن العديد من التنقلات في البيئة (مثل الانتقال من مدينة إلى أخرى) عادة ما تكون ضاغطة ولا تمنح الاستقرار، ولكن يبدو واضحاً أن لدى البشر قدرة على التكيف ، أما الذي لا يبدو واضحاً هو أن العمليات المتضمنة في هذه العملية غير واضحة ، أي أن العلاقة بين التصميم المكاني وسلوك التنقل والتمثل المعرفي للمكان غير واضحة ، وكيفية تأثيرها في العمليات التكيفية أيضاً. ويعتبر أفضل مدخل لدراسة المعرفة المكانية هو المدخل الذي يأخذ

بالاعتبار التمثيلات المكانية الرمزية والبنى البيئية بالإضافة إلى نشاط الفرد الذي يربطهما معاً (Diaz-Wionczek, 2002, p.13-14).

حيث ترى وجهة النظر التمثيلية للمعرفة المكانية أن كل عمليات التفكير/المعرفة تحدث في الدماغ المركزي الداخلي ويتنقل الأفراد خلال المكان لأنهم طوروا بنى عقلية معروفة «بالخرائط المعرفية» التي تخدم كطريقة لفهم البيئة الفيزيائية وطبقاً لبياجيه يحصل الطفل على الخبرة ويتعلم من خلال الفعل والتفاعل في هذا العالم والنتيجة النهائية لهذه التفاعلات هو نمو البناء المعرفي الداخلي لدى كل طفل ، الذي يسمح بتجريد الأفعال والمعرفة بعيداً عن الأفعال المنتظمة في هذا العالم (Diaz-Wionczek, 2002, pp.23-24).

أيضاً يرى لينش Lynch أن الخرائط المعرفية تعد من أجل مهمات إيجاد الطريق. وكذلك (Garling et al., 1984, 1986) رأوا أن الخرائط المعرفية يجب ألا تحوي معرفة مكانية فقط ، ولكن أيضاً خطط الفعل والتنقل لتسهيل إنجاز إيجاد الطريق . أما كيتشن (Kitchin, 1994) فقد رأى أن الخرائط المعرفية تستخدم لحل المشكلات المكانية وأن إيجاد الطريق والتوجه Orientation من أكثر المشكلات المكانية أهمية في مقابل ذلك يشكك بعض الباحثين في حاجة الفرد إلى خريطة عقلية أو مرسومة لإيجاد الطريق ، ومن هؤلاء باسيني (Passini, 1984) الذي رأى أن معرفة الطريق تتضمن ثلاث عمليات هي:

(١) التخطيط المعرفي أو عملية توليد المعلومات وخلال هذه العملية يطور الأفراد فهماً للعالم حولهم ويأخذون المعلومات من العالم حولهم ويوحدون (يكاملون) بينها.

(٢) عملية اتخاذ القرار: خلال هذه العملية يخطط الأفراد للأفعال ويصفونها في خطة متكاملة لإيجاد الطريق .

(٣) عملية تنفيذ القرار وخلال هذه العملية ينقل (يحول) الأفراد القرارات إلى أفعال سلوكية .

يبدو من خلال ذلك أن إيجاد الطريق هو سلسلة من مهمات حل المشكلات التي تتطلب كمية معينة من المعلومات البيئية المخزنة . هذا يمكن أن يكون أسهل من رسم خريطة اسكتش لسبيين- الأول : عندما يكون لدى الفرد خبرة قليلة بالبيئة ويواجه مهمة تعرف ، سوف تساعد ملامح البيئة مثل وجود علامة أو غير ذلك على تذكر الطريق بدلاً من استرجاع الخريطة من الدماغ . أما الثاني : إيجاد الطريق هو في الواقع تصحيح الذات ، فعندما يجد المرء نفسه في طريق غير مألوف سوف يعود إلى النقطة التي يعرفها ، لذلك فإن الأخطاء في

إيجاد الطريق "لا تحتاج لأن تكون تراكمية وحتى عندما يقوم الفرد بأحكام خاطئة فيما يتعلق بالمسافة أو الاتجاه بين مبنى وآخر، فإننا عندما نتعلم للطريق سوف تقل هذه الأخطاء أو تنعدم، و لكننا في الوقت نفسه قد نحتاج إلى الخريطة في إيجاد الطريق من أجل نقاط الاتصال بين المراحل على طول الطريق ولكن ذلك لا يتطلب المعرفة بالمسافات بين نقاط الاختيار ولا المعرفة الدقيقة بالزوايا التي يشكلها الطريق

(Bell et al., 1996, p.102; Bell et al., 2001, p.90).

وبصفة عامة يبقى هناك رابط كبير بين الخريطة المعرفية وإيجاد الطريق فعندما درست الخريطة المعرفية من منظور تأثيرها في إيجاد الطريق تم التوصل إلى أن القدرة على رسم الخريطة أو تمثيلها وتحديد المسافات بين الأماكن كان مرتبطاً بشكل كبير بإيجاد الطريق (Bechtel, 1997, p.155). وما يؤكد ذلك وجود تطابق بين الخصائص التي تيسر تكوين خرائط معرفية واضحة والتي تسهل عملية إيجاد الطريق، من بينها وضوح البيئة ودرجة التناول البصري وتعقيدية التصميم العمراني للمكان...

ويشير ماك أندرو إلى أن البحث في إيجاد الطريق سيجعل البيئات أكثر راحة ويسراً بالنسبة للأفراد الذين يستخدمونها وسيجعل البيئات الجديدة أكثر ألفة وأقل تخويفاً وذلك بإعطاء الأشخاص الأمان الموجود في الخريطة المعرفية التمهيدية قبل أن يتعاملوا مع البيئة الجديدة (ماك أندرو، ١٩٩٨، ص ٨٦).

وقد استخدمت هذه الخرائط التي تسمى بخرائط "أنت - هنا" you-are-here في المباني - الأسواق والمعارض والمطارات... ومختلف البيئات لتسهيل استخدام الأفراد لهذه الأماكن حيث تجعلها أكثر وضوحاً.

ج- تقدير المسافة

في معرض استخدامنا للخريطة المعرفية لإيجاد الطريق، تعتبر دراسة المسافة أمراً ضرورياً. فإذا كانت الخرائط مماثلة للواقع الحقيقي فإن المسافة أيضاً تمثل في مخزن ذاكرة الخرائط نفسه. مثلاً إذا طلب منك أن تقدر المسافات بين أزواج من المواقع فإنه كلما كانت المسافات متشابهة كلما زادت المدة الزمنية في إعطاء التقدير، وكلما كانت المسافة المسترجعة من الذاكرة أطول كلما زاد الزمن لاسترجاعها، أي كلما زادت كمية المعلومات التي علينا أن نمسحها Scanning في ذهننا كلما زاد الزمن اللازم لإجراء ذلك المسح وبالتالي زاد من تقدير المسافة (Bell et al., 1996, p.97; Bell et al., 2001, p.85).

وهذا ما توصلت إليه عدة دراسات منها دراسة ثورندايك (Thorndyke, 1981) الذي طلب من المفحوصين تقدير المسافة بين نقطتين على خريطة قد درسوها ووجد أن تقدير

المسافات بين زوجين من النقاط بزيادة خطياً مع زيادة عدد الأشياء على طول الطريق .
وأيضاً في دراسات سعد الله ومستابلن (Sadalla & Staplin, 1980a) وجد أنه كلما كانت المعلومات التي علينا أن نمسحها Scanning في ذاكرتنا عندما نقوم بالرحلة الفعلية خلال البيئة أكثر كلما زادت المسافة التي نفترض أننا قطعناها . وفي دراسة أخرى لهما (Sadalla & Staplin, 1980b) كان يزداد الحكم على الممر بأنه أطول كلما زاد احتوائه على انعطافات من ناحية اليمين و كلما زادت نقاط التقاطع على طول الممر أيضاً . وكانت هناك أيضاً دراسات أظهرت نتائجها أن المسافة المقدرة بين نقطة A ونقطة B على الخريطة المعرفية ليست بالضرورة نفسها المسافة عندما تقدر من B إلى A ، وبالتالي عدم قابلية العكس هذه تلقي بالشك على النظام الذي يمثل النماذج الإقليدية ولكنها تفتح المجال لاهتمام متنامي في نماذج أخرى من البنى المعرفية

(Bell et al., 1996, p.97; Bell et al., 2001, p.86) .

بالإضافة لذلك هناك الجانب الانفعالي للفرد حيث اختبر أونوشيان وسيجال (Anooshian & Seigal, 1985) إمكانية ارتباط الحكم على المسافة بالانفعال الإيجابي للأفراد نحو المكان وبدا لهما أن هذا الأثر قد اختفى بعد زمن لأن الألفة بالطريق قد تكونت ، وهذا ما أثبتته دراسة (Herman, Miller & Shiraki, 1987) على طلبة الجامعة .

نظريات المعرفة البيئية

تتناول الباحثة فيما يلي النظريات المفسرة لنمو المعرفة المكانية وبالمعنى الأعم المعرفة البيئية وقد ارتأينا فصلها عن نظريات الإدراك البيئي لكي يتضح موضوعها والخسط النماذج بينها والذي يقوم على البيئة المكانية بالدرجة الأولى على الرغم من وجود تداخل في بعض الأحيان من حيث إمكانية تعميم مبادئ بعض النظريات على مختلف الجوانب البيئية .
و يشير جيفورد أنه على الرغم من أن مدخل الوضوحية يقوم على دور البيئة في المعرفة المكانية ، أما مدخل النمو العقلي (متمثلاً هنا بنظرية سيجال ووايت) فيركز على دور المعرفة في المعرفة المكانية ، إلا أنهما يلتقيان عند نقطة واحدة ، وهي الطرق التي تطور بها القدرة على استخدام المعلومات المكانية مثل إيجاد الطريق وتحديد الاتجاهات وتذكر أين توجد الأماكن (Gifford, 1997, p.39)

[١] - الوضوحية : (متمثلة بنظرية لينش Lynch)

يعتبر كيفين لينش من أوائل من بحثوا أساليب الأفراد في تشكيل التصورات العقلية للبيئة من خلال كتابه «صورة المدينة» ١٩٦٠ . كان لينش يعمل مخططاً مدنياً ورأى أن هناك حاجة لدى مخططي المدن لفهم قواعد «الاستيعاب البصري» للبيئة ، وقد درس لينش

مدناً عديدة في الولايات المتحدة مثل بوسطن وجيرسي ولوس أنجلوس من خلال سؤال الأفراد في كل مدينة عن العناصر المفتاحية التي يستخدمونها في وصف شكل البيئة الفيزيائية للمدينة وطلب من الذين لديهم خبرة بالمكان أن يرسموا خريطة اسكتش للمدينة مع وصف مفصل لعدد من تنقلاتهم في المدينة ، ووصف مقتضب يذكر فيه قائمة بأجزاء من المدينة يشعر أنها الأكثر تميزاً أو حيوية في عقل المفحوص

(Lynch (In): Bonnes & secchiaroli, 1995, p.137;
Bell et al., 2001, p.71; Canter, 1977, p.23).

تسأل لينش فيما إذا كانت بعض المدن أسهل على التمثيل في عقولنا من مدن أخرى وفيما إذا كانت أكثر قابلية للتصور Imageable ، وقد أخذ القدرة على جعل المدينة قابلة للتصور كمرادف لفكرة الوضوحية Legibility، يعني سهولة تمييز أجزاء من المدينة وإمكانية تنظيمها في نموذج قابل للاستيعاب ، وكان لينش دقيقاً في التأكيد على عدم الخلط بين «القابلية للتصور» والتبسيطة Simplicity، لأن ما يقصده كانت السهولة التي تبدو فيها جوانب من المدينة بارزة في تمثيلاتها العقلية (Lynch (In): Canter, 1977, p.24).

وقد توصل من خلال دراسته إلى تحديد الأجزاء التي تجعل المدينة أكثر قابلية للتصور أو تسهم في زيادة دقة تصور المدينة وقد استخلص من مقابلاته مع الأفراد ومن خرائط الاسكتش خمسة عناصر رئيسية هي:

(١) الممرات Paths: وهي الطرق أو القنوات التي يتنقل فيها الفرد عادة أو أحياناً أو من الممكن أن يسلكها الأفراد ، و يتعرف الأفراد على المدينة عندما يتحركون عبر هذه الممرات ، حيث تنتظم العناصر البيئية وتترتب ، ومن أمثلتها : الشوارع والأنهار و الطرقات الفرعية أو الأرصفة.

(٢) الحواف Edges: وهي عناصر مستقيمة لا يشترط أن تكون ممرات أو طرقاً ، وتستخدم كخطوط تقسيم بين الأجزاء المختلفة من البيئة ومنها الحدود والشواطئ والأسوار والسكك الحديدية ومن الممكن أن تفصل إقليمين أو أن تكون رابطاً بين إقليمين .

(٣) المقاطعات Distrects: وهي أجزاء صغيرة أو متوسطة من المدينة يمكن للمشاهد أن يدخلها مثل الأحياء أو الأقاليم .

(٤) نقاط التقاطع Nodes: وهي نقاط استراتيجية في المدينة وهي مرتبطة بالممرات وتتشكل من تشعب الممرات مثل الميادين العامة أو الساحات .

(٥) العلامات Landmarks: وهي نموذج آخر للنقاط المرجعية ولكن هذا لا يدخل المشاهد فيها ، إنها خارجية وهي تعرف عادة ببساطة على أنها شيء فيزيقي : مبنى، إشارة، جبل ، أو متجر ، ... ومن خصائصها التفرد والبروز والأهمية

(Russell & Arkkelin, 1995, p.90 ; Gifford, 1997, p.30 ; Canter, 1977, p.24; Bell et al., 2001, p.72; Bechtel, 1997, p.150 ; Fisher, 1984, p.30 ; Evans, 1980, p.260 ; ص ٧٤ ، ١٩٩٨ ، (مالك أندرو ،

أثرت أعمال لينش بدرجة كبيرة في التخطيط المدني وفي علم النفس البيئي ، وقد طبقت هذه النظرية على بيئات تمتد من المباني إلى مدن بكاملها . واستخدمت لإنشاء مسكن أكثر وضوحية وفي أثناء تطوير المدن من أجل زيادة كفاءة التخطيط الحضري . وقد استخدمت مبادئ الوضوحية لتصميم خرائط محطات الحافلات والمترو لتحسين استيعاب طرق التنقل ، وكان لها تطبيقات عديدة بشأن الخرائط التوجيهية في المباني التي ترشد الفرد إلى أجزاء المبنى واختيار الطريق ..

[٢] نظرية سيجال ووايت :

تتركز نظرية سيجال ووايت (Siegal & White, 1975) في تحديد نمو التخطيط المعرفي بخمس مراحل تبدأ بالمرحلة الأولية التي تعرف بأنها نوع من المعرفة الفوتوغرافية (أي كصور لمواقع أو علامات) التي تتم في الذاكرة لنقاط معزولة للنقطة المرجعية (العلامة) في المكان البيئي ثم يستمر نمو المعرفة المكانية على التوالي في المراحل الأربع التالية :

- (١) استخدام أولي لنقاط مفردة (علامات بارزة) من المكان كأهداف لتنظيم الطرق .
- (٢) ظهور أو تنظيم يوحد المعارف المرتبطة بأجزاء معينة متميزة للبيئة.
- (٣) تشكيل نظام موضوعي للنقطة المرجعية أو العلامة (يعبر عنه في البداية بالقدرة على التوجه Orientation) .

(٤) ظهور القدرة على تنسيق الطرق في منطقة نظام النقطة المرجعية (العلامة أو معلم في البيئة يستند إليه الفرد في تحديد الأماكن الأخرى حوله) ذاك (Siegal & White (In): Bonnes & Secchiaroli, 1995, p.140; Golledge, 1987, p.137).

يبدو من هذه النظرية أنها إعادة لرؤية بياجيه التي يظهر فيها أثر الذاكرة البصرية في نمو المعرفة المكانية ، و ارتباط نمو التخطيط المعرفي باكتساب هذه الأفكار المكانية ولكنها توضح ارتباط المتغيرات النمائية والخارجية المتعلقة بالبيئة وارتباط كل مرحلة من هذه المراحل بالأخرى بطريقة هرمية . وبصفة عامة تؤكد على تطور التخطيط للمعرفي من خلال القدرة على تحديد العلامات البارزة إلى معرفة الطريق إلى القدرة على التوجه في المكان وتوزيع الطرق والأماكن.

[٣] - النظرية الفيزيولوجية :

اهتم العديد من الباحثين بالبحث في الأساس العصبي للمعرفة المكانية وما هي الأجزاء

من الدماغ المسؤولة عن إدراك العلاقات المكانية بشكل عام ، وكل نوع من المعرفة المكانية أيضاً مثل إدراك العمق والمسافة وتحديد الاتجاهات وموقع الأماكن ..

فقد توصل أوكيف من خلال أبحاثه على فيزيولوجيا المعرفة المكانية إلى أن هناك أجزاء متعددة في النظام العصبي المركزي للبشر تتمثل مواقع الأشياء في إطار مكاني. وذكر أن الهيبوكامبس والمناطق المحيطة به تمتلك كل المكونات التي سوف تمكنه من العمل كنظام تخطيط مكاني . وفترض أن النظام يحتوي على ثلاثة أنماط من المعلومات يتطلبها تشكيل النظام التخطيطي المكاني : الأماكن، والاتجاهات، والمسافات. ولقد دعم فكرة وجود أجزاء معينة في الدماغ تختص بكل نوع من المعرفة المكانية ، دراسة آثار الأذى في القدرات لدى الحيوانات الذي يظهر في العجز الانتقائي للحيوان في القيام ببعض المهمات (O'keef (In) : Eilan et al., 1999, p.51-52)

وقد ركز أوكيف وناديل على الأساس الفيزيولوجي للخرائط وافترض أن : (١) بعض الخلايا العصبية في الهيبوكامبس تعمل على ترميز المكان بشكل خاص . (٢) وتتمثل شبكات هذه الخلايا المكان الذي يعرفه الفرد في إطار إقليدي من ثلاثة أبعاد . (٣) توجد الخرائط اللفظية أو الخرائط المبنية بالوصف في الجزء الأيسر من الهيبوكامبس لدى البشر ، وفي الجزء الأيمن يوجد مكان الخريطة للمكانية أو ذاكرة الصور . واقترحا وجسود نظامين من المعرفة المكانية ، نظام التصنيف والنظام المكاني Local . حيث يعمل نظام التصنيف على توجيه الفرد في الطرق التي يسلكها باستخدام افتراضات توجيهية وافتراضات إرشادية . تساعد الافتراضات الإرشادية الفرد على تحديد الأشياء والمؤشرات التي تساعد على الاقتراب أو الاحتفاظ بمسافة معينة عنه . أما الافتراضات التوجيهية فتحدد كيف يتحقق ذلك سلوكياً مثل «التفت يمينا ٩٠ درجة». أما النظام المكاني فيشير إلى الأماكن ، وافتراضات المكان هي بنى بصوغها الدماغ التي من شأنها تنظيم المعرفة الخاصة بالأماكن الهامة للفرد ، وافتراضات المكان النموذجية يمكن أن تكون مثل «هذا مكان خطر» أو «ذلك المكان يمثل مصدراً للمياه».....

وعلى الرغم من أن دراسات أوكيف وناديل على فئران حرة الحركة تمت مراقبة أدمغتهم أثناء استكشافهم المكان إلا أن نظريتهما لها تطبيقات على البشر ، منها أن النمو اللغوي يمثل طريقة أساسية للتعبير عن معرفتنا بالمكان للآخرين . كما وجد أن مرضى الزهايمر الذين أصيب لديهم الهيبوكامبس بأذى بالإضافة إلى قطاعات أخرى من الدماغ ظهرت لديهم صعوبة في استخدام الخرائط . واستنتجا أن الهيبوكامبس هو منطقة في الدماغ ترتبط بالخرائط المعرفية فقط ، فقد تبين أن الأفراد الذين أصيب هذا الجزء من دماغهم بتلف يفقدون القدرة على رسم الخرائط للأماكن التي ألفوها ويبدو أنهم يفقدون معرفتهم بكيفية ترتيب

الأماكن التي يعرفونها في الحيز الجغرافي . هذا يعني أن من الواضح أن أجزاء مختلفة من الدماغ مرتبطة بأنواع مختلفة من المعرفة المكانية
(Tolman(In): Dawn & Stea, 1973, p.27-50; Gifford, 1997, p.42).

اكتساب المعرفة البيئية :

هناك اتفاق أولي بين الباحثين على أن التمثيلات البيئية المكانية تتطور عبر ثلاثة مستويات هي :

(١) معرفة العلامة: وتمثل المعلومات حول التفاصيل البصرية لمواقع معينة في البيئة، مع فرض أن هذه المعرفة تأخذ شكل إدراك الأيقونات والصور.
(٢) معرفة الطريق : وتمثل المعلومات حول تسلسل الأفعال المطلوبة لاتباع طريقاً معيناً ، والمسافة من نقطة إلى أخرى .

(٣) معرفة مسحية : وتمثل العلاقات بين المواقع والطرق في البيئة ، ويرمز هذا النمط من المعرفة إلى الخصائص الطبولوجية للمكان ، متضمناً مواقع الأشياء فيما يتعلق بالنظام الكلي والثابت ، وبالمسافات الإقليدية بين الأشياء والشكل الكلي للأشياء المكانية الكبيرة التي لا يمكن أن تحدد من أي منظور مفرد وتدعى أيضاً المعرفة المسحية بمعرفة الشكل ويمكن أن تكتسب من الخرائط أو من خلال وسائل إعلام أخرى (Chen&Stanney,1999, p.676) ، حيث يتم تعلم مواقع العلامات قبل الممرات وعندما يتم تعلم الممرات وأنظمة الممرات فإن موقع العلامات يمكن استرجاعه بشكل أكثر دقة لأن الممرات تقلل عدد المواقع التي يمكن أن تتمثل في علامة . وهذا يبدو متساوفاً مع فكرة أن وظيفة العلامات تتمثل في كونها نقاط ثابتة Anchor point في التمثيلات المكانية للبيئة (Golledg, 1987, p.141) .

هذا يعني أن الفرد يركز على أحد المؤشرات وعادة ما تكون علامة ، وينظم المؤشرات الأخرى حولها مثل الممرات ونقاط التقاطع والأحياء والحواف . كذلك يقوم الأطفال بتشكيل نقاط أولية وثانوية ومن مرتبة ثالثة أيضاً في علاقتها بالممرات ، وهي تشبه النقاط الثابتة ، فالمنزل ومكان العمل ومركز التسوق هي نقاط أولية وبقية المواقع تنشأ من النقطة الأولية والتي يتم الوصل بينها بواسطة الممرات (Bechtel, 1997, p.151). وفي التمثيل المسحي الذي يتحقق عندما تتناظر الأماكن والطرق في الواقع مع التمثيل الذهني لها ، وبما أن الطريق يتحدد ، بشكل عام ، بوجود بداية ونهاية وهي عادة من نوع العلامات وهي التي تثبت الشكل المعرفي للطريق وتتمتع تعلمه وتحدد القطاع الخاص به (Golledg, 1987, p.142) لذا يعتقد أن معرفة العلامة هي المكون الأساسي للمعرفة المسحية ولمعرفة الطريق ، وتعتبر معرفة الطريق هي الأكثر فائدة عند التوجه بين موقعين ، أما إذا كانت البيئة غير مألوفة

وبالتالي معرفة الطريق غير متوفرة ، فإن المعرفة المسحية هي المعلومات الوحيدة التي يمكن أن يعول عليها في إيجاد الطريق إلى الهدف المقصود (Chen&Stanney, 1999, p.677)

ولكن على الرغم من أن بياجيه اعتقد أن استراتيجيات الأطفال لحل المشكلة المكانية تختلف عن تلك الخاصة بالراشدين ، فإن الكثير من الباحثين خلصوا إلى أن الخرائط المعرفية للراشدين في البيئات الجديدة تطورت أيضاً من معرفة الطريق إلى المعرفة المسحية بطريقة كبيرة الشبه بالتطورات المرتبطة بالعمر عند الأطفال. ولكن عندما يصبح الراشدون أكثر ألفة ومعرفة بالبيئة فإن خرائطهم تنمو أولاً من الممرات المعروفة ونقاط التقاطع والعلامات وتضاف الأحياء لاحقاً (Bell et al., 1990, p.74; Bell et al., 1996, p.95)

ويمكن أن تتعرض المعرفة المكانية للتشويه أثناء تمثل العلامات أو الممرات في الذاكرة ، والذي يمكن أن يستمر لزمان طويل ويمكن أن يرجع إلى المستويات المنخفضة من الدافعية للتعلم ووجود مهمات مشوشة أو متزامنة في الحدوث معها تعوق اكتساب المعرفة ، أو نمط طريقة التنقل المستخدمة للتوجه في البيئة بالإضافة إلى أن الأفراد الذين يملكون قدرات مكانية عالية يكتسبون المعلومات المكانية بشكل أسرع (Golledge, 1987, p.141)

بالإضافة إلى ما سبق فإن التحريفات يمكن أن تحدث لدى كل الأفراد بسبب النسيان . ويبدو أن البحث في مجال اكتساب المعرفة المكانية البيئية ما يزال بحاجة إلى الكثير من الجهود ، نظراً لاختلاف بعض المتظرين على أسس أو مراحل نمو القدرة المكانية . ولكن بصفة عامة يبدو من المقبول أن نمو المعرفة بالمكان تتقدم من العلامات إلى الطريق إلى المعرفة المسحية ، وأساسها تمثل العلامة .

العوامل المؤثرة في الإدراك البيئي والمعرفة البيئية :

أوضحت نظريات الإدراك البيئي أن الإدراك ليس مسألة استجابة الفرد البسيطة للإحساسات المشكلة بواسطة طاقة المثيرات الواقعة على الأعضاء الحسية. ولكنها عملية معقدة تخضع أيضاً للسياق الثقافي والعوامل الاجتماعية المختلفة التي تنتج فروقاً بين الأفراد في إدراك المثير نفسه ، بالإضافة إلى الفروق الفردية والخبرات والأهداف التي يمكن أن يكون لها أثر عميق في النتيجة النهائية لمعالجة المعلومات من العالم حولنا . ويعني ذلك تعدد العوامل المؤثرة في عملية الإدراك البيئي

أ- العوامل الشخصية

ويقصد بها العوامل التي ترتبط بالشخص المدرك ، ومن أولى هذه العوامل التي يمكن

أن تسهم في الفروق الإدراكية هو الجنس : فقد أظهرت الإناث التزاماً بالقيم الأيكولوجية أكثر من الذكور الذين نظروا إلى البيئة من منطلق السيادة البشرية عليها. في المقابل تفوق الذكور في المعرفة البيئية على الإناث . أما التعليم والتدريب : يرى جيفورد أننا نتعلم طريقة المشاهدة التي تميز ممارساتنا المختارة ويرى أن التعليم المتخصص هو مفتاح فروق فردية في الإدراك البيئي . فالمهندسون المدنيون ينظرون إلى الطرق والسدود فقط فهي ميلها وانحدارها ..، ويرى المعماريون الشكل والإضاءة واللون بينما يرى الناس الآخرون الجدران والأرضيات والأبواب . كما سجلت العديد من الدراسات الفروق بين اختصاصي التصميم وغير المختصين في التقديرات البيئية . (Gifford, 1997, p.22)

لذا فإن كمية الانخراط في البيئة أو التعرض لبيئة ما ، هو عامل هام في اكتساب المعرفة المكانية . وقد أظهرت الدراسات التي قامت على القاطنين بشكل مؤقت والقاطنين الدائمين أن النشاط في المكان يحسن الإنجاز في اختبارات المعرفة المكانية ، كما يؤثر طول مدة الإقامة في المكان إيجابياً في الألفة به وفي التخطيط المكاني وإدراكه . بالإضافة إلى الألفة بالمكان كانت هناك دراسات حول أثر المستوى التعليمي في المعرفة البيئية فقد وجد مور أن للتعليم الأثر الأكبر في التخطيط المعرفي (Moore, 1979, p.50).

ويرتبط بموضوع التعليم والتدريب متغير " العمر " الذي يتيح فرصة أكبر للفرد للتفاعل مع البيئة وزيادة معرفته بها . وبصفة عامة يمكن القول بوجود علاقة موجبة بين العمر والمعرفة البيئية والتي تعود في جزء كبير منها إلى النمو المعرفي للفرد الذي يتقدم بسرعة في سنوات الطفولة وما إن يصل الفرد إلى سن الرشد حتى يكون قد اكتمل نمو هذه القدرات تقريباً . ولكن هل تتغير هذه القدرات مع التقدم في العمر ولكن بعضها الآخر لم يجد هذا . وربما يفسر هذا التناقض أن بعض القدرات المكانية تتدهور مع التقدم في العمر ، وبعضها الآخر يبقى على حاله أو قد يتحسن ، أو أن طريقة تفكير كبار السن بالمكان تختلف عن الشباب . مثلاً يمكن أن ينجز كبار السن بشكل أفضل في الأماكن التي يألفونها والهامة بالنسبة لهم . ولكنهم يتعلمون معلومات مكانية جديدة ببطء أكبر من الشباب حيث يكون لديهم صعوبة أكبر في تعلم طرق سير جديدة أو تذكر التخطيط العمراني للأماكن . هذه التغيرات ربما تكون دليلاً على التغيرات السلوكية والفيزيولوجية مثل انخفاض القدرة على التنقل والقدرة الحسية أيضاً .

ومن العوامل الخاصة بالفرد أيضاً الخصائص النفسية التي يمكن أن تلعب دوراً في الفروق الإدراكية . مثلاً ، فقد وجدت علاقة بين إدراك المخاطر البيئية المرتبطة بحرق القمامة وبين ارتفاع درجة الفرد على الأعراض النفسية كالشعور بالقلق والاكتئاب . أما

القدرات المكانية وقد أثبتت دراسات عدة وجود علاقة موجبة بين قدرات مكانية محددة والمعرفة البيئية ، مثل السرعة الحركية الإدراكية والذاكرة المتسلسلة ، والقدرة الرياضية والقدرة البصرية المكانية والإحساس بالاتجاه. كما اتفقت الدراسات على وجود علاقة بين الذكاء (كقدرة عامة) والخريطة المعرفية .

ب- العوامل الثقافية

إن الإدراك يحدث في سياق ثقافي يؤثر فيما نراه وفيما لا نراه في بيئتنا. مثلاً ذكر العالم الأنثروبولوجي تيرنبول (Turnbull, 1961) في خبراته مع أقزام بامبيتو فسي إقليم الكونغو الذين يعيشون في غابات مطيرة كثيفة ، وأنهم نادراً ما يعيشون خبرة رؤية مشاهد من على بعد يزيد على ٣٠م، أنه عندما رافقه أحد الأقزام خارج الغابة إلى سهل واسع وشاهداً قطعاً من الثيران من على بعد عدة كيلومترات، سأل القزم «أي نوع من الحشرات تلك ؟» وأوضح تيرنبول أنها قطعان من الثيران ، و سخر القزم من الفكرة

(Russell & Arkelin, 1995, p.81; Bonnes & Secchiarioli, 1995, p.36; Gifford, 1997, p.22; Ross, 1966, p.61).

هذا يظهر أثر الخبرة في إجراء التناسب بين الحجم والمسافة حيث يتعلم الفرد من خلال الخبرة أن يقدر الحجم الحقيقي للشيء على الرغم من تغيره بسبب المسافة وعن حجم الصورة على شبكة العين . بالإضافة إلى وجود فروق بين الثقافات في قابلية التأثر بخداع ميلر - لير Muller-Lyer ، وخداع متوازي الأضلاع لساندر Sander ، و الخداع الأفقي الرأسي Vertical-Horizontal ، لـ: أوبل Oppel وقد أرجع الباحثون هذه الفروق إلى الفروق الثقافية في نظم الاستدلال البصري المتعلمة في الاستجابة للعوامل البيئية والثقافية المختلفة .

فالأماكن الريفية البسيطة حيث الخطوط المنحنية والمندورة التي تميز المنازل والمشاهد البيئية . تجعل الريفيون يألّفون المشاهد التي تجعل الطرق تبدو أقصر ، لقد تعلموا أن يعوضوا عن ذلك بزيادة طول الخطوط التي تشكل الصورة العمودية على الشبكية لهذا هم عرضه للخداع الأفقي العمودي (Ross, 1974, p.61).

وجدير بالذكر أن هذه الدراسات قد اعتمدت بشكل أساسي على البصر ، بينما يتعامل الأفراد مع البيئة مستخدمين حواسهم المختلفة مثل : البصر والسمع والشم ...، مثلاً عند دراسة أثر السكن في المدينة لا نستطيع أن نفصل المسكن عن الأصوات البيئية والروائح التي تشكل مصدر إزعاج وتلوث للسكان ، كذلك الأمر في الريف يعتمد الفرد كثيراً على حواسه في تعامله مع البيئة الطبيعية . أما بالنسبة للثقافة الفرعية متمثلة بالفروق الاجتماعية الاقتصادية ، فقد دلت الدراسات على تفوق الأفراد الذين ينتمون إلى الثقافة ذات المستوى الاجتماعي

الاقتصادي الأعلى في إدراكهم للبيئة وفي الخريطة المعرفية . ومع ذلك لا نستطيع القطع بهذه الفروق نتيجة قلة الدراسات في هذا المجال ولكن يمكننا القول أن الفروق الثقافية هي فيزيقية أكثر منها عرقية . فالبيئة التي نشأ فيها الفرد وخصائصها المختلفة تترك أثراً واضحاً على القدرة المكانية لديه . وهذا ما سنعرضه في الفقرة التالية .

ج- العوامل الفيزيائية

هناك عوامل فيزيقية متعددة تؤثر في إدراك الأفراد للبيئة بشكل عام أو بعض موضوعاتها، مثلاً : للألوان دور هام في إدراك الحجم النسبي ومظهر المكان وجمالياته أيضاً ، حيث تجعل بعض الألوان المكان يبدو أكبر مما هو عليه وبعضها يجعله يبدو أصغر (مثلاً الأبيض يوحي باتساع المكان) وتجعل بعض الألوان المكان يبدو دافئاً وحميمياً وبعضها يجعله بارداً . وللألوان أثر محدد في مزاج الملاحظ فبعضها مثير وبعضها يدعو للاسترخاء ، أيضاً قد يؤدي عدم الانسجام في الألوان إلى مشاعر عدم الثبات والاضطراب أو تكبير المزاج .

<http://www.usace.army.mil/usace.docs/design.guides/dg1110-1221c-2.pdf>

وفي دراسات استعرضتها هيلن روس Helen Ross، تبين أن الأشياء تبدو أكبر تحت الماء وأنها تبدو أصغر من على بعد ومع ذلك تترك عقلياً بالحجم الطبيعي ، أيضاً الضباب يجعلنا نعتقد أن الأشياء في البيئة مثل الأشجار والجبال بعيدة أكثر مما هي عليه في الواقع أو أكبر . (Ross, 1974, p.56-62).

وتتأثر إدراكات الناس في شوارع المدن بالسياق الفيزيقي عندما يتعرضون للراجلون للكثير من ضوضاء المرور فإن حقلهم الإدراكي يضيق لأنهم في الواقع ينظرون أمامهم مباشرة ويتجاهلون الكثير من المعلومات القادمة من محيطهم الخارجي أثناء السير . وحول أثر السياق البيئي في إدراك الناس أظهرت نوعية بيئة الغرفة تأثيراً في إدراكات الآخرين ، فعندما وضع المشتركون في غرفة شبه مغلقة وفوضوية (مع عدم لفت انتباههم إلى نوعية الغرفة) وطلب منهم أن يقدروا الصحة النفسية لأشخاص من خلال الصور، تبين أن أحكام المشتركين في الغرف الفوضوية على الأشخاص في الصور أنهم أقل في الصحة النفسية أكثر مما كانت عليه الأحكام في الغرف المرتبة . وفي دراسة أخرى تبين أن هذه الأحكام تعتمد على توقعات المدرك للنوعية الجمالية للغرفة (Gifford, 1997, p.24).

وهناك ملامح فيزيقية للمكان تلعب دوراً في تفسير تعلم البيئة أو تعويقه ، فقد كان هناك اتفاق بين الباحثين في المعرفة البيئية على عدد من العوامل المؤثرة في إيجاد الطريق والخريطة المعرفية منها التمايز Differentiation وهو الدرجة التي تبدو بها أجزاء البيئة

متباينة أو متشابهة ، فالمساكن الجامعية مرتفعة التمايز على سبيل المثال تكون مختلفة التضاريس وتضم نوعية واسعة من المباني .. ومن السهل التنقل عبر البيئة الأكثر تمايزاً من البيئة التي يبدو فيها كل شيء متشابهاً ، وتشير درجة التناول البصري Visual access إلى المدى الذي يمكن أن ترى فيه الأجزاء المختلفة للموقف من نقاط أخرى وتيسر الدرجة المرتفعة من الاقتراب البصري عملية إيجاد الطريق أيضاً. أما تعقيدية التصميم العمراني للمكان التي تعكس كمية وصعوبة المعلومات التي ينبغي التعامل معها للتحرك في البيئة تزيد من صعوبة إيجاد الطريق . حيث وجد أن تخطيط الأرضية المعقد يزيد صعوبة إيجاد الطريق داخل المباني وقد وجد أيضاً أن العلامات البيانية (المصورة Graphic) أو المجسمة (البارزة) التي توضع في التقاطعات الرئيسية داخل مبنى معقد تحسن إيجاد الطرق لدى معظم الناس. (ماك أندرو، ١٩٩٨، ص ٨٥-٨٦; Bell et al., 1996, p.102).

كما يؤثر عدد الانعطافات ونقاط التقاطع في الحكم على المسافة ، فكلما زاد عددها زاد حجم المسافة المقدرة. أيضاً يؤدي وجود عوائق فيزيائية في المكان إلى زيادة تقدير المسافة ويؤثر ترتيب عناصر البيئة في إدراك المسافة فقد أخذ الطلبة أثناء الحكم على زوجين من المباني المتقاربة وقتاً أطول كلما زاد التقارب بينهما (Evans & Pezdek, 1980). وللعلامات الأرضية أهمية خاصة في إيجاد الطريق وفي حال عدم توفرها تظهر هنا أهمية المهارة والخبرة والعوامل الفردية الأخرى (Chen & Stanney, 1999).



الإدارة النفسية - الاجتماعية للمكان

الفصل السادس الإقليمية



لقد أدت التشوهات في بعض التعاملات العامة للإقليمية^(*) (أو الملكية الخاصة) Territoriality (Adrey, 1966)، إلى أن يفكر الكثير من الأشخاص في السلوك الإقليمي Territorial Behavior على أنه شيء سيء يسبب الصراع والعدوان. وفي الحقيقة فإن العكس هو الصحيح تماماً. تخيل أنك تستطيع إيجاد مجتمع بدون نظام للسلوك الإقليمي، حيث يكون هناك لكل شخص حرية متساوية مع الآخرين في الدخول إلى أي مكان. ويمكن للغرباء أن يتجولوا بحرية في حجرة نومك وحمامك، ويطردونك من المقاعد في الأماكن العامة، وتقود سيارتك عندما يريدون. في هذه الحالة لن يكون هناك وجود للأسوار، ولن تكون السرقة جريمة، ويصبح صانعو الأقفال مهددين بعدم العمل. لن يكون لك أي حق في أن ترث ممتلكات والديك، ولن تكون هناك طريقة مؤكدة للعثور على الأشخاص في أماكن محددة. وباختصار فإن مثل هذا المجتمع سيكون فوضوياً لا عمل به ولن يستطيع البقاء.

وعلى عكس الحيز الشخصي الذي يتغير مع الشخص زيادة وتقصاً طبقاً للموقف، نجد أن الإقليمية تمثل المواضع الجغرافية الثابتة في موقع محدد، كما تشير الإقليمية إلى هذه السلوكيات التي يستخدمها الشخص للتحكم في الأنشطة التي تتم في هذا الحيز.

وقد اقترح الباحثون ما يزيد عن اثني عشر تعريفاً لمفهوم «الإقليمية». وتختلف جميعها في التأكيد على السلوكيات التي يمكن ملاحظتها مثل الحدود الإقليمية والدفاع (Becker, 1973; Sonner, 1969). وذلك على عكس ردود الفعل الأكثر وجدانية أو معرفية للحيز، والتي تكون أقل في إمكانية الملاحظة المباشرة (Altman, 1975; Brower, 1980; Malberg, 1980).

وبينما تعد جميع التعريفات مفيدة نجد تعريفاً مشابهاً للتعريف الذي اقترحه سالك Sack (١٩٨٣)، هو الأقرب للاستخدام في هذا الفصل: تشير

الإقليمية إلى محاولة التأثير أو التحكم في أفعال الآخرين من خلال فرض السيطرة على منطقة جغرافية معينة والأشياء التي توجد فيها.

السلوك الإقليمي لدى الحيوانات :

- أصول الإقليمية لدى الحيوان :

بعض الحيوانات مثل النمل والطيور السوداء تكون لها أقاليمها الخاصة ذات التنظيم الاجتماعي، وتدور حولها أو في نطاقها حيوانات أخرى (مثل الفئران) تكون أكثر مرونة في إقليميتها، ويمكنها أن تسلك طرقاً أخرى في تنظيم عالمها الاجتماعي، عندما تعوقها الظروف عن الدفاع بكفاءة عن الأرض. وعلى الرغم من أن هناك اتفاقاً على أن السلوك الإقليمي شائع أو منتشر في مملكة الحيوان، فما زال العلماء يختلفون على ما يمكن اعتباره بيولوجياً يقوم على الغريزة من هذا السلوك.

ومن أوائل العلماء الذين درسوا الإقليمية لدى الحيوان بصورة جادة علماء البيئة (*) Ecologists، والذين اتخذوا اتجاهاً تطورياً واضحاً لعملهم (Lorenz, 1966; Wilson, 1975; Wynne - Edwards, 1962)، ويصف هؤلاء الباحثون السلوك الإقليمي على أنه يتشكل بقوى تطورية تظهر في شكلها الحالي وظيفته لضغوط الاختيار التي تواجهها الأجناس خلال تاريخها التطوري. وهكذا ترث الحيوانات التزعة أو الاستعداد لتسلك بشكل إقليمي، لأن الحيوانات الفردية التي فعلت ذلك في الماضي أنتجت سلالة أكثر نجاحاً من الحيوانات الأخرى التي لم تفعل. وهذا الوضع يعد أكثر إثارة للجدل بين علماء نفس البيئة، لأنهم مازالوا غير قادرين على الاتفاق على أصول الإقليمية. ويشعر تيلور Taylor (١٩٨٨) بارتياح مع المنظور التطوري لنمو الإقليمية لدى الإنسان والحيوان. بينما يرى براون Brown (١٩٨٧) أن سلوكيات الحيوان الإقليمية أكثر مرونة وتقوم على التعلم، وأن فكرة «الغريزة الإقليمية» Territorial Instinct فكرة بلهاء أو ساذجة من الصعب تقبلها.

والوضع الذي تم الأخذ به هنا سوف يشابه ذلك الذي اتخذته علماء

(*) دراسة العلاقة بين الكائنات الحية وبيئتها. (المترجم).

البيولوجيا الاجتماعية، مثل ولسون Wilson (١٩٧٥)، وباراش Barash (١٩٨٢)، فالإقليمية هي نسق أو منظومة السلوكيات الاجتماعية الذي تطور، لأنه كان قابلاً للتكيف. وقد يختلف أعضاء أفراد الأجناس الإقليمية في قوة تكويناتهم الجينية أو الوراثة التي تمكنهم من السلوك بطريقة إقليمية، ولكن يشترك جميع أعضاء النوع في الأسس البيولوجية لهذه السلوكيات.

وظائف الإقليمية لدى الحيوان:

بينما يكلف الحفاظ والدفاع الإقليمي الحيوان وقتاً وطاقة، فإن هناك مزايا واضحة جداً للنظام المحدد للإقليمية بشكل جيد بالنسبة للأفراد والأجناس بوجه عام. فعلى سبيل المثال من خلال تحديد أو ترسيم حدود الأقاليم التي توجد فيها، والإشارة لوجود أعضاء آخرين من أجناسهم، يمكن أن تقلل الحيوانات من عدد المواجهات أو الصدامات بينها وبين بعضها البعض، والتي تؤدي إلى الصراع. ودائماً تعلن القرود الأمريكية النابحة والطيور المغردة عن مواقعها بأصوات عالية، والتي تنتشر لمسافات كبيرة، لكي يعطوا لأنفسهم فرصاً كبيرة لتجنب المواجهة. ويتبول الذئاب والعديد من الحيوانات الأخرى أكلة اللحوم في المواقع الرئيسية بالإقليم الخاص بها، كما تقوم الدببة بمد طولها إلى أقصاه لكشط أو حك الأشجار لكي تنبذ عن حجم إقليمها وحدوده.

وعندما تقع المواجهات، توفر الأنظمة الإقليمية عوامل أمان أخرى ضد الجروح والإصابات الخطيرة التي تنجم عن الشجار أو الصراع. وربما يعد أهم شيء في هذا هو الظاهرة المعروفة باسم «تأثير أولوية ملكية المكان Priorresidence Effect». ويحدث ذلك عندما تفرض الحيوانات سيطرتها في مكان إقامتها على المتدخلين في إقليمها، فإذا رأيت كلباً صغيراً يطرد كلباً كبيراً من فئته، فإنك قد لاحظت هذه الظاهرة.

وإذا كان الحيوان طائراً صغيراً أو كلباً فإن هناك ميزة محددة تتلازم مع كون الحيوان على أرضه، وتنقر الدجاجة طائراً غريباً في قفصها أكثر من احتمال نقرها له في قفص غريب (Rajecki, Nerenz, Freedenburg & McCarthy).

(1979). كما أن السمكة في حوض اعتادت عليه تهيمن على الأسماك الأخرى التي جاءت بعدها. وعندما توضع سمكتان من نفس النوع في نفس الحوض معاً في نفس الوقت، تأخذ كل منهما جزءاً من الحوض لتسيطر عليه وتعتبره منطقة خاصة بها. فمن الواضح أن هناك حدوداً إقليمية معروفة بين منطقتين (على الأقل يدركها السمك بسهولة). لأنه عندما تتجول سمكة في مساحة سمكة أخرى، تقوم بمهاجمتها فوراً وتطاردها إلى حدودها. وخلال المطاردة تبالغ في المهاجمة كثيراً وتتوغل، وفجأة تجد نفسها في أرض السمكة الأخرى. عند هذه النقطة يغير السمك اتجاهه، وتصبح السمكة الهاربة سمكة مهاجمة، وتعود المهاجمة ثانية حتى يستقر السمك في النهاية وجهاً لوجه في كل من الجانبين للحدود.

وهكذا لا تزيد الإقليمية من العدوانية، ولكنها في الواقع تقلل من الصراع عن طريق منع الحيوانات من الدخول في أرض الآخرين دون توقع. وعن طريق إعطاء مثل هذه الميزة الواضحة للحيوانات في إقليمها فإن وقوع الشجار يكون نادراً. ويدعم البحث الحديث فكرة تأثير أولوية ملكية المكان، والتي قد تحدث لدى الإنسان. ولوصف هذا البحث انظر المربع التالي.

تأثير أولوية ملكية المكان لدى الكائنات البشرية

هناك دليل قائم على أن الحيوانات في إقليمها يكون لها ميزة أو أحقية في المواجهات مع الحيوانات الأخرى. ولكن أخيراً أكد علماء النفس أن هذا قد يكون الحال مع الإنسان. وتكشف البحوث بشكل متسق عن العلاقة بين طول الوقت الذي قضاءه الناس في حيز ما والدرجة التي يشعرون فيها بملكيتهم والتحكم فيه، والتي تؤدي إلى شعور كبير بالأمان والسيطرة أو التحكم.

وغالباً ما يكون المبحوثون في التجارب التي تتناول تأثير أولوية ملكية المكان طلاباً تحت التخرج، يقومون بعمل أو بحوار في حجرتهم أو بحجرة غيرهم. وغالباً ما يشعرون وهم في غرفهم بأنهم أكثر راحة، وأكثر نجاحاً في أعمالهم، ويسيطرون على الحوار أكثر من الزائرين لهم (Conroy & Sundstrom, 1977; Martindale, 1971).

وقد اكتشف تيلور ولاني Taylor & Lanni (١٩٨١) أن السكان الذين يكون تحكمهم أقل من المعتاد، يميلون إلى السيطرة في المناقشات التي تتم بين ثلاثة أشخاص إذا كانوا في حجرتهم. واكتشف هاريس وماك أندرو Harris & McAndrew (١٩٨٦) أن الناس يمكنهم مقاومة توقيع الطلبات غير المرغوبة بدرجة أكبر عندما يكونون في حجراتهم منها عندما يكونون خارج حجراتهم. وأخيراً ذكر تيلور (١٩٨٨) أنه حتى في قضية «بيتر بان» Peter Pan، كان المكان الوحيد الذي استطاعت فيه «ويندي» مقاومة اقتراحات «بيتر» هو حجرتها.

وتظهر الكثير من الدراسات أن الفريق صاحب الأرض يكون له ميزة أكبر من الفريق الزائر في المنافسات. وينطبق هذا تماماً على الألعاب التي تتم في أماكن مغلقة مثل كرة السلة (Greer, 1983; Schwartz & Barsky, 1977; Silua & Andrew, 1987). وتشير نتائج دراسة حديثة لما يزيد عن ٢٠٠٠ مباراة من مباريات المصارعة بين طلاب المدارس - إلى أن هذا أيضاً حدث في الرياضيات الفردية (McAndrew, 1992). وبينما تعتمد قوة ميزة المكان أو الموطن على عدة عناصر مثل طول الوقت الذي استغرقه الفريق الزائر في السفر (Cournya & Carron, 1991) - يرجع الأثر إلى أن أحد الفريقين يلعب في مكان اعتاد عليه. ويكون لدى الرياضيين مشاعر أكثر شدة بالتحكم والسيطرة عندما يلعبون أمام جمهور مؤيد لهم. ومع ذلك فعندما يزيد الضغط للفوز كما يحدث في مباريات البطولة، فقد يؤثر اللعب أمام جمهور الفريق نفسه على أدائه سلبياً. وتلعب الفرق بمستوى أضعف في موطنها خلال البطولات منه خلال الموسم العادي (Baumeister & Steinhilber, 1984; Heaton & Sigall, 1989).

والوقت الوحيد الذي يبدو فيه السلوك الإقليمي مرتبطاً بالعدوان الزائد يكون في أنواع الحيوانات التي تمتلك نظام الليك للإقليمية Leck System of Territoriality، حيث توجد المواجهات العدوانية بين الذكور من أجل ملكية الأقاليم قبل موسم التزاوج (Davis, 1982; Gould, 1982). والليك هو الموقع الذي يتقابل فيه الذكور ليتنافسوا من أجل الأقاليم أو الملكية. وبينما تظهر الكثير من الحيوانات هذا الشكل من السلوك الإقليمي، فإن غزلان السهول الإفريقية مثل

غزلان أوغندا تعد أفضل مثال لكيفية عمل هذا النظام، فقبل أن تبدأ الإناث دورتها النزوية Estrous Cycle يترك الذكور قطيع العزائب الذي يعيشون معه باقي العام، ويتجمعون في جماعات تقليدية لظهور الليك. عندئذ يبدأ الذكور في الصراع في محاولة للحصول على الأقاليم، والتي تكون في الغالب مناطق صغيرة جرداء نادراً ما يكون قطرها عدة أمتار. ويشمل الصراع الذي يحدث من أجل هذه الأقاليم قتالاً بالقرون والرفس وعمل ضوضاء، ولكن نادراً ما تنتج إصابات خطيرة لدى أي من المتقاتلين. ويقف الفائزون زاهين بنصرهم في أقاليمهم، بينما يرحل الخاسر ويترك المكان ليتحدى حيواناً آخر. وتزور الإناث منطقة الليك للتزاوج ثم تتجه نحو الذكور الذين يمتلكون أقاليم مركزية على الليك. وهكذا فإن الذكور الذين لديهم أقاليم فقط سوف يمكنهم الاتصال بالإناث، والذكور الذين لديهم أقاليم أو مناطق أكثر مركزية وجاذبية سوف يكون لديهم عدد أكبر من الفرص للتزاوج. وهذا النظام يضمن أن أكثر الذكور قوة وصحة ستكون فرصتهم للتزاوج أكبر. ويضمن نظام الصراع الطقوسي قلة حدوث الإصابات وحالات الوفاة. كما يساعد هذا النظام على المحافظة على الصغار، ويضمن فرصة للحيوانات عديمة الخبرة من التزاوج في المستقبل (Alcock, 1984).



صورة (٦-١ أ، ب، ج): غزلان أوغندا تتصارع على منطقة التزاوج.

وبالإضافة إلى دور هذا النظام في تقليل العدوانية وتنظيم التزاوج، فإن الإقليمية توفر مزايا أخرى للحيوانات، فهي تعمل على توزيع الحيوانات حتى لا يكون هناك عبء على موارد المياه والطعام. كما تساعد على التخلص من النفايات، وتقلل من معدل انتشار الأمراض.

السلوك الإقليمي للإنسان:

بينما يختلف العديد من العلماء السياسيين، فإن تيلور Taylor (١٩٨٨) يؤكد أن السلوك الإقليمي لدى الإنسان يمكن مناقشته بشكل ذي معنى في ضوء علاقته بالأفراد والجماعات الصغيرة، وليس على نطاق واسع مثل الأسم أو الشعوب. ويعد هذا حقيقةً بشكل خاص إذا تمت مناقشته في إطار تطوري Evolutionary، والذي يفترض أن الإقليمية لدى الإنسان كما هي موجودة الآن قد تشكلت بالتطور أو التحول الثقافي والبيولوجي عبر ملايين السنين. ولا يتطلب هذا المنحى أن نفكر في الإقليمية لدى الإنسان على أنها شيء ثابت تماماً وغير مرن ومحدد بيولوجياً، ولكننا فقط لدينا ميل فطري لإظهار السلوك الإقليمي بشكل ما، لأنه ثبتت كفاءته في الماضي. ويمكن أن نجد مناقشة أكثر استفاضة للأصول التطورية للإقليمية لدى الإنسان في كل من مالبرج Malberg (١٩٨٠)، وكنج King (١٩٧٦، ١٩٧٦ ب).

وتتنوع الثقافات المختلفة بشكل كبير في أنماط مشكلات الخصوصية الإقليمية التي تواجهها، وبالتالي يمكن أن تكون الأشكال النوعية التي تأخذها الإقليمية في حياة الإنسان الذي يعيش في مجتمعات مختلفة غير متشابهة تماماً. مع ذلك فإن لجميع المجتمعات طرقاً لوضع الحدود المعترف بها، ومعاقبة المعتدين، والتفاوض على الحقوق الإقليمية، وكان هذا حقيقةً خلال تاريخ البشر.

وقد كان اليونانيون القدماء والرومان حساسين بدرجة كبيرة للحدود التي تفصل بين الملكيات الخاصة. وكان للرومانيون إله اسمه تيرمينوس Terminus، وهو إله حدود الأرض. وكانت أحجار تيرميني Terminus stones تنحت على شكل الإله تيرمينوس، واستخدمت لفصل الحقول بعضها عن بعض ووضع حدود الملكية، ومن كان يعيث بهذه الأحجار تتم معاقبته بشدة طبقاً لديانتهم والقوانين المدنية. على سبيل المثال، كان الفلاحون في روما القديمة، الذين يحرثون تحت أحجار تيرمينوس، يُحرَقون أحياء مع الحيوانات التي حرثت لهم الأرض (Stilgoe, 1976).

وفي الثقافات الغربية يتم عقد الاحتفالات السنوية التي تذكر بموقع البلدة وخطوط الملكية الخاصة. وقد مهدت هذه الاحتفالات لظهور الأسوار، والمسوح، وتصنيف الأرض أو حفظها. والبعض من أعيادنا الحالية، خاصة عيد جميع القديسين هالووين «Halloween» يعتقد أنها بقايا هذه التقاليد القديمة للحدود. وفي الحقيقة، يعتقد البعض أن عفريت المصباح «جاك - لانترن» هو شبح قديم كان يزيل العلامات الأرضية للأبد، وقد حكم عليه أن يسكن خطوط الحدود (أو الخطوط الفاصلة) (Stilgoe, 1976; p.14).

واليوم نجد أن العديد من رياضاتنا الشعبية ذات الجمهور الكبير تعكس التوجه الإقليمي القوي لدى الإنسان. فكرة القدم، وكرة السلة، والهوكي تتطلب جميعها الدفاع الناجح عن الإقليم الأولي (الهدف) ضد هجمات الخصم. واللغة المستخدمة لوصف ما يحدث في هذه الرياضات (على سبيل المثال، امتلاك، سرقة، تسلل، منطقة محايدة، في كرة القدم «لغة إقليمية») وتجعل رياضات الإقليم أو الأرض استعارة واضحة. حتى في البيسبول تصارع الفرق للسيطرة على طرق القاعدة، ويشار إلى أهم المناطق في الملعب بكلمة «بيت» (home).

بعد أن قدمنا هذه الخلفية المختصرة عن الجذور الأولى للسلوك الإقليمي لدى الإنسان، دعنا نفحص الطريقة التي تعمل بها اليوم.



صورة (٦-٢): عفريت المصباح Jack-O'-Lantern يمثل الشبح الذي يتلاعب بالعلامات الإقليمية، محكوم عليه للأبد أن يسكن خطوط الحدود.

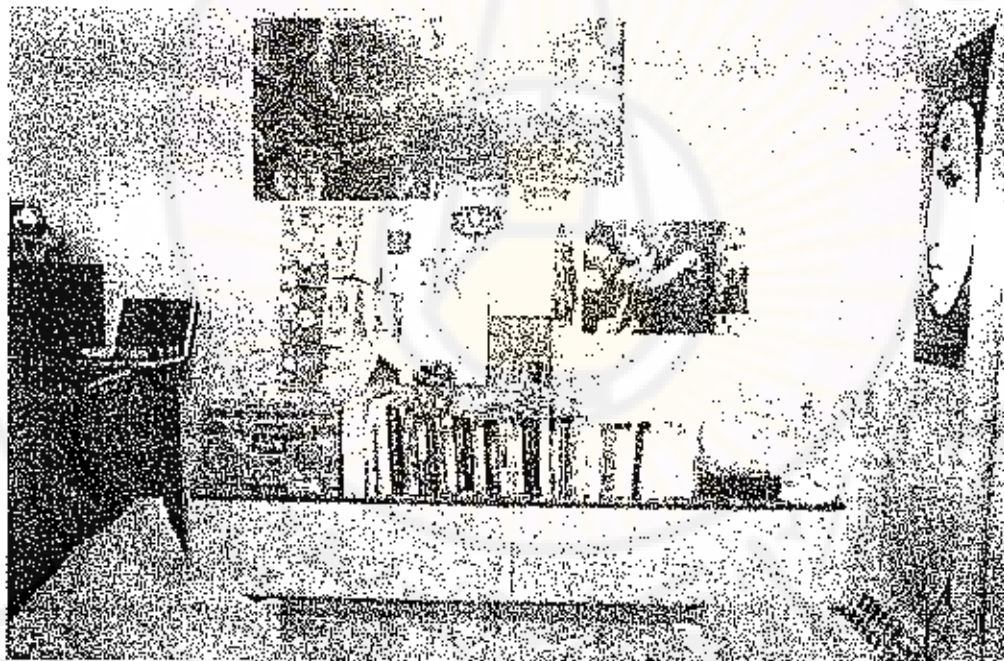
وظائف الإقليمية لدى الإنسان:

إحدى الوظائف الكبرى للسلوك الإقليمي للإنسان هي تنظيم الخصوصية والحفاظ عليها، ويبدو أن وجود مكان يستطيع أن ينظم الإنسان فيه الخصوصية، وأن يسيطر على الأنشطة الأخرى، جزء أساسي من التوظيف الصحي والسوي لدى معظم الناس. وقد يؤدي عدم القدرة على الحصول على مثل هذا المكان أو الحفاظ عليه إلى ضغط نفسي Stress ومشكلات أخرى (Lyman & Scott, 1967)، ففي معظم المجتمعات يعد كون الفرد «بلا بيت» أو «مشرداً» أعظم بلاء قد يصاب به، كما أنه يضع الفرد مباشرة في أسفل مدرج السلم الاجتماعي. وتعد القدرة على التعرف على الأشياء الحقيقية والأماكن التي تنتمي إلى الفرد، مرحلة مهمة في الارتقاء الاجتماعي لكل طفل (Furby, 1978). كما أن هناك دليلاً على أن ارتباط الفرد بالأرض يزداد مع العمر (Rowles, 1980) ويُظهرُ البحث بصورة متسقة أنه ينمو لدى الناس إحساس بالملكية على بعض الأماكن، حيث تتم أنشطتهم فيها بشكل منتظم، وتزايد مشاعر الإقليمية هذه بزيادة الفترة التي يقضيها الفرد في هذا المكان. وقد ذكر سومر Sommer (١٩٦٩) أنه عندما يجلس فرد على متصلة مطعم للوجبات السريعة لمدة خمس دقائق ويقرب منه شخص آخر غريب، ويطلب منه أن يفسح له مكان، فإنه سواء كان ذكراً أو أنثى سوف يتحرك، مع تقديم الاعتذار غالباً. أما عندما يقرب شخص من ذلك الفرد بعد جلوس طال لمدة ٢.٥ دقيقة فإنه يرفض أن يتحرك. وبالمثل أجرى إيدني Edney (١٩٧٢) دراسة لمعرفة ما إذا كان هناك أي اختلافات بين الناس الذين يظهرون علامات إقليمية عدوانية Aggressively Territorial Markers في منازلهم، وهؤلاء الذين لا يظهرون ذلك. حيث تشمل هذه العلامات العدوانية على لافتات (مثل ممنوع التعدي أو انتهاك حرمة المكان (Trespassing)، احترس من الكلاب) أو أسوار، أو تحذيرات أخرى. ووجد إيدني أن الناس الذين يظهرون علامات إقليمية دفاعية عدوانية قد عاشوا في منازلهم لمدة أطول من ملاك المنازل الذين لا يظهرون هذا السلوك الإقليمي العدواني، كما أنهم خططوا للعيش فيها لمدة أطول في المستقبل، ويستجيبون للجرس الباب بشكل أسرع.

ومع أهمية الأقاليم في ممارسة السيطرة أو التحكم في حياتنا، فليس من المستغرب أن يجد علماء النفس أن الناس يتحركون بسرعة لكي يحافظوا على حيزهم الشخصي في العديد من الأماكن. وأظهرت دراسات عديدة أجريت على أشخاص يأكلون في المطاعم أن الأفراد الذين يأكلون يلمسون الأشياء أكثر إذا كانت هناك حاجة لترسيخ الملكية الإقليمية، وهذه اللمسات لا تخدم أكثر من مجرد الغرض الظاهر (Taylor & Brooks 1980; Truscott, Parmelee & Werner, 1977). ووجدت هذه الدراسات ويشكل محدد أن الشخص يكون أكثر ميلاً إلى لمس طبق يوجد في منطقته الإقليمية عندما يدعي شخص آخر ملكيته له، وعندما يكون هذا الطبق مملوءاً أكثر منه وهو فارغ، وعندما يكون هذا الشخص غريباً عن المطعم وليس لديه إحساس بالسيطرة على المكان. وفي سلسلة من الدراسات المشابهة وجد ورنر وبراون ودامرون (Werner, Brown & Damron 1981) أن نفس هذا السلوك الخاص باللمس يستخدم لادعاء ملكية أو استخدام ماكينات «الفيديو جيم»، وتكون هذه اللمسات طويلة وواضحة بعد ظهور دخيل أو تهديد. دخيل بواسطة شخص آخر. كما تسمح الإقليمية أيضاً للناس أن يديروا وأن ينقلوا للآخرين إحساسهم بالهوية الشخصية . Personal Identity

إن فرض الصبغة الشخصية على الأقاليم Personalization of Territories يعد أكثر أهمية عندما يكون هذا الإقليم قد امتلكه الشخص لفترة طويلة من حياته، وعندما ينتقل الشخص إلى مكتب جديد أو منزل أو شقة، فيكون من بين الأشياء الأولى التي يتم وضعها هي الممتلكات الشخصية جداً أو الديكورات والزينة المرتبطة بالمكان الدائم في حياة ذلك الشخص. وهناك دليل على أن فرض الصبغة الشخصية على الأقاليم قد بنىء في بعض الأحيان عن مظاهر أخرى من سلوك الشخص. وقد أجرى هانسن وألتمان (Hansen & Altman 1976) دراسة أظهرت أن كم ونوع الديكورات المستخدمة في الحجرة ترتبط باحتمال تفضيل طالب الجامعة للبقاء في الدراسة!! وقام الباحثان بزيارة طالب جامعة حديث في السنة الأولى بجامعة أوتاها Utah خلال الأسبوع الثاني من الخريف،

وصورا الجدران فوق سرير هذا الطالب. وتم قياس حجم الديكورات، وفحص سبع فئات من الصبغة الشخصية Personalization وقد عكست هذه الفئات الديكورات المرتبطة بالعلاقات الشخصية، والقيم السياسية والدينية والفلسفية، ومجالات الاهتمام الشخصي، والبنود المرجعية والترفيهية والديكورات التجريدية/ الفنية. ووجد الباحثان أن الطلاب الذين تركوا المدرسة في نهاية العام كانوا أقل ميلاً لأن يزينوا الحائط بالمقارنة بالطلاب الذين مكثوا في الجامعة. فهؤلاء الذين تركوا الجامعة غطوا مساحة أقل بالزينة أو الديكورات، وكانوا أكثر ميلاً لاستخدام الديكورات التي تعكس ارتباطاً قوياً بحياتهم الشخصية بعيداً عن الجامعة. وتدخل صور الأصدقاء والصدقات في المنزل، وصور العائلة أو قصاصات من الجرائد الوطنية ضمن البنود المتضمنة في هذه الفئة.



صورة (٦-٣): الديكور المستخدم في حجرات النوم غالباً ما يعكس اهتمامات الطالب، وقوة الارتباط بين الشخص وبيئته الكلية.

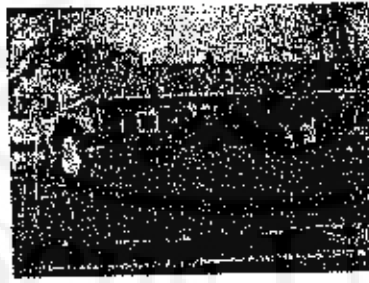
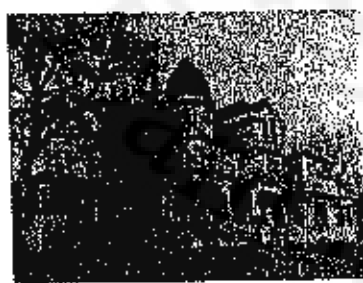
وقد فشلت دراسة تتبعية في نفس الجامعة في أن تجد ارتباطاً بين حجم المساحة المزينة والمكوث في المدرسة، ولكنها أكدت أن الطلاب الذين فشلوا

وتركوا الجامعة أظهروا تنوعاً أقل في الالتزام بمكان الجامعة وزينتها - عنه مما فعل الذين مكثوا في الجامعة (Vinsel, Brown, Altman & Fors, 1980).

واقترح ورنر وألتمان وأوكسلي وهاجارد Werner, Altman & Oxley Haggard (١٩٨٥) أن الديكور الخارجي للمنزل قد يكون طريقة لزيادة الارتباط بالجيران، ولتعميق الارتباط بالحي. وأكد براون وورنر Brown & Werner (١٩٨٥م)، أن ديكورات عيد جميع القديسين «الهالوين» على منزل ما قد تنبئ بعدد الارتباطات الاجتماعية لمالك المنزل مع الجيران، وعلاقته بهم. وهذه الديكورات لا تزيد فقط من التماسك مع الجيران، ولكنها أيضاً تخدم كإشارات Cues لمعرفة الزوار من الجيران.

وفي دراسة مشابهة وجد ورنر، وبيترسون - لويز، وبراون Werner, Peterson-Lewis & Brown (١٩٨٩) أن طلاب الجامعة يمكنهم إصدار أحكام دقيقة عن اجتماعية ملاك المنازل، وتكون هذه الأحكام مبنية جزئياً على طبيعة ديكورات الكريسماس المعروضة في منازلهم.

وقد أوضح جرينبوم وجرينبوم Greenbaum & Greenbaum (١٩٨١) أن ملاك المنازل يعطون صبغة شخصية لأماكن إقامتهم عن طريق وضع علامات أكثر مما يفعل المستأجرون. ولاحظ براون Brown (١٩٨٧) أن عملية إضفاء الصبغة الشخصية على إقليم أو ملكية الفرد قد يزيد من مشاعر الارتباط بهذا الإقليم، كما أن هذه الصبغة الشخصية قد تترك لدى الفرد انطباعات سريعة عن الآخرين، قد تكون دقيقة أو غير دقيقة.



صورة (٦-٤ أ، ب، ج): يعكس نمط وديكور المنزل أسلوب الحياة وشخصية مالكه. فما هو الفارق الذي يتوقع أن تراه بين كل مالك من ملاك هذه المنازل.

وقد أوضحت سلسلة من الدراسات أجراها شرولنك ومعانوه Cherlunik and his colleagues، أن الناس يُقَوِّمون في ضوء الأماكن التي يعيشون ويعملون فيها، والتي تجعل من الصبغة الشخصية للمنزل أو العمل استراتيجية ذات قيمة لعمل انطباعات جيدة عن الآخرين. وطلب شرولنك وسودرس Cherulnik & Souders (١٩٨٤) من طلاب الجامعة عمل أحكام عن سمات وظائف سكان ٢٤ منطقة مجاورة مختلفة تم تصويرها على شرائح، ولم يتفق هؤلاء الطلاب فقط على المهن أو الوظائف المحتملة لسكان كل مجاورة، ولكنهم أيضاً اتفقوا أحياناً على سمات شخصية السكان، وعلى سبيل المثال غالباً ما يوصف سكان المجاورة المتدنية المكانة بالسذاجة، وعدم المسؤولية، والكسل.

في دراسة أخرى تم الحكم على أشخاص تم تصويرهم في مجاورة من الطبقة المتوسطة العليا - بأنهم يمتلكون صفات مرغوبة أو مفضلة، ويشغلون وظائف أكثر احتراماً إذا قورنوا بأناس ظهروا في الأماكن الخاصة بالطبقة المتوسطة الدنيا (Cherulnik & Bayless, 1986)، وتؤكد دراسات أخرى أن الأشخاص الباحثين يصدرن أحكاماً متشابهة عن الأشخاص على أساس المنازل والمجاورات التي يعيش فيها (Nasar, 1989; Sadalla, Vershure & Burroughs, 1987). ويبدو أن المعايير التي تستخدم للحكم على مكانة ملاك المنازل متسقة عبر الزمن، حيث يحكم الباحثون بدقة على المكانة الاجتماعية الاقتصادية للملاك الأصليين للمنازل التي بنيت في بوسطن منذ ١٠٠ سنة (Cherulnik & Wilderman, 1986).

وتلعب الإقليمية أيضاً دوراً حاسماً في تنظيم الأنساق الاجتماعية للإنسان كما هو الحال لدى الحيوان، فبدون الملكية المتناسكة والسيطرة على الحيازات Spaces أو المساحات المتنوعة، يكون التفاعل الإنساني فوضوياً أو مضطرباً، وتستخدم الأقاليم لتأييد وتوضيح الأدوار الاجتماعية، وتنظيم التفاعلات، وتقليل الصراعات. وقد تبين أن الأقاليم الواضحة غير المبهمة تقلل من السلوك العدواني في جماعات الأولاد المتأخرين عقلياً (Sundstrom & Altman, 1974)، وعصابات الشوارع (Leg & Xybriwsky, 1974). ووجد البحث الذي أجرى

على ثنائيات من البحارة الذين يعيشون في غرف صغيرة منعزلة أن الثنائي الذي أسس مكاناً واضحاً خلال اليوم الأول قد أدّى عمله بشكل أفضل، كما أظهر أفراد الثنائي شعور أقل بالمشقة Stress وكانوا قادرين على تحمل العزلة لمدة أطول، أما الثنائيات الأقل في الملكية الإقليمية، فكانوا غير منتظمين، ولم يتحملوا العزلة طويلاً (Altman, Haythorn, 1967; Altman, Taylor & Wheeler, 1971).

أنماط الأقاليم الإنسانية:

يقدم ألتمان Altman (١٩٧٥) طريقة مفيدة جداً للتمييز بين الأنواع المختلفة من الأقاليم الإنسانية. حيث تختلف الأقاليم طبقاً لأهميتها بالنسبة لحياة ملاكها. فبعض الأقاليم أكثر مركزية من غيرها وتشير المركزية إلى كم أو حجم الأمن، والتحكم أو السيطرة التي يخبرها الفرد الذي يعيش في الإقليم. ويقترح ألتمان أن معظم الأقاليم الإنسانية تقع ضمن واحدة من فئات ثلاث هي: الأولية Primary والثانوية Secondary، والعامة Public.

- الأقاليم الأولية: Primary Territories

هي الأماكن التي يشعر فيها الملاك أن لديهم سيطرة تامة للدخول والخروج والاستخدام معظم الوقت، وتشمل المنازل، والمكاتب، وحجرات النوم والتي تكون مركزية لحياة مستخدميها، ويقتصر استخدامها على فرد واحد أو جماعة واحدة، ويعترف بها على أنها أولية من قبل الناس الآخرين، كما يعترف القانون بالأقاليم الأولية ويسوّغ استخدام القوة للدفاع عنها.

والأقاليم الأولية مثل المنازل هي غالباً مركب معقد من أقاليم صغيرة تخضع لتحكم أشخاص مختلفين. وقام سبا وشورشمان Sebb & Churchman (١٩٨٣) بإجراء مقابلات مع ١٨٥ من الراشدين والأطفال، ممن يعيشون في مجاورة من طبقة متوسطة في حيفا بإسرائيل. وأوضح القائمان بالمقابلة أن الأفراد في كل أسرة يوافقون تماماً على التقسيمات الإقليمية داخل المنزل. فبعض الأماكن مثل حجرات المعيشة، والصالات، والحمامات تعد مناطق عامة لأي

عضو في الأسرة. وفي مقابل ذلك تعد حجرات النوم والمكاتب مناطق فردية تنتمي لشخص واحد (أو أكثر إذا كانت حجرة النوم مشتركة)، ويشعر المالكون لهذه المناطق شعوراً قوياً بأن هذه الأماكن تمثلهم، ويجلسون فيها حيث لا يفرقهم أحد. ويستخدم الجميع المطابخ، مع أن الأسرة عادة ما تصنفها على أنها تخص الأم، لأنها هي المسؤولة عما يحدث بها.

وتؤكد دراسات أخرى أن التقسيم الإقليمي للمنزل يعكس أنماط نشاط أعضاء الأسرة، وتتأثر هذه الأنماط بعوامل أخرى مثل المركز المهني للأب (Ahrentzen, Levine & Michelson, 1989) ولكي نساعدك على التفكير في الإقليمية داخل أسرتك (انظر المربع: كيف تكون أسرتك إقليمية).

حاول أن تفعل ذلك

كيف تكون أسرتك إقليمية؟

تمر معظم السلوكيات اليومية التي تتضمن وظائف أو مهام منزلية هادئة دون ملاحظة من جانب أعضاء الأسرة. فكر في المعايير التي تطورت في أسرتك وكون قائمة من السلوكيات التي يمكن اعتبارها «إقليمية». وفيما يلي سلسلة من الأسئلة تساعد على ذلك. وتعد هذه فقط مجرد بداية، ويحتمل أن تندش بالقائمة التي تكونها.

- ١ - هل يغلق أعضاء أسرتك باب الحمام؟
- ٢ - هل يجلس الأشخاص على نفس المقاعد في كل وجبة؟
- ٣ - هل يدق أفراد العائلة الباب قبل الدخول على بعضهم البعض؟
- ٤ - هل يغلق أفراد عائلتك أبواب حجرة النوم ليلاً وهم نائمون؟
- ٥ - هل توجد حجرات خاصة في منزلك (خلوة، مكتب، ورشة عمل) تستخدم بواسطة فرد واحد؟
- ٦ - هل هناك كرسي مخصص لشخص واحد في حجرة المعيشة أو حجرة تلفاز؟

- ٧ - هل هناك تليفون خاص أو تلفاز خاص بمنزلك لأي فرد؟
- ٨ - هل يستخدم الأشخاص ممتلكات بعضهم البعض بحرية (مثل الدراجات والستريو والملابس) أم أنه يجب أن تطلب الإذن أولاً؟
- ٩ - هل تشارك أسرتك في استخدام المشط أو فرشاة الشعر؟
- ١٠ - هل مقبول في أسرتك أن يأكل فرد من طبق الآخر، أو أن يشرب فرد من كوب الآخر؟
- ١١ - عند الاختلاف على مشاهدة برنامج تلفازي، كيف يُحل ذلك؟
- ١٢ - هل يقوم نفس الشخص بالطهي داخل المنزل وخارجه؟
- ١٣ - إذا كان لديكم حديقة، فهل يشارك الجميع في رعايتها؟
- ١٤ - هل تستضيفون الزوار في أماكن مختلفة عن تلك التي تجلس فيها الأسرة؟
- ١٥ - هل للراشدين في أسرتك تحكم أو سيطرة متساوية في تحديد الديكور المستخدم في المنزل؟
- ١٦ - عندما تسافر الأسرة معاً بالسيارة، فهل يقودها دائماً نفس الشخص؟

الأقاليم الثانوية : Secondary Territories

وهي أقل مركزية من الناحية النفسية في حياة مستخدميها وأقل تحكماً أو سيطرة من الأقاليم الأولية، وهي مزيج من الاستخدام العام أو الإباحة العامة، والتحكم الخاص، وتعد حلقة وصل (أو جسر) للربط بين الأقاليم الأولية والعامة. ومن أمثلة الأقاليم الثانوية المقهى المجاور، أو الشارع الموجود أمام منزل الشخص، أو أماكن الجلوس في كافيتيريا أو استراحة. ولأنها عادة أكثر صعوبة على الغرباء في تحديدها، فإن إمكانية سوء الفهم والصراع على استخدام هذه الأقاليم أو المناطق الثانوية يكون كبيراً. وقد عشت لعدة سنوات مع أسرتي

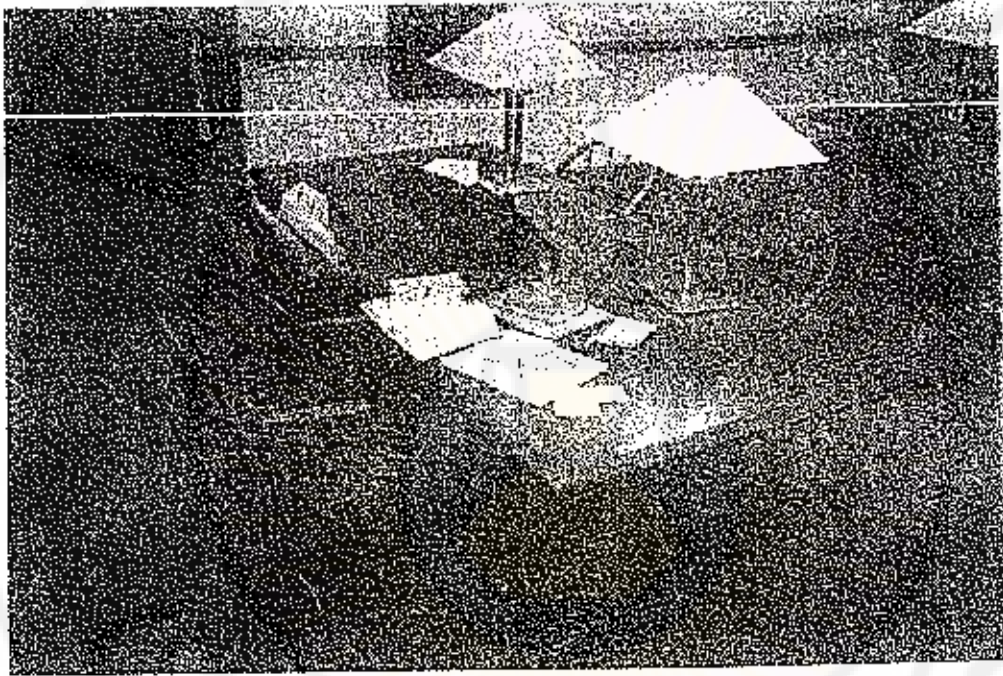
في شقة بسكن الجامعة، وكان هذا المبنى هو منزلنا، وفي الصيف كنا نعيش هناك بمفردنا. وداخل الباب الأمامي من المبنى يوجد مكان يسع وضع دراجتين. وسرعان ما اعتبرنا هذا المكان ملكية ثانوية ووضعنا دراجتنا فيه بانتظام. وعندما يعود الطلاب في الخريف، فإنهم يضعون دراجاتهم بمجرد أن نحرك دراجتنا. ونظراً لأننا كنا نستمتع باستغلال المكان يومياً، فقد نمى لدينا إحساس بملكية المكان، وشعرنا أن هناك تعدياً على حقوقنا. وعندما عرفنا أن هذه المنطقة ينظر إليها الطلاب على أنها منطقة عامة، وأن من حقنا ومن حق غيرنا استخدامها، كظمنا شعورنا بالضيق في أنفسنا. وغالباً ما تحدث الصراعات والاعتراضات على الأقاليم الثانوية عندما لا يعيش الفرد فيها بشكل دائم، وعندما تكون هناك صعوبة في إضفاء صبغة شخصية عليها، وعندما لا يمكن امتلاكها. وقد أطلق لأك ونيومان Lak & Newman (١٩٧٢) على هذه المناطق الحيز الدفاعي Defensible Space، وسوف نرى في الفصول القادمة أن الافتقار إلى الحيز الدفاعي يمكن أن يترتب عليه مشكلات خطيرة لسكان بعض المجاورات والمباني.

الأقاليم العامة: Public Territories

هي الأماكن المتاحة لأي شخص، بشكل مؤقت، وقصير المدى، على أن لا ينتهك الأشخاص القواعد المرتبطة باستخدامهم لها. وتشمل الأماكن الشائعة، أكشاك التليفون، وملاعب التنس، والمساحات على الشواطئ العامة أو المقاعد في المكتبات، والحدائق، والأسواق وغيرها. ويستخدم الأفراد هذه الأقاليم العامة أو الأماكن لفترات قصيرة لتحقيق هدف قصير المدى، وهي ليست مركزية لحياة مستخدميها، وليست مرتبطة بنفس مشاعر الملكية والتحكم، واللذين هما من خصائص الأقاليم الأولية والثانوية. وإذا تم استخدام إقليم عام بصفة دائمة بواسطة نفس الشخص فإنه يصبح إقليماً ثانوياً أكثر منه مكان عام (Cotterell, 1991) ففي حرم الجامعة، غالباً ما يختار الطلاب نفس المقاعد في المكتبة، أو نفس موقف السيارة عند محل الإقامة، وإذا وجدوا أن شخصاً آخر

قد استخدمها فإنهم يضطرون إلى استخدام غيرها. لذلك يشعر الطلاب بعدم الراحة. وفي قاعات الدراسة يميل الطلاب إلى الجلوس في نفس المقاعد يومياً، وإذا لم يستطع الطالب استخدام نفس المقعد فإنه يجلس بالقرب منه قدر الإمكان. لذلك نحن نستخدم معظم الوقت الحيازات العامة، لأنها مناسبة لوصف الإقليمية العامة إذا قورنت بأي نمط آخر.

ونشير دلائل البحث إلى صدق تمييز ألتمان بين هذه الأنماط الثلاثة من الأقاليم، حيث يظهر الناس تحكماً وسيطرة أكبر على الأقاليم الأولية مقارنة بالأقاليم الثانوية أو العامة.



صورة (٦ - ٥) العلامة الإقليمية تعد طريقة فعالة للحفاظ على الحيز في الأماكن العامة.

ويقرر الباحثون في الدراسات أن لديهم مشاعر كبير للتحكم في الأقاليم الأكثر مركزية (Edney, 1975; Taylor & Stough, 1978). حيث أظهروا في منازلهم سلوكيات أكثر سيطرة من الزوار (Conroy & Sundstroom 1977; Taylor & Lanni, 1981). وفي دراسة هاريس وماك أندرو (Harris & Mcandrew 1986) تم تكليف بعض طلاب الجامعة أن يوقعوا على التماس. وطلب من نصفهم التوقيع على التماس غير مؤذ يفيد بأن معظم الطلاب ليس

لديهم رأي ثابت أو راسخ حول (زيادة عدد الساعات كل أسبوع، حيث يسمح بحرق أوراق الشجر في المدينة حيث توجد الكلية). وطلب من النصف الآخر أن يوقعوا التماسا يتضمن زيادة عدد المقررات في الكلية (بدون حاجة لأن تقول إن هذه الورقة ليست مقبولة). وقد استطاع الطلاب أن يقاوموا بشكل أفضل توقيع الالتماس غير السار في حالة ما إذا كانوا في حجرات نومهم منه في حالة وجودهم بالمكتبة، أو في أثناء المشي في حرم الجامعة. أما فيما يتعلق بالالتماس المحايد، لم يكن هناك اختلاف بين نسب الطلاب الموقعين في الأماكن المختلفة. ففي هذه الحالة لم يحتاج الطلاب إلى مقاومة أو مجهود للتحكم في الموقف.

- وضع العلامات الإقليمية والدفاع عنها:

يعد وضع العلامات الإقليمية Territorial Marking جزءاً مهماً من سلوك الفرد الإقليمي. ويوضح براون Brown (١٩٨٧) أنه يتم وضع العلامات على الأقاليم الأولية أو تحديدها غالباً بطرق تعكس القيم والخصائص الشخصية لملاكها، بينما يتم تحديد الأقاليم الثانوية والعامة غالباً بطرق مباشرة.



صورة (٦ - ٦): يستخدم الرسم الرمزي بشكل متكرر لوضع علامات إقليمية بواسطة العصابات.

وقد بحث بيكر Becker (١٩٧٣) الطريقة التي يستخدم بها الناس العلامات، لحجز الأماكن في الأقاليم العامة. حيث يستخدم الناس أي شيء متاح. فيمكن استخدام حقيبة أو معطف في محطة أتوبيس بينما تستخدم الكتب في المكتبات. وفي جميع المواقع يعد استخدام الممتلكات لوضع العلامات الإقليمية أكثر فاعلية من الأشياء التي يمكن أن ينظر إليها على أنها ملكية عامة. ووجد علماء النفس الذين درسوا السلوك الإقليمي على الشواطئ أن الأغصان والراديو والمعدات الأخرى للشاطئ من علامات اختيار المكان وتحديد في هذا الموقع (Edney & Jordan - Edney, 1974; Jason, Reichler & Bucker, 1981).

وتؤدي العلامات الإقليمية إلى ظهور نظام تنبيه أو إنذار فعال يسمح للناس بتجنب المواجهة مع الآخرين في الأماكن العامة. كما تحظى هذه العلامات أيضا باحترام الأفراد الآخرين. ووجد سومر وبيكر Sommer & Becker (١٩٦٩) أن فاعلية العلامات الإقليمية تختلف بحسب ضغط السكان، فعندما تكون هناك حاجة ملحة للحيز فإن العلامات الشخصية مثل الملابس تعد أكثر فاعلية من العلامات الأقل شخصية.

وفي دراسة لفاعلية العلامات الإقليمية في مسألة حجز مناضد في مطعم، اتضح أنه تحت ظروف الطلب الملح تكون الحدود الإقليمية للذكور (وضع المعاطف التي يمتلكها الذكور) أكثر فاعلية من العلامات التي تضعها الإناث (Shaffer & Sadowski, 1975).

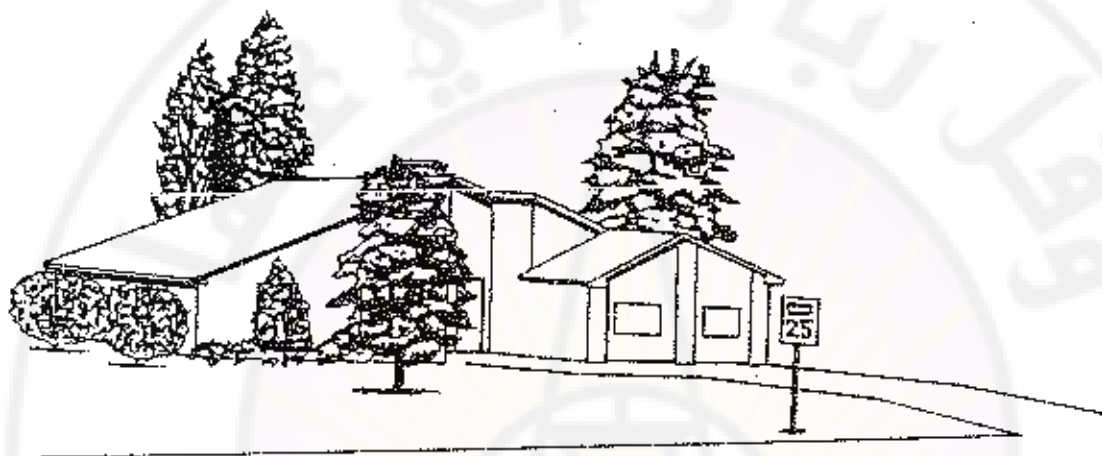
وتبين أن الناس الذين يعلمون (يضعون علامات) الأماكن العامة الخاصة بهم، لم يدافعوا عنها إذا أخذها غيرهم. فقد وجد سومر وبيكر Sommer & Becker (١٩٦٩) أن الجيران لا يدافعون عن منطقة أو إقليم عام إذا تم التعدي عليه في أثناء غياب صاحبه، واكتشف بيكر ومايو Beker & Mayo (١٩٧١) أنه حتى ملاك الإقليم يفشلون في الدفاع عن مقاعدتهم في كافيتريا الكلية عندما يأخذها دخیل. ووجد ماك أندرو، وريكماني، وهور، وسولومان McAndrew, Rychman, Horr & Soloman (١٩٧٨) أن مالكي الإقليم أو المنطقة فشلوا في التأكيد على مطالبهم، حتى عندما يكون المتعدي ليس له وجود فيزيقي. في هذه

الدراسة عاد المبحوثون إلى مقاعدهم في المكتبة ليجدوا العلامات التي وضعوها قد تم إبعادها جانباً، وجلس فيها شخص آخر. ولم يجلس شخص واحد على مقعده أو مقعدها. وهذه النتائج مثيرة أو مدهشة، خاصة أن كل شخص سُئل في المسح الميداني، قال بأنه سوف يستعيد مكانه أو حيزه تحت هذه الظروف.

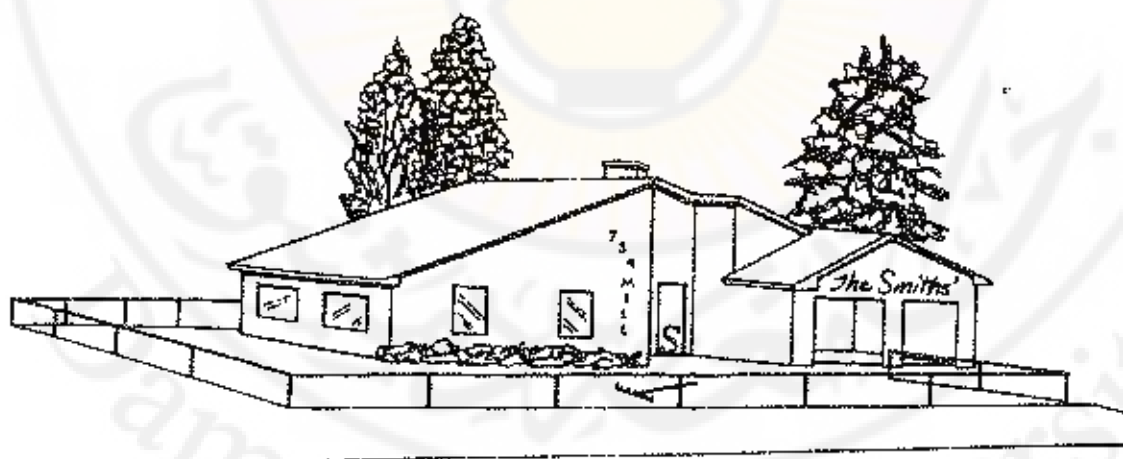
وقد وجدت دراسات قليلة دفاعاً واضحاً عن الأقاليم العامة من جانب شاغليها أو الجيران. ففي إحدى الدراسات التي أجريت على مضمار سباق (Aronson, 1976)، تبين أن ٦٣٪ من الأشخاص الجالسين بجوار مقعد تم التعدي عليه خلال غياب صاحبه، واجهوا المتعدي ودافعوا عن الحقوق الإقليمية لشاغل المكان الأصلي، ومع ذلك يجب أن نلاحظ أن غالبية هؤلاء «الجيران الطيبين» كانوا أصدقاء أو أقارب مباحب الإقليم. وأشارت دراسة أخرى إلى أن قيمة الإقليم بالنسبة لصاحبه تعد محدداً مهماً للدفاع عنه. ووجد تيلور وبروكس Taylor & Brooks (١٩٨٠) أن ٥٠٪ فقط من هؤلاء الذين يتركون علامة على منضدة مكتبة يطلبون من الدخيل أن يتعد بعد تعديه على المكان، ولكن ١٠٠٪ من هؤلاء الذين يكتشفون الدخيل في مكتبة توجد علامات على أماكنها مسبقاً يفعلون ذلك.

* السطو أو السرقة السكنية: عندما يتم التعدي على الأقاليم الأولية: لأسباب واضحة، فإن معظم الدراسات التجريبية للتعدي الإقليمي قامت بفحص الأقاليم أو الملكيات العامة. ومع ذلك فإن أحدث سلسلة من الدراسات تمت في المجال قد توصلت إلى نتائج مهمة على ما يحدث عندما يتم سرقة منزل شخص ما - وهو انتهاك واضح للإقليم الأولي. وفحص براون وألتمان Brown & Altman (١٩٨٣) العروض أو المظاهر الإقليمية لـ ٣٠٦ منازل مسروقة، وتمت مقارنتها بمنازل لم تتعرض للسرقة. ووجد أن هناك أنواعاً معينة من العلامات الإقليمية أكثر ميلاً لأن توجد في المنازل غير المسروقة. واشتملت هذه العلامات على الحدود الواقعية والرمزية مثل الأسوار والجدران وأجهزة الإنذار والحدود الإقليمية. كما أن ظهور اسم مالك العقار والعنوان على العقار كان أكثر فاعلية. كما يوجد دليل آخر مهم لحضور صاحب العقار مثل وجود السيارات أو وجود أدوات في الفناء، أو وجود رشاش يعمل

بالفناء. وكانت المنازل التي لم تسرق أكثر حيوية من منازل الجيران، خاصة تلك التي تقترب منها. وعلى العكس كانت المنازل المسروقة تشابه كثيراً الأقاليم العامة، ولم تشر إلى وجود أشخاص بداخلها، وتبدو أكثر عزلة. وتوضح الرسومات ٦ - ٢ أ، و ٦ - ٢ ب المنازل المعرضة للسرقة، والمنازل غير المعرضة للسرقة.



شكل (٦ - ٢ أ) منزل معرض للسرقة (المصدر: Brown, 1979).



شكل (٦ - ٢ ب): منزل غير معرض للسرقة (المصدر: Brown, 1979).

وقد سنأل ماكدونالد وجيفورد MacDonald & Gifford (١٩٨٩) ٤٣ سجيناً من السارقين الذكور، لتقويم ٥٠ مسكناً بكل منها أسرة واحدة كأهداف محتملة للسرقة، وأكد هؤلاء السارقون أن المنازل غير المراقبة هي أكثر المنازل عرضة للسرقة، وتلك الحيوية والقريبة من الطريق بشكل خاص كانت مهمة.

من جهة أخرى لم يشعر السارقون بأن السلوك الإقليمي للملاك المنازل يقلل من سهولة سرقة المنزل، وقد شجع استخدام الحدود الرمزية هؤلاء الرجال ليعتبروا المنزل هدفاً للسرقة. ولخص ماكدونالد وجيفورد ذلك بأن السارقين يفترضون أن الملاك الذين يهتمون بمنزلهم من الخارج يكون لديهم بالداخل ما يجعل المنزل هدفاً مربحاً.

وركزت دراسات قليلة على ردود أفعال ملاك المنازل للسرقة، فالأثر الانفعالي يتعدى حجم أو كمية الخسارة المالية. ويعبر معظم ضحايا السرقات عن مشاعر عميقة بالصدمة والاحتياال والاضطراب. والعديد منهم يشبهونه بالاغتصاب، مؤكداين أهمية الملكية الأولية في حياتهم (Korosec-Serfaty & Bolitt, 1986). وتتراكم هذه المشاعر بعد السرقة، ويمكن أن تؤدي إلى خوف دائم من الدخول أو البقاء بالمنزل وحيداً (Waller & Okihiro, 1978). ووجد براون وهاريس Brown & Harris (١٩٨٩) أن ردود الفعل السلبية هذه تزداد حين يحدث تخطيم أو تلفيات مع السرقة أو عندما تسرق أشياء مرتفعة في قيمتها المعنوية والمادية. ويترتب على النهب وفقدان الأشياء الشخصية جداً فقدان التحكم الإقليمي، والخبرات الأكثر إثارة للقلق.

ملخص الفصل:

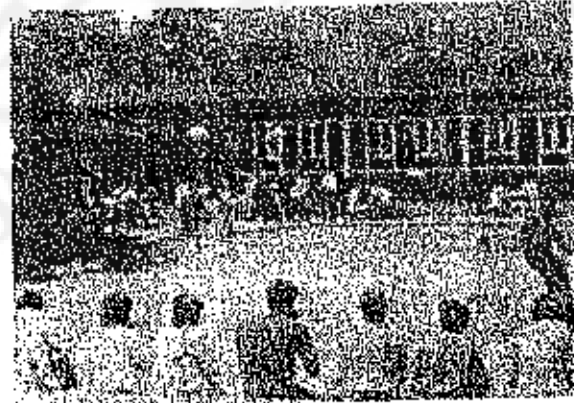
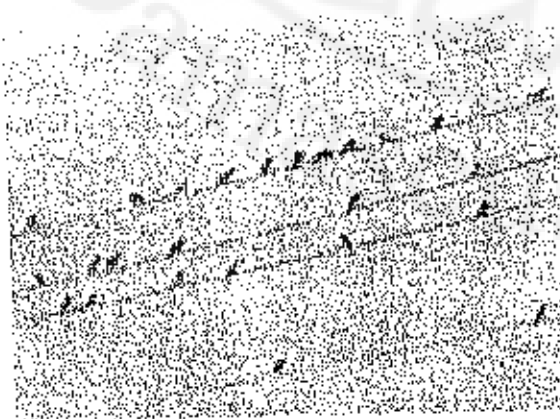
تشير الإقليمية إلى التأثير أو التحكم في أفعال الآخرين من خلال فرض السيطرة على منطقة جغرافية. ويتشر السلوك الإقليمي في مملكة الحيوان، وفي أنواع عديدة على أنها أساس للتزاوج والتنظيم الاجتماعي بشكل عام.

وترتبط الخصوصية بشدة بمفهوم الحيز الشخصي والإقليمية. وتعد الخصوصية بمثابة التحكم الانتقائي لتقدير الذات أو جماعة الفرد، وهي العملية

الحيز الشخصي

عندما تلاحظ جماعة من الناس، بسرعة يصبح من الواضح أفضى الترتيب المكاني للأفراد ليس عشوائياً. وحيث يضع الناس أنفسهم فإن هذا يعكس مكانتهم وعلاقات الصداقة داخل الجماعة، هذا بالإضافة إلى حدود البيئة الفيزيائية للجماعة. ونحن لا ندرك بشكل عام أهمية السلوك المكاني في حياتنا إلا عندما يحدث شيء غير عادي كمن نضع هذا في اعتبارنا. فعلى سبيل المثال، قد نشعر بعدم الراحة عندما يجلس أشخاص آخرون على مقربة شديدة منك في دار سينما فارغة، أو قد تجد أنه من غير المفضل أن تتعامل مع أناس يجنون التلاصق ويقفون على مقربة كبيرة منك، أو أناس يتسمون بالبرود ويقفون بعيداً جداً عنك خلال حوار بينكما. وبالتأكيد فإنك تلاحظ عندما يلمسك غريب أو شخص تعرفه معرفة عابرة أنه غالباً ما يصحب هذا رد فعل انفعالي إيجابي أو سلبي قوي. وفي جميع هذه الحالات تتأثر مشاعرك بالسلوك المكاني للآخرين. وذكر هولمان Holman (١٩٨٢) أن اللغة التي نستخدمها لوصف معاملتنا مع الآخرين تكون مليئة بالاستعارات المكانية. فنحن نطلب من الآخرين أن «يتعدوا عن وجوهنا» أو «الرجوع إلى الوراء» قبل أن «يدفعونا للابتعاد عنهم». ونحن في حاجة إلى «مجال متسع للحركة» حتى لا نشعر أننا معزولون أو موجودون في ركن. نحن في حاجة إلى «أن يكون لنا حيزنا» على الرغم من أننا لا نريد أن نشعر بالانفصال عن الأشخاص المقربين إلينا. ويميل الأشخاص المنبسطون إلى الاحتكاك والتقارب، بينما يميل المنطوون إلى الابتعاد.

إن استخدامنا للحيز هو طريقة للتواصل أو التخاطب مع الآخرين، ويعد محدداً لمشاعرنا نحوهم. عندما نقابلهم. والإنسان ليس الكائن الوحيد الذي لديه حاجات مكانية Spatial Needs (انظر الصورة رقم ١-٥ أ، ب).



صورة (١-٥ أ، ب): الإنسان هو نوع من أنواع كثيرة من الحيوانات التي تأخذ مساحة منتظمة في المواقع الطبيعية.

وهي حقيقة يدركها مريض الأسود ومدرّب الحيوانات (Hediger, 1950, 1955) ومع ذلك فإن سلوك الإنسان المكاني يهتم علماء نفس البيئة كثيراً، نظراً لأهمية الحاجات البشرية في التصميم البيئي.

وفي عام ١٩٦٦ نشر عالم الأنثروبولوجيا إدوارد هل E.Hall كتابه «البعد الخفي» The Hidden Dimension، وقدم فيه قواعد التقارب Proxemics، وعرفه بأنه الدراسة العلمية للسلوك المكاني للأفراد. وفي هذا الكتاب أوضح المعاني التي يلجأ إليها الناس عند استخدام الحيز، ووضع الحسابات الأولية الثابتة للمعايير المكانية في العديد من الثقافات المتباينة. وطبقاً لهل، فإن التفاعل بين الناس في الولايات المتحدة عادة ما يحدث في واحد من أربع مسافات هي: مسافة القرب أو المودة، والمسافة الشخصية، والمسافة الاجتماعية، والمسافة العامة.

- مسافة القرب أو المودة: Intimate Distance، تتراوح من صفر إلى ١٨ بوصة. وفي مثل هذه المسافة يكون الرأس والوجه هما الجزئين الوحيدين اللذين يمكن رؤيتهما بوضوح، والأشخاص الذين يتفاعلون معاً في هذه المسافة غالباً ما يستقبلون إشارات حسية إضافية مثل حرارة الجسم ورائحته. وهذه المسافة مقصورة على التفاعلات الحميمة جداً، وعادة ما تعتبر غير لائقة بالنسبة للراشدين الأمريكيين لكي يستخدموها علائقية.
- المسافة الشخصية: Personal Distance، تمتد من ١٨ بوصة إلى حوالي ٤ أقدام. في مثل هذه المسافة تبدأ الملامح أو الهاديات Cues البصرية والشمية في عدم الوضوح. ويكون الشخص أكثر وعياً بالهاديات من الأجزاء الأخرى من جسم زميله أو زميلته، ويكون اللمس ممكناً عادة وهي مسافة شائعة عند الحديث العابرين بين الأصدقاء.
- المسافة الاجتماعية: Social Distance، وتشمل المنطقة التي تمتد من ٤ إلى ١٢ قدماً. وتكون المسافات الوثيقة أو القريبة (من ٤ إلى ٧ أقدام) أكثر استخداماً بين الناس الذين يعملون معاً، وهؤلاء الذين يجمعهم عمل غير رسمي. والمسافة الاجتماعية الطويلة (من ٧ إلى ١٢ قدماً) تتطلب رفع مستوى الصوت، وتكون في حالة الأعمال والتفاعل الاجتماعي الأكثر رسمية.
- المسافة العامة: Public Distance، (من ١٢ إلى ٢٥ قدماً أو أكثر). وتكون رسمية جداً. وفي مثل هذه المسافة يمكن بسهولة عمل حركات

مراوغة أو حركات دفاعية، وتستخدم مع الغرباء، والذين لا يرغب الشخص في التفاعل معهم، وعلامة على عدم الاكتراث عند الاقتراب من شخصيات عامة مهمة.



صورة (٥-٢ أ، ب، ج، د): تبين مسافات التفاعل بين الأمريكيين كما وصفها هل.
(أ) استخدام الشخص لمسافة القرب أو المودة. (ب) المسافة الشخصية. (ج) المسافة الاجتماعية. (د) المسافة العامة.

ويجب ملاحظة أن هذه المسافات تقوم على أساس ملاحظات أخذت من الراشدين البيض من الطبقة الوسطى، وقد أوضح هل أنه حتى داخل المجتمع الأمريكي فإن الجماعات الأخرى مثل الأمريكيين الأفارقة، والأمريكيين من أصل أسباني أو من أصل آسيوي، قد يكون لهم معايير مختلفة تماماً. وكان لعمل «هل» أهمية حيوية في نمو البحث الثقافي المقارن، كما كان الدافع الأساسي لتزايد الاهتمام بالسلوك المكاني البشري، والذي حدث في نهاية الستينيات والسبعينيات.

مفهوم الحيز الشخصي: Personal Space

ترتبط دراسة هل Hall لمسافات التفاعل ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الحيز الشخصي، وقد تم تعريف الحيز الشخصي بأنه المنطقة أو المساحة المحيطة بجسم الشخص، والتي لا يتدخل فيها الآخرون دون استشارة عدم الراحة (Hayduk, 1969; Sommer, 1983)، وهي ليست موقعاً جغرافياً ثابتاً، ولكنها متغيرة بالنسبة للشخص، فتزيد أو تقل حسب الموقف. وهي غالباً ما توصف «بفقاعة الحيز» Bubble of Space التي تحيط بالشخص، وحاول العديد من الباحثين تفجير هذه الفقاعة، لأنهم شعروا أنها تؤدي إلى استنتاجات غير صحيحة عن طبيعة الحيز الشخصي (Hayduk, 1983; Patterson, 1975; Winkelhake, 1975). وتكمن الاعتراضات على التشبيه بالفقاعة Bubble Analogy في أنها طريقة غير جيدة في وصف السهولة التي يمكن أن يتغير معها حجم الحيز الشخصي للفرد، وأن صورة فقاعتين... تقفزان بعيداً عن بعضهما لا تمثل بالفعل ما يحدث عندما يتفاعل الناس مع بعضهم البعض. وفي مراجعة نقدية للتراث يوضح أيلو Aiello (١٩٨٧) أنه حتى اسم «الحيز الشخصي» يعد مضللاً، وأنه ربما يكون من الأفضل أن نتحدث عن المسافة بين الأشخاص دون اللجوء إلى مسميات محددة. وعلى الرغم من هذه الانتقادات فإن المصطلح لا يزال يستخدم بصورة واسعة، ومن الصعب أن نناقش السلوك المكاني البشري دون استخدام اللغة الشائعة بين الكثير من الباحثين في هذا المجال، لذلك سوف نستخدم مصطلح الحيز الشخصي في هذا الفصل.

ويكون التعدي أو انتهاك Invasion مجال الحيز الشخصي لفرد ما عن طريق فرد آخر في معظم الحالات بمثابة خبرة غير سارة ومؤلمة، وربما تكون قد لاحظت أنك تغير سلوكك في العديد من المناسبات لتتجنب انتهاك مجال الحيز الشخصي للآخرين. وفي نفس الوقت تضع نفسك في مكان يكون فيه التعدي على حيزك الشخصي غير محتمل. فعند اختيارك للوقوف أو الجلوس في الأماكن العامة مثل المصاعد والمكتبات والحدائق العامة ومحلات الوجبات السريعة، تحاول غالباً أن تكون المسافة كبيرة بينك وبين الآخرين الذين يستخدمون هذه الأماكن.

ويؤكد البحث أن الناس يتجنبون التعدي على الحيز الشخصي للآخرين بقدر الإمكان (Barefoot, Hoople & McClay, 1972; Reid & Novak, 1975; Sommer & Becker, 1969)، ويتم تفادي أو تجنب اللمس أو التلامس بين الغرباء من الجنس الآخر بحرص شديد (Anderson, Andersing & Lusting, 1987). وفي دراسة أجراها بيرفوت وهوبل وماكلاي (Barefoot, Hoople & McClay, 1972) وضع الباحثون شخصاً على مسافات مختلفة من نبع مياه للشرب في ممر مزدحم. وتم جمع البيانات الأساسية على عدد من الأفراد الذين يقفون عادة عند هذا النبع للشرب خلال الفترات التي تمت دراستها. ووجد بيرفوت ومعاونوه أن عدد الأشخاص الذين توقفوا للشرب قد انخفض بشكل واضح عند اقتراب شريك أو شخص آخر من نبع المياه. فعندما يجلس شخص ما على مقربة كبيرة من المياه ينخفض عدد الأشخاص الذين يتوقفون للشرب، ومن المثير أن من اقتحموا حيز الشخص الجالس بجوار المياه قد شربوا لأوقات أطول من هؤلاء الذين لم يقتحموا الحيز الشخصي لأي فرد يشرب، وربما كان هؤلاء الأشخاص على وجه الخصوص عطشى (أو، على الأقل حاولوا أن يظهروا ذلك)، أو كانوا يرغبون في انتهاك الحيز الشخصي لأحد الأفراد الراغبين في الشرب. والتفسير الآخر لهذا هو أن الانتهاك أو التعدي المكاني الذي يحدث في المواقف الموجهة نحو المهمة، مثل الحصول على مشروب واستخدام تليفون عمومي أو البحث عن كتاب على رف مكتبة قد يكون معوقاً، وقد يجعل النشاط أو المهمة تستغرق وقتاً أطول من الوقت العادي اللازم لها (Ruback, 1987; Ruback, Pape & Doriot, 1989). ووجدت دراسة أخرى (Thalhofer, 1980) أنه يكون من السهل انتهاك الحيز الشخصي لفرد ما بالقرب من نبع مياه الشرب عندما يكون المكان مزدحماً بالفعل. وربما يرجع

السبب إلى أن الأشخاص الذين يتهكون حيز الأشخاص الآخرين يعيرون اهتماماً أقل للهاديات الاجتماعية 'Social Cues' للآخرين، أو ربما يكون ذلك لأنهم يظنون أن الانتهاك سوف يكون أقل تنفيراً تحت هذه الظروف.

إن انتهاك الحيز الشخصي غالباً ما يجعل الناس يتخلون عن أماكنهم، ويذهبون إلى أي مكان آخر (Barash, 1973; Felipe & Sommer, 1966; Sommer, 1969) وهناك دليل يؤكد أن هذه الانتهاكات المكانية تزيد من مستويات الاستشارة لدى الأشخاص الذين تم التعدي على حيزهم الشخصي. ويقوم هذا الدليل على الدراسات التي تستخدم المقاييس الفسيولوجية للاستشارة مثل Plamar Sweating (Dabbs, 1971)، والتغيرات في المقاومة الكهربائية للجلد (Aiello, Epstein & Karlin, 1975; McBride, King & Jones, 1965). بالإضافة إلى الدراسات التي تناولت سلوكيات الأشخاص، وأوضاعهم، وتعبيراتهم الوجهية الواضحة، على أنها تشير إلى مستويات الاستشارة المرتفعة (Efran, Cheyne, 1974; Konecni, Libuser, Morton & Ebbeson 1975; Smith & Knowles, 1979). وقد وجد كونسيني Konecni ومعاونوه - على سبيل المثال - أن المشاة يعبرون الشارع بسرعة أكبر إذا تم انتهاك حيزهم الشخصي وهم ينتظرون أن تتغير الإشارة الضوئية. وقد أصبحت بعض التجارب عن العلاقة بين الاستشارة والتعديت على الحيز الشخصي ذات سمعة غير طيبة عندما بدأ علماء النفس دراسة المشكلة عن طريق ملاحظة سلوك الأفراد في المراهيض العامة (Brandeis, 1972; Middlemist, Knowles & Matter, 1976; Reid & Novak, 1975). وكان هذا البحث محل جدل لأنه أثار قضية المسؤولية الأخلاقية للفاحصين والدارسين الذين يلاحظون الأشخاص دون معرفتهم أو موافقتهم. وقد تم وصف هذه الدراسات والجدل والاعتراضات التي وجهت إليها في المربع التالي.

وعلى الرغم من أن هناك اتفاقاً على نطاق واسع بأن التعديت على الحيز الشخصي تعد مصدراً للاستشارة فإن التفسيرات التي تعلق حدوث ذلك مختلفة أو متباينة. ويشعر الباحثون أن الاستشارة تعد استجابة آلية وردود فعل على التدخل المكاني، في حين يعتقد آخرون أن الاستشارة تعكس الدهشة التي نمر بها عندما تنتهك توقعاتنا عن سلوكيات الآخرين (Burgoon, 1978, 1983; Burgoon & Jones, 1976; Cappella & Greene, 1982; Hale & Burgoon, 1984; Patterson, 1982).

هل الملاحظة الفضولية دائماً أخلاقية؟

من بين جميع دراسات الحيز الشخصي، لم تكن هناك دراسة أثارت الجدل أكثر من تلك الدراسات التي تناولت السلوك في المراحل العامة (Brandeis, 1972; Middlemist, Knowles & Mater, 1976; Reid & Novak, 1975). فقد أثارت الدراسة التي أجراها ميديلميسست Middlemist ومعاونوه على وجه الخصوص الغضب في بعض الأحيان، لما رآه البعض على أنه انتهاك للقواعد الأخلاقية لعلماء النفس في مجال البحث. ففي دراسة ميديلميسست كان المفحوصون موضع الدراسة رجالاً بيولون في المرحاض العام. وخلال مجرى الدراسة قام وسيط بالتعدي على الحيز الشخصي لهؤلاء الرجال. وتم التجسس عليهم عن طريق عدسة مقربة تم إخفاؤها بمهارة في قاعدة الحمام وتم قياس فترة تبولهم بساعة رقمية. وقد أوضحت التجربة بنجاح العلاقة بين انتهاك الحيز الشخصي والاستشارة الفسيولوجية، كتدفق البول، والتغيرات المستمرة التي يمكن التنبؤ بها بواسطة ارتفاع مستوى الاستشارة.

ومع أن المعلومات التي تم الحصول عليها من هذه الدراسة كانت ذات قيمة كبيرة، فقد شعر الكثير من علماء النفس أن التعدي على الخصوصية ليس له ما يسوغه. وأوضحوا أنه عندما يتجسس علماء النفس على الأشخاص في مثل هذه المواقف الخاصة جداً، فهم بذلك يرفضون الاعتراف بحقوق المبحوثين في الخصوصية، ويعاملونهم بطرق لا يمكن أن يعاملوا بها آخرون ممن تربطهم بهم علاقة ما.

وكانت الاستجابة لهذه الأوضاع هي أن أي سلوكيات تقع في الأماكن العامة تكون مشاعاً للفحص العام Public Scrutiny. ويتمتع علماء النفس فقط بميزة جمع المعلومات بحرية من أي شخص يقبل أن يُلاحظ. كما أن إنجاز أي تقدم في فهم السلوك في البيئات الواقعية يتطلب أن يتم البحث في مواقف الحياة الحقيقية، ففي جميع الدراسات الميدانية تظل هوية المفحوصين مجهولة، ولن يعلن عن أي سلوك لشخص معين. هكذا يدور الجدل حول خصوصية الأشخاص المفحوصين، وأنه لم يقع أي ضرر.

فما رأيك في هذه القضية: هل تعتقد أن هذا النوع من البحث أخلاقي أم لا؟

وظائف الحيز الشخصي:

مع الوضع في الاعتبار شدة استجاباتنا للتعديلات على حيزنا الشخصي، يكون من المحتمل أن يخدم الحفاظ على الحيز الشخصي عدداً من الوظائف التكيفية للإنسان خلال تاريخنا البشري. وسوف أصف بإيجاز عدداً من الوظائف المهمة:

- الحماية الذاتية: Self - Protection: من الوظائف الواضحة لـ «منطقة تداخل جسدنا أو جسمنا» هي حمايتنا من التهديد الفيزيقي أو الانفعالي (Dosey, 1969; Horowitz, Duff & Stratton, 1964) ومع الحيز الشخصي الكبير يكون الفرد أكثر استعداداً لتجنب الخطر الفيزيقي أو يخفف من التهديد الانفعالي. وطبقاً لكل من ايفانز وهاورد (Evans & Howerrd, 1973) فقد أمكن من خلال الحيز الشخصي التحكم في العدوان والتقليل من الضغط أو المشقة Stress. وهناك الكثير من البيانات المتوفرة التي تتسق مع هذا التفسير. وتظهر عدة دراسات - على سبيل المثال - أن الأشخاص يحتفظون بمسافات تفاعل أكبر في أعقاب إهانة أو عندما يتلقون رداً سلبياً على أفعالهم في عمل ما (Karabenick & Meisels, 1972; O'Neal, Braunault, Carifio, Froutuine & Epsteir 1984). كما يستخدم الأشخاص أيضاً مسافات تفاعل أكبر في المواقف التي يكون احتمال الخطر والتهديد فيها قائماً. مثلما يحدث عند تقويم الجاذبية الجنسية أو الكفاءة الاجتماعية عن طريق الآخرين (Brady & Walker, 1978; Dosey, Meisels, 1969).

ويعتقد كل من ايدني ووالكر وجوردان (Edney, Walker & Jordan, 1976) أن مصادر الحيز الشخصي تطمئنتنا على قدرتنا للحفاظ على السيطرة في المواقف الاجتماعية. وأكد كل من ستروب وورنر (Strube & Werner, 1982)، أن الحيز الشخصي يكون أكبر بالنسبة للأفراد الذين لديهم حاجة مرتفعة للسيطرة، والأفراد الذين يواجهون تهديداً لسيطرتهم من قبل الآخرين.

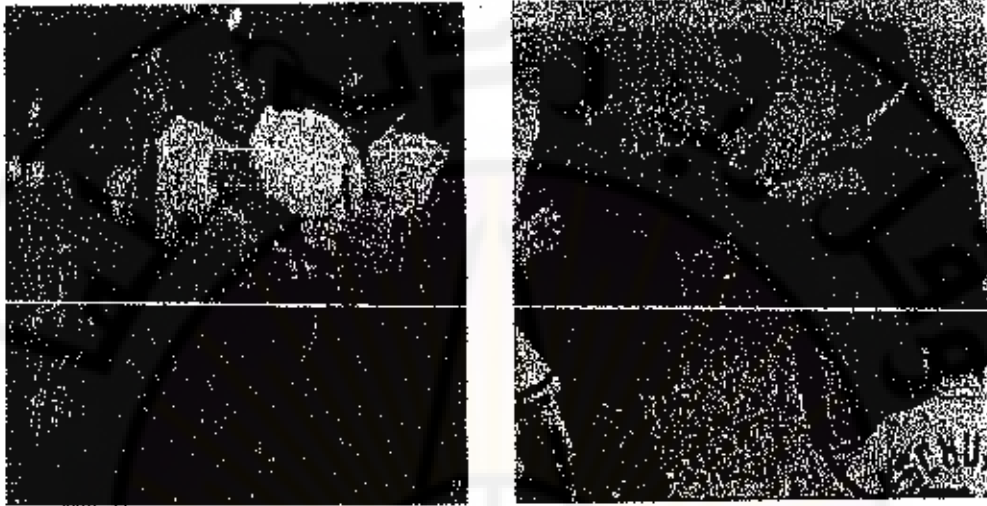
وعلى نفس المنهج، ذكر كارابينيك وميدلس (Karabenick & Meisels

(١٩٧٢) أن الناس القلقين بشكل عام في المواقف الاجتماعية أو هؤلاء من ذوي تقدير الذات المنخفض، يحتفظون كذلك بمسافات تفاعلية كبيرة. وتوصل عدد من الدراسات التي أجريت في السجون إلى أن الأفراد الذين لهم تاريخ في سلوك العنف (والذين يشعرون مراراً بتهديد الآخرين لهم)، يكون لديهم حيز شخصي أكبر من الآخرين، خصوصاً من خلفهم (Kinzel, 1970; Roger & Schaleakp, 1976). وفي إحدى هذه الدراسات وجد دابس وفولر وكار Dabbs, Fuller & Carr (١٩٧٣) أن النزلاء يكون بينهم حيز شخصي أكبر من طلاب الجامعة، ولكن أظهرت كلتا المجموعتين حيزاً أكبر عندما وضعوا في أحد أركان الغرفة منه عندما وضعوا في وسطها.

- تعديل المدخلات الحسية (أو التوافق معها) يسلك الناس غالباً بعدة طرق للحفاظ على مستوى مثالي من التنبيه أو الاستثارة، أي في مستوى لا يعلو كثيراً ولا ينخفض كثيراً. وهناك وظيفة أخرى للحيز الشخصي هي مساعدة الأفراد على تنظيم كمية المعلومات الحسية التي يتلقونها من الآخرين، وقد اكتشف نسبت وستيفن Nesbitt & Steven (١٩٧٤) هذه الإمكانية في دراسة أجريت بملاهي كاليفورنيا. وقد استعاننا بمساعدة فتاة ذات شعر أسود لتكون «الشخص المنبه أو المثير» في التجربة. ووقفت في طابور لركوب العديد من الألعاب، بينما يلتقط أحد المصورين صوراً دون ملاحظة. وكانت هذه الفتاة لنصف الوقت بمثابة شخص مثير بشدة ترتدي ألواناً زاهية وملابس تلمع وعطراً فواحاً. وفي باقي الوقت كانت ترتدي ملابس تتسم بالخشمة ولا تضع عطراً. وبعد فحص الصور أوضح الباحثون أن الناس الآخرين في الصف وقفوا على مسافة أكبر من الشخص المثير ذي الملابس البراقة اللامعة بشدة، أكثر منه في حالة الشخص المنخفض الإثارة ذي الملابس المحتشمة. وفي دراسة أخرى توصلنا لنفس النتائج مع شخص مثير من الذكور. وهكذا يبدو أن تغير حجم حيزنا الشخصي قد يكون واحداً من أساليب كثيرة نستخدمها عندما نعدل أو نتوافق مع كمية الإثارة الحسية التي نتلقاها من بيئتنا.

- الاتصال ونظام المودة: يميل الفرد لأن يربط كلمة المودة Intimacy (أو

التقارب) بالمشاعر الإيجابية الحسنة بين الناس. أما بالنسبة لعلماء النفس فتشير كلمة المودة أو الحميمة إلى كمية التداخل أو الاندماج Involvement بين الأفراد. وفي ضوء هذا التعريف يكون الشخصان اللذان يتجادلان معاً أو يشاجران معاً متقاربين ضمناً كل مع الآخر. (انظر الصورتان ٥-٣، ٥-٣ب).



صورة (٥-٣، ٥-٣ب): يمكن استخدام السلوكيات غير اللفظية الدالة على القرب للتعبير عن كل من المشاعر الإيجابية والسلبية.

ويعد الحيز الشخصي واحداً من أهم المكونات في نسق السلوكيات غير اللفظية، والتي تستخدم للتواصل وتنظيم كمية التقارب في التفاعل بين شخصين. وتسمى هذه السلوكيات بالسلوكيات الفورية أو المباشرة Immediacy (Mehrabian, 1967, 1969b)، والسلوكيات المتضمنة Involvement (Patterson, 1987).

وبالإضافة إلى المسافة بين الأشخاص فإنها تشتمل على أشياء مثل الابتسامة والاتصال بالعين وحركات الجسم والوضع واللمس. وربما تكون أكثر النظريات تأثيراً في كيفية عمل هذه السلوكيات هي نظرية الاندماج - الصراع Affiliative - Conflict Theory، التي قدمها أرجايل ودين Argyle & Dean (١٩٦٥). وقد اختارا مصطلح الاندماج - الصراع لأنهما اعتقدا أن أي مقابلة بين الأشخاص تتضمن كلاً من ميول الاقتراب أو التجنب بينهم. على سبيل

المثال قد تقترب من صديقك لتعبر له عن المحبة، أو للحصول على معلومات، ولكن أيضاً يمكن أن تبتعد عنه خوفاً من أن تكون غير مرغوب فيك، أو خشية أن تفصح كثيراً عن نفسك. وسوف ينشأ مستوى مريح من التقارب عندما تتوازن هاتان القوتان المتصارعتان، ويتحقق الوصول إلى نقطة التوازن. وبمرور الوقت أصبحت نظرية أرجايل ودين تعرف باسم «نظرية التوازن» Equilibrium Theory. وهكذا يوجد في بداية كل تفاعل فترة من عدم الاستقرار غير اللفظي، والتي يحاول خلالها كل شخص تحقيق التوازن. وبمجرد أن يتحقق التوازن يتم تعويض أي تغير من جانب الشخص بتغير في السلوك غير اللفظي للشخص الآخر. على سبيل المثال إذا كان «جاري» يتحدث إلى «هيرز»، وفجأة غير مستوى التقارب في التفاعل عن طريق الابتعاد كثيراً عنها، فسوف تحاول أن تستعيد المستوى السابق من الراحة. بالتباعد في سيزه أو عن طريق زيادة كمية الاتصال بالعين، أو أن تجعل حركات جسمها أكثر مباشرة.

ويمكن أن نرى مثالا جيدا للسلوكيات غير اللفظية التي تستخدم نظام التقارب أو المودة Intimacy في سلوك الناس في مصعد مزدحم (انظر المربع). فعندما يصبح المصعد مزدحماً يزداد تقارب الناس من بعضهم البعض، وأحياناً يتلامسون. ومن الطبيعي أن تزيد إشارات التداخل، ويرتفع مستوى من التقارب. ومع ذلك، فنظراً لأن هؤلاء الناس غرباء عن بعضهم البعض، ولا يرغبون في مثل هذا التفاعل الودي فإنهم يقومون بتعديل السلوكيات الأخرى غير اللفظية للتعويض عن الاقتراب غير المرغوب. وينظر كل فرد للأمام ويتجنب الاتصال بالعين (عادة ما ينظر إلى رقم الأدوار التي تظهر في أعلى الباب). وتكون الملامح جامدة أو متصلبة، ويتحاشى كل فرد ملامسة الآخر قدر الإمكان.

وإذا كنت تشك في مدى أهمية هذه السلوكيات، حاول مواجهة الطريقة الخاطئة في مصعد، عندما تستند على الأشخاص المجاورين لك، ثم لاحظ عدم الراحة لدى من يقف بجوارك (إذا كان لديك شجاعة كافية لأن تحاول فعل هذا)، فتأكد أنك ستلاحظ عدم الراحة الشديدة التي تشعر بها عندما تنتهك معايير الخيز الشخصي.

حاول أن تفعل ذلك

سلوك صعود وهبوط مصعد

توفر المصاعد فرصة مثالية لملاحظة محاولات الأفراد تضخيم المسافة بينهم وبين الآخرين في المصعد. ولكي ترى هذا اذهب إلى مبنى يكون فيه استخدام مكثف لمصعد، واقض بعض الوقت صعوداً وهبوطاً ولاحظ كيف يأخذ الناس مواقعهم في أثناء دخول المصعد. سوف يقف أول أربعة أشخاص (ومن ضمنهم أنت) في الأركان الأربعة. وقد يختار الشخص الخامس مركز المصعد تماماً. بعد اختيار هذه الأماكن كيف يمكنك أن تتنبأ بمواقع الآخرين؟ ما خصال شخصية من يقف بجوارك، والتي تجعله أكثر أو أقل للتعدي المكاني؟ تأكد من أن تلاحظ أنواع السلوك مثل الابتسامة، واتجاه الحقل gaze التي تظهر عندما يزدحم المصعد جداً وتكون المسافات بين الأشخاص متقاربة بشكل غير مريح.

وفي الدراسات التي تختبر دقة نموذج أرجايل ودين يتفاعل المبحوثون مع شخص غريب يجلس في المعمل، والذي تتغير سلوكياته المباشرة خلال المحادثة. وقد تنبأ أرجايل ودين أن هذا التغير سوف يعادله أو يكافئه تغير في السلوكيات غير اللفظية للمفحوص. وتدعم معظم الدراسات هذا التنبؤ، وأن الاتصال بالعين والمسافة بين الأشخاص هي السلوك الذي يمكن قياسه بشكل متكرر: (Aiello, Jones, 1971; Argyle & Ingham, 1972; Baxter & Rozelle, 1975; Carr & Dabbs, 1974; Coutts & Ledden, 1997; Goldberg, Kiesler & Collins, 1969; Patterson, Mullens & Romano, 1971). وبمرور الوقت أصبحت نظرية التوازن Equilibrium Theory بمثابة نموذجاً وصفيًا مقبولا بصفة عامة.

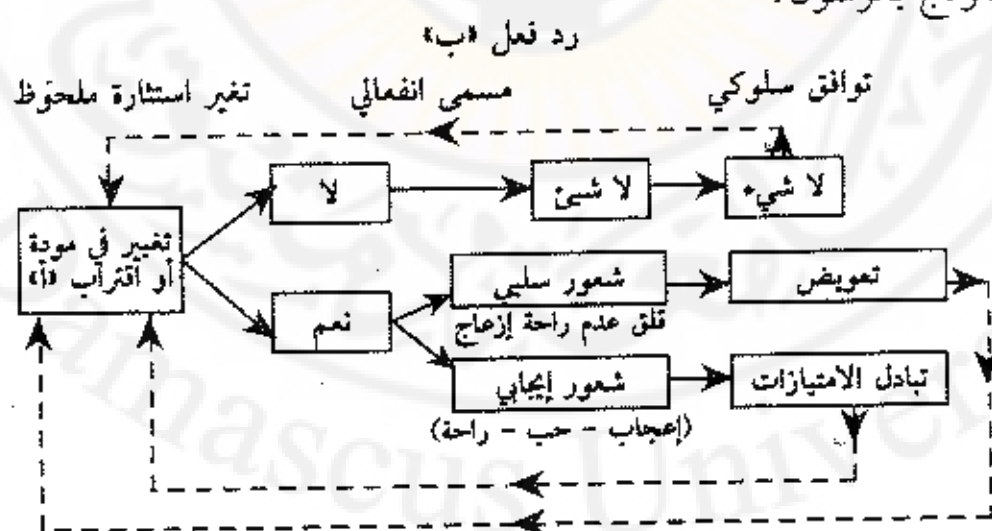
وبينما تدعم معظم البحوث نموذج التوازن، وجدت بعض الدراسات أن الأفراد الذين يتفاعلون مع أصدقائهم يزدون من التقارب غير اللفظي بدلاً من الاستعاضة عنه، كما تنبأ أرجايل ودين، (Breed, 1972; Jourard & Friedman, 1970; Schneider & Hansvick, 1974).

وقد أدت هذه المشكلة التي اقترنت بمعلومات جديدة من البحث الذي أعقبها، أدت إلى تعديلات في النظرية (Aiello, Thompson, Baum, 1981; Argyle & Cook, 1976) ونمو تصورات نظرية مختلفة تماماً عن عمل السلوكيات

الفورية أو المباشرة وغير اللفظية (Burgoon & Jones, 1976; Cappella & Greene, 1982; Marus-Kaplan & Kaplan, 1984; Patterson, 1976, 1982).

وقد حاول باترسون (١٩٧٦) شرح لماذا يحدث أحياناً تبادل الامتيازات في التقارب أو المودة غير اللفظية. وكما رأيت فإن خبرة الأشخاص بمستويات الاستثارة تتأثر بالسلوكيات غير اللفظية المحيطة بهم، خاصة بالمسافة بين الأشخاص، وسلوكيات الحملقة gaze. وعلى الرغم من ذلك فشل نموذج أرجايل ودين في أن يأخذ في الاعتبار آثار التغيرات في مستويات الاستثارة على السلوكيات غير اللفظية. وافترض باترسون أن تغير الاستثارة (والتقويم لهذا التغير إيجاباً أو سلباً) والذي يمر به الشخص في تفاعل معين يؤثر على قراره في كيفية الاستجابة إلى سلوك الرفيق.

وطبقاً لنموذج باترسون تنعكس تغيرات المودة في سلوكيات الشخص «أ» في أثناء تفاعله مع الشخص «ب»، وتظهر في تغيرات الاستشارة لدى الشخص «ب». ويكون تقويم الشخص «ب» لتغير الاستشارة إما ساراً أو غير سار. فإذا أدرك الشخص تغير الاستشارة على أنه سار وسمح فسوف يعكس الشخص «ب» مستوى المودة الجديدة التي عبر عنها الشخص «أ»، وذلك للمحافظة على مستوى الاستشارة السار. أما إذا كان تغير الاستشارة غير سار فسوف يكون رد فعل الشخص «ب» على سلوك الشخص «أ» هو تغيير مسافته أو مسافتها، أو اتباع سلوكيات أخرى لتعديل مستوى المودة بشكل أكثر رضا. ويوضح شكل ٥ - ١ نموذج باترسون.



شكل (٥ - ١) نموذج الاستشارة لباترسون عن الاقتراب (المودة) بين الأشخاص. (المصدر: Patterson, 1976).

ويمكن فهم نموذج باترسون بالحدس أو البديهة ما دام يتفق مع الدليل
الامبريقي العام. ومع ذلك فلم يتم اختباره بشكل واضح. وقد وجد شيفر
وباترسون Schaeffer & Patterson (١٩٨٠) أن الحلقة المباشرة بواسطة أحد
الذكور المشاركين في التجربة قد ترتب عليها رد فعل سلبي قوي لدى الذكور الذين
أجريت عليهم التجربة، عندما يدرك هذا الوسيط أو المشارك على أنه شخص غير
منسجم معهم، ويختفي ذلك عندما يكون منسجماً معهم. كما أوضح عدد من
الدراسات أن زيادة المودة غير اللفظية تزيد من ردود الفعل المحبة للآخرين في
السياقات الاجتماعية الإيجابية، في حين تزيد من ردود الفعل غير المرغوبة عندما
يكون سياق التفاعل سلبياً (Ellsworth & Carlsmith, 1968; Ellsworth,
Freedman, Perlick & Hoyt, 1978; Kleinke & Pohlen, 1971; LeCompte &
Rosenfeld, 1971; Schiffenbauer & Schiavo, 1976; Storms & Thomas,
1977). وقد حاول القليل من الدراسات الربط بين ردود الفعل الوجدانية
والسلوكيات غير اللفظية للمبحوثين. ولكن هذه الدراسات تمدناً بتأييد محدود أو
ضعيف لنموذج باترسون (Foot, Chapman & Smith, 1977; McAndrew, Gold
Lenney & Ryckman, 1984; Patterson, Jordan, Hogan & Frerker, 1981).

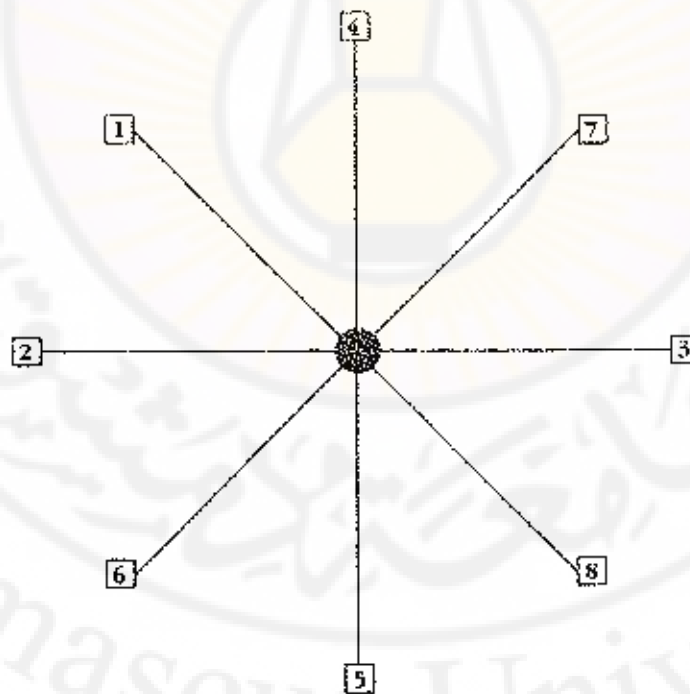
وعلى الرغم من أن جميع عناصر سلوك الحيز الشخصي لم تفهم تماماً بعد
فمن الواضح أن الحيز الشخصي يساهم في تنظيم مودتنا مع الآخرين، وبعد
هذا مهماً في تنظيم ردود أفعالنا الوجدانية نحو الآخرين بينما يتحكم في
استجاباتهم لنا (Burgoon, 1985; Patterson, 1987).

قياس الحيز الشخصي:

القضية الحاسمة في أي بحث عن الحيز الشخصي هي الطريقة التي يختارها
الباحث أو الفاحص لقياس الحيز الشخصي للأفراد الذين هم موضع الدراسة،
وقد استخدم في ذلك مجموعة كبيرة متنوعة من الأساليب، والتي يمكن تقسيمها
إلى ثلاث فئات هي: مقاييس المحاكاة/ الإسقاط، وطرق مسافة - التوقف
المعملية، والملاحظة الطبيعية.

مقاييس المحاكاة/ الإسقاط : Simulation/ Projection Measures

إن محاكاة المواقف الاجتماعية والأساليب الإسقاطية كانتا أكثر الطرق شيوعاً في دراسة الحيز الشخصي، خصوصاً خلال السنوات الأولى من دراسته، وقد اعتمدت أولى أساليب المحاكاة على استخدام صور ظليلة لراشدين، وأطفال، وذكور وإناث، وأحياناً كلاب أو أشكال أخرى قد تكون مهمة في العلاقات بين الأفراد (Kuehne, 1962a, 1962, 1964; Little 1965; Pederson, 1973). ويطلب من المبحوثين في دراسة المحاكاة أن يتخيلوا أن هذه الأشكال تمثل إناس حقيقيين، وأن يضعوا الأشكال في ترتيب مكاني يناسب الموقف الذي يصفه المجرّب، ويفترض أن تعكس المسافات النسبية التي يتركونها بين الصور المسافات الموجودة في المواقف الاجتماعية الفعلية. وبمرور الوقت، تطور استخدام المقاييس الإسقاطية التي تقوم على اختبارات الورقة والقلم. ومن أكثرها شيوعاً هو مقياس المسافة المريحة في العلاقات بين الأشخاص Comfortable Interpersonal Distance Scale (CID) Duke & Nowicki، والذي طوره دوك ونويسكي (١٩٧٢). (انظر شكل ٥ - ٢).



شكل (٥ - ٢) مقياس دوك ونويسكي للمسافة المريحة بين الأشخاص (المصدر: (Duke & Nowicki, 1972).

في هذا المقياس يتخيل المستجيبون أنهم راقفون في وسط حجرة. ويتم إخبارهم أن شخصاً آخر يقترب منهم من واحد من ضمن ثمانية اتجاهات يتم الإشارة إليها في الاختبار. ثم يضعون علامة على الخط المناسب لتحديد النقطة التي يبدأ الشعور عندها بعدم الراحة مع مسافة المتقدم. ويتم تكرار هذا مع كل توجه حتى يتم مسح الحيز الشخصي تماماً.

إن أسباب شيوع المقاييس الإسقاطية واضحة؛ حيث يسهل تطبيقها وتصحيحها، كما أنها سريعة وأقل تكلفة من الطرق الأخرى في قياس الحيز الشخصي. ويرى بعض الباحثين أن مقاييس الحيز الشخصي تمدنا في الحقيقة بتقديرات متسقة وصادقة عن هذا الحيز (Knowles, 1980). كما أن هذه المقاييس ما زالت تستخدم في البحث (Gifford, 1982; Sanders, Hakky & Brizzolara, 1985) ومع ذلك فإن هناك شعوراً متزايداً بين الباحثين بأن الاعتماد على مثل هذه المواقف الافتراضية يعد غير ملائم، وأن ثبات المقاييس الإسقاطية المستخدمة حالياً ليس جيداً بما فيه الكفاية (Aielo, 1987; Hayduk, 1983; Love & Aiello, 1980; Sundstrom & Altman, 1976). ونتيجة لذلك انخفض اعتماد الباحثين على المقاييس الإسقاطية في دراسة الحيز الشخصي.

طرق مسافات التوقف المعملية: Laboratory Stop- distance Methods

أمكن من خلال استخدام مقاييس مسافات التوقف في المعمل التغلب على بعض المشكلات التي ارتبطت بالمقاييس الإسقاطية. ففي مثل هذا النوع من الدراسة يواجه المبحوث في أثناء الاختبار بشخص حقيقي، ويطلب منه أن يشير إلى المسافة التي يشعر هو أو هي بأنها مريحة للتفاعل بينهما. أحياناً يقف المبحوث ثابتاً بينما يقترب الشخص الآخر. ويوقف المبحوث الشخص الآخر القادم إليه عندما يصل إلى مسافة يشعر عندها بالراحة، وفي دراسات أخرى يقترب المبحوث من الشخص الآخر، ويتوقف عندما تكون المسافة مريحة. وبعد هذا أكثر واقعية عند تناول أو تقديم بضعة أشكال من الملابس، ولكنها مع ذلك تُعد اصطناعية لأنها لا تمثل تفاعلاً اجتماعياً فعلياً. لهذه الطريقة أيضاً حدودها

- كأى دراسة معمليّة - ومنها إمكانية معرفة الخصائص المطلوبة وعدم التأكد من كيفية إمكان تعميم النتائج إلى العالم الحقيقي. وعلى الرغم من هذه المشكلات يحتفظ هذا الأسلوب أو التكنيك بشعبيته، وتم استخدامه في العديد من الدراسات (على سبيل المثال: Bailey, Hartnett & Gibson, 1972; Hartnett, Bailey & Gibson, 1970; Hayduk, 1981; Horowitz, Duff & Stratton, 1964).

- المشاهدة في مواقف طبيعيّة: Naturalistic Observation

يتفق علماء النفس على أن البحث المثالي هو بحث يتم إجراؤه في مواقف تكون طبيعيّة قدر الإمكان، حيث إن هذه المواقف هي التي يسعى العلماء إلى فهمها. سوف نتذكر من الفصل الأول، على الرغم من ذلك أن البحث الميداني به الكثير من المصاعب، فالتمثيل أو الاختيار العشوائي عادة ما يكون غير ممكن. ويجب التغلب على الكثير من العقبات الأخلاقية والمنطقية. كما أن القياسات قد لا تكون بنفس دقة القياسات المأخوذة من العمل. ومع ذلك فإن هناك شيوعاً أو سيطرة قوية للبحث الميداني في مجال دراسة الحيز الشخصي. وعادة ما يسجل الفاحص على شرائط فيديو أو بالصور الفوتوغرافية الأشخاص في المواقف الطبيعيّة. وعادة ما تستخدم قطع الفلين أو المطاط، وأحجار الرصيف التي تكسي بها الأرضية المصنوعة من شريط لقياس المسافات بين الناس موضع الملاحظة. وقد أجريت الدراسات الميدانية في أماكن عديدة بما في ذلك الحضانات (Smetana, 1978) Bridgeman & Bridgeman, 1978، والملاهي (Nesbitt Steven, 1974)، والشواطئ (Thimas, 1973)، وحدائق الحيوان (Baxter, 1970)، وجماعات المناقشة (Hentrick, Giesen & Coy, 1974)، وشوارع المدينة (Dabbs & Stokes, 1971) Heshka & Nelson, 1972; Jones, 1971.

شكل الحيز الشخصي:

مع الوضع في الاعتبار التنوع الكبير في الأساليب المتاحة للباحثين فإنه من المدهش أن يكون مثل هذا البحث المحدود قد ركز على الشكل العام للحيز

الشخصي، فمعظم الدراسات قد ركزت على مسافات التفاعل وجهاً لوجه. إن شكل الحيز الشخصي يتسق مع «تصور الفقاعة» والتي أمكن تصورهما على أنها دائرية الشكل. وقد نما هذا الافتراض من البحث بأن مقاييس الحيز الشخصي تتم من ناحية واحدة (عادة حول الرأس). ومن الملائم أكثر أن ننظر للحيز الشخصي في ضوء ثلاثة أبعاد آخذين في الاعتبار. كلاً من المكونات الأفقية والرأسية (Holahan, 1982). ويشير البحث المبدئي في ظل هذا الإطار إلى أن حجم الحيز الشخصي يختلف باختلاف أجزاء الجسم، والذي ينتج عنه شكل أسطواني غير منتظم (Hayduk, 1981) وقد تعقدت هذه القضية أكثر عندما أشارت البحوث إلى أن متغيرات مثل جنس أو نوع الشخص تؤثر أيضاً على شكل الحيز الشخصي (Fisher & Byrne, 1975; Harris, Luginbuhl & Fishbein, 1978).

المتغيرات المؤثرة في الحيز الشخصي:

تبين أن هناك العديد من المتغيرات التي تؤثر على حجم وشكل الحيز الشخصي. وسوف نقدم فيما يلي وصفاً موجزاً لأكثر هذه المتغيرات أهمية. ولكي نواجه الشك المتزايد في الدراسات القائمة على مقاييس المحاكاة أو الإسقاطية، فقد اعتمدت بشكل أكبر على البحوث التي استخدمت أساليب أخرى.

* العوامل الموقفية: Situational Factors

ربما يكون أفضل اقتراح عام تم تدعيمه بخصوص الحيز الشخصي هو ذلك الشعور الإيجابي والصدقات، والتجاذب، والمرتبطة بالتقارب اللصيق (Sundstrom & Altman, 1976, P. 50). ويقرر الأشخاص عادة أنهم مرتاحون أكثر عندما يقف صديق بالقرب منهم عندهما يقف غريب (Ashton, Shaw & Worsham, 1980). وفي الثنائيات الجنسية المختلطة، غالباً ما يرتبط التجاذب بالمسافة الفيزيائية الوثيقة (Allgeier & Byrne, 1973; Byrne, 1971; Byrne, Ervin & Lamberth, 1970).

وتشير دراسات أخرى إلى أن الإناث يقمن في هذه الثنائيات، بتعديل
حيزهن الشخصي ليعكس التجاذب لزملائهن. كما تنطبق العلاقة بين التجاذب
ومسافة التفاعل في ثنائيات الإناث (بين الأنثى والأنثى)، ولكن ليس في ثنائيات
الذكور (Edwards, 1972; Heshka & Nelson, 1972).

بشكل عام فإن أي شيء يرتبط بالتجاذب الزائد بين الأشخاص (الشبابه
على سبيل المثال)، يرتبط أيضاً بمسافات التفاعل الوثيق. وتؤثر العلاقة
الوجدانية بين الأفراد على حجم الحيز الشخصي فيما بينهم، ولكن تعد مكانة
العلاقة مهمة أيضاً، فكلما ارتفعت مكانة الشخص في العلاقات، فإنه تقريباً
يمتلك ويتحكم ويستخدم مسافة أكبر بالمقارنة بالفرد ذوي المكانة المنخفضة
(Henley, 1977; Sommer, 1969).

ويستخدم البناء الفعلي للحيز الفيزيقي لفرض تأثير قوي على الحيز
الشخصي. وقد لخص فيشرويل وبوم Fisher, Bel & Baum (١٩٨٤) آثار
العمارة على السلوك المكاني عن طريق ملاحظة أن الاستخدام الإنساني للحيز
عادة ما يعكس الاهتمام النهائي عن الأمان؛ فعندما نعرف أن الهروب (إن كان
ضرورياً)، سهلاً، فأنا وأنت نحتاج إلى حيز أقل من ذلك. وبالتالي فتحن
نحتاج إلى حيز أكبر حينما نجلس أكثر منه عندما نقف (Altman, Vinsel, 1977)
وحيز أكبر داخل الأماكن المغلقة عن الأماكن المفتوحة (Cochran, Hale, 1977)
(Hissam, 1984; Little, 1965; Pempus, Sawaya & Cooper, 1975) وحيز
أكبر عندما نكون في ركن من الحجارة أكثر منه عندما نكون في مركزها أو
وسطها (Dabbs, Fuller & Carr, 1973; Tennis & Dabbs, 1975) وكذلك
عندما تكون السقوف منخفضة والحجرات صغيرة يحتاج الأفراد إلى حيز شخصي
أكبر (Cochran & Urbanczyk, Daves & Swaffer, 197.., Savinar, 1975; White, 1975).

وتوصل بوم وريس وأوهار Baum, Reiss & O'Hara (١٩٧٤) إلى أن
الاستخدام الاستراتيجي للحواجز أو الفواصل يقلل من الشعور بالتعدي

المكاني، ويزيد من كمية الحيز المريح في المكاتب، وفي غرف الانتظار والأماكن العامة عندما يكون الزحام مشكلة.

وهناك عوامل أخرى تتصل باستخدام الحيز الشخصي. فإذا طلب شخص خدمة أو مساعدة، فإنه يكون أكثر ترحيباً بمسافة التفاعل القريبة، و عندما يحدث تلامس، (Baron, 1978; Willis & Hamm, 1980). كما تبين أن الأشخاص الواقفين في طابور لمشاهدة فيلم سينمائي يحتوي على مناظر جنسية واضحة، تكون كثافتهم ضعف كثافة الناس الواقفين في انتظار مشاهدة فيلم عائلي (Sommer, 1969).

* العمر: Age

على الرغم من أن هناك عشرات الدراسات عن التغيرات الارتقائية في استخدام الحيز الشخصي، فإن نتائج هذه الدراسات لم تكن متسقة. كما أنه من غير الواضح بالضبط متى يبدأ الأطفال في استخدام حيز متسق بين بعضهم البعض، لكن يتفق علماء النفس على أن احتياجات الأطفال للحيز الشخصي تزداد بشكل ثابت مع تقدم العمر (Burgess, 1983; Hayduk, 1983). فالأطفال الصغار جداً يقتربون جداً من بعضهم البعض في أثناء اللعب، ويتلامسون أكثر من الأطفال الأكبر سناً (Burgess, 1981).

ومن الواضح أن المعايير المكانية مشابهة جداً لتلك المستخدمة بواسطة الراشدين (Aiello & Aiello, 1974; Aiello & Cooper, 1979; Altman, 1975; Evans & Howard 1973). كما تظهر الفروق الجنسية مبكراً، حيث تستخدم البنات مسافات أقرب من الأولاد (Guardo, 1976) ومن الواضح أن الراشدين يدركون عدم ثبات سلوك الأطفال المكاني. فالتعدي المكاني للأطفال تحت سن عشر سنوات نادراً ما يولد استجابات سلبية (Dean, Willis & La Rocco, 1976; Fry & Willis, 1971).

وعلى الرغم من أن هيشكا ونيلسون (Heshka & Nelson 1972) قد أشارا إلى أن كبار السن قد يستخدمون مسافات أصغر في التفاعل من تلك التي

يستخدمها الصغار، فإنه لا يوجد أي بحث آخر عن التغيرات المحتملة في استخدام الحيز الشخصي بعد ما يصل الفرد إلى مرحلة الرشد.

* النوع (الجنس): Sex

يعد نوع الشخص عاملاً مهماً للغاية في تحديد السلوك المكاني في معظم المواقف، نظراً لأن الجنس يتفاعل مع متغيرات أخرى شخصية وموقفية عديدة، ويجب على الفرد أن يتوخى الحذر عند عمل تنبؤات قاطعة عن السلوك المكاني بناء على الجنس وحده (Aiello, 1987, Hayduk, 1983) ولعل الرأي الشائع (الذي يدعمه الدليل الإمبريقي الكبير) هو أن الإناث يستخدمن مسافات تفاعل أقل من الذكور في جميع الأعمار (Aiello & Jones, 1971; Lott & Sommer, 1967; Skolnick, 1978; Wittig & Empey, 1970; Sussman & Rosenfeld, 1982). ولدى الذكور تسامح أقل بالنسبة للمسافات القريبة جداً (Aiello, 1987)، ويعد الرجال الذين يتعدون على المساحات الخاصة بالآخرين أكثر إزعاجاً بالنسبة للأفراد الآخرين من الجنسين إذا قورنوا بتعدي النساء (Ahmed, 1979; Bleda & Bleda, 1978; Krail & Leventhal, 1976; Murphy, 1986; Berman & Berman, 1978; Rüstemli, 1986). وفي ضوء هذه المعلومات ليس من المستغرب أن يقترب الجميع من النساء أكثر من اقترابهم من الرجال (Kassover, 1972; Long, Selby & Calhoun, 1980).

وقد تم الحصول على الكثير من المعلومات عن الاختلافات بين الجنسين في السلوك المكاني من خلال الدراسات الميدانية، حيث ينتهك المجرب الحيز الشخصي لأشخاص آخرين لا يعرفون ذلك في الأماكن العامة. وتكشف هذه الدراسات عن فروق كبيرة بين استجابات كل من الذكور والإناث للتعدي المكاني.

وفي هذا الشأن قام فيشر وبايرن Fisher & Byrne (1975) بانتهاك الحيز الشخصي لطلاب جامعيين يستخدمون المكتبة. ووجدوا أن الإناث قد شعرن بالانزعاج بالتعدي المكاني من الجانب، بينما وجد الذكور أن التعدي من الأمام

هو الأكثر إزعاجاً. ويتصل هذا بشكل ما بدون شك بالملاحظة بأن الذكور يفضلون الجلوس وجهاً لوجه، في حين تفضل الإناث الجلوس جنباً لجنب (Sommer, 1959). واستنتج فيشر وبايرن أن للإناث والذكور أحيازاً شخصية مختلفة الشكل. ومع ذلك فإن القضية أكثر تعقيداً، نظراً لوجود عوامل أخرى كثيرة تعمل في هذه المواقف وتؤثر على الاستجابات، وعلى سبيل المثال عندما تم التعدي على أحياز شخص على مقاعد طلاب الجامعة غادر الذكور بسرعة أكبر عندما ظل الشخص المتعدي صامتاً، وغادرت الإناث المكان سريعاً عندما طلب الشخص المتعدي الإذن بالجلوس (Sundstrom & Sundstrom, 1977). وبالمثل تعدي هاري ولوجنبهل وفيشباين Harris, Luginbuhl & Fishbein (١٩٧٨) على الحيز الشخصي لبائع من الخلف في متجر كبير. وبغض النظر عن جنس المتعدي، كان الذكور أكثر ميلاً لأن يتحركوا، بينما كانت الإناث أكثر ميلاً لأن يتظاهرن بأنهن لم يلاحظن التعدي.

وهناك سلسلة من الدراسات اهتمت بفحص ردود الفعل بالنسبة للتعديات المكانية في المصاعد، والتي جاءت ببعض النتائج الشيقة عن الفروق الجنسية. في هذه الدراسات يدخل الأشخاص مصعداً يحتوي على أشخاص آخرين، ويوجد كل منهم في موقع بحيث يتعدون على الحيز الشخصي للآخرين. وقد تعدي معظم الأشخاص على الحيز الشخصي للإناث وليس الذكور (Buchanan, Juhnake & Goldman, 1976).

وفي سلسلة من ثلاث تجارب وجد بوشنان وجولدمان وجونك Buchanan, Goldman & Juhnke (١٩٧٧) أن الإناث يفضلن الوقوف بالقرب من الإناث الأخريات اللاتي ينظرن إليهن، ولكن يتجنبن الرجال الذين ينظرون إليهن. وتؤكد دراسات أخرى على أنه عندما تضطر الإناث إلى التعدي على الحيز الشخصي للآخرين فإنهن يكن أكثر ميلاً لاختيار شخص تبدو عليه المودة، أو شخص ابتسم لهن. ولكن الذكور كانوا أكثر ميلاً إلى اختيار شخص تظاهر بأنه لا يلاحظهم (Hughes & Goldman, 1978; Lockard, McVittie & Isaac, 1977).

وقد تعقدت القضية أكثر في الدراسات التي تشير إلى أن المسافة التفاعلية المفضلة لدى الإناث مع الذكور قد تعتمد على الفترة الفاصلة في أثناء دورتها الشهرية Menstrual Cycle، حيث يحتمل أن تتأثر المسافة بين الأشخاص بالتذبذبات في عدم الراحة والتوتر والاهتمام بالأنشطة الجنسية (O'Neal, Schutz & Christenson, 1987; Sanders, 1978).

وقد أشارت دراسة لومباردو Lombardo (١٩٨٦) إلى أنه ليس إلى جنس الشخص فحسب ولكن إلى توجه الدور الجنسي أيضاً لدى كل من الأنثى والذكر (على سبيل المثال مدى معرفة الفرد بالأدوار الذكرية أو الأنثوية المتوقعة) باعتبارهما مهمين في تنظيم السلوك المكاني.

* الخلفية العنصرية والثقافية والعرقية:

ميز عمل هل Hall (١٩٦٦) على الاختلافات الثقافية في السلوك المكاني بين «ثقافات البحر المتوسط»، و«ثقافات شمال أوروبا» وذلك لوصف السلوك المكاني. وأوضح أنها فئات ليست قاطعة، وأن هناك بعض الثقافات خاصة في المجتمعات الموجهة، يمكن ألا تتناسب مع أي من المجموعتين. ووفقاً لـ «هل» تشمل ثقافات البحر المتوسط العرب وجنوب أوروبا وأمريكا اللاتينية. ويظهر أفراد هذه المجتمعات كمية كبيرة من المودة في سلوكياتهم المكانية، ويستخدمون مسافات تفاعلية متقاربة جداً، والكثير من التلامس والاتصال بالعين. وتشمل ثقافات شمال أوروبا كل من شمال أمريكا ودول شمال أوروبا مثل ألمانيا وبريطانيا. وفي هذه المجتمعات نجد أن معيار المودة أو الاتصال غير اللفظي أقل استخداماً، ويفضلون مسافات التفاعل الكبيرة، وحيزاً شخصياً أكبر بوجه عام. وأوضح «هل» ظهور بعض المشكلات عندما يتعامل الأفراد من ثقافات مختلفة دون الوعي بالحاجات المكانية للآخرين.

وقد تم وصف ملاحظات «هل» بدقة ولكنها لم تكن كمية أو تجريبية بالمعنى التقليدي المعروف لدى معظم علماء النفس البيئيين. وتدعم بحوث

المتابعة نتائج هل (Sommèr, 1969; Watson & Graves, 1966) ولكن هذه البحوث ليست شاملة أو محكمة، فهناك شك في منهجيتها، كما أنها اعتمدت على استخدام أشخاص يسكنون بعيداً عن بلادهم (Aiello, 1987; Aiello & Thompson, 1980)، كما اعتمدت الكثير من الدراسات الثقافية المقارنة للحيز الشخصي على أساليب المحاكاة والأساليب الإسقاطية بشكل كبير. وليس معنى ذلك أن ما ذكره «هل» غير دقيق، ولكنه لم يتم الكشف عنه على أكمل وجه. ولأن الكثير من البحوث في هذا المجال قد تم في الولايات المتحدة، فقد يكون هناك المزيد من المعلومات المتوفرة عن الفروق بين الثقافات الصغيرة في هذه الدولة أكثر من الفروق بين الدول.

وقد أوضحت الدراسات المتكررة أن مسافات التفاعل بين الأشخاص من جماعات عرقية مختلفة، تكون أكبر من المسافات بين الأشخاص من نفس العنصر أو السلالة (Boorraem, Flowers, Bodner & Satterfield, 1977; Hendricks & Bootzin, 1976; Rosegrant & McCroskey, 1975; Willis, 1966) الأمريكيان من أصل إسباني يتفاعلون بشكل أقرب من الأنجلو أمريكيان (Aiello, 1982) (Jones, 1971; Ford, Graves, 1977; Dogan & Aiello, 1982). وواضح أن الأمريكيان السود والبيض بينهم معايير مكانية وغير لفظية مختلفة (Aiello & Thompson, 1980; La France & Mayo, 1976) وقد يكون لهذه الاختلافات بين الثقافات الفرعية مترتبات ونتائج مهمة. ويذكر جاريت وباكستر وروزيل (Garrett, Baxter & Rozelle, 1981) في دراسة لهم تم فيها تدريب رجال الشرطة من البيض على استخدام مسافات تفاعل مع السود (كبيرة إلى حد ما) ومع البيض (صغيرة إلى حد ما)، وذلك ضمن سلسلة من المقابلات مع المواطنين السود. وقد فضل المواطنون السود بقوة الحيز أو المسافات الشخصية للسود التي قام بها رجال الشرطة، ووصفوهم بأنهم أكثر كفاءة، وشخصيتهم أفضل من الناحية المهنية والاجتماعية. ويفترض شيرر (Scherer, 1974) أن المكانة الاجتماعية الاقتصادية يمكن أن تتغلب على المسافات في الثقافات الفرعية. ففي دراسة على أطفال من الطبقتين: الوسطى والمنخفضة الدخل

استخدم الأطفال من نفس الطبقة الاجتماعية الاقتصادية نفس المسافات بغض النظر عن العنصر أو السلالة.

ملخص الفصل:

تشير مسافات التقارب إلى الدراسة العلمية للسلوك المكاني، وكان عالم الأنثروبولوجيا إدوارد ت. هل رائداً في هذا المجال، حيث قدم أول مخطط لوصف مسافات التفاعل التي يستخدمها الناس في التفاعلات الاجتماعية. ثم تلا ذلك البحث عن السلوك المكاني لدى الإنسان، والذي ركز على مفهوم الحيز الشخصي، والذي يمثل المنطقة المحيطة بجسم الإنسان، والتي لا يتدخل فيها الآخرون دون إثارة الإحساس بعدم الراحة. ويحدث التعدي أو الانتهاك للحيز الشخصي للآخرين درجة من الإزعاج، ويدفعنا غالباً للانسحاب من أمام المتعدي أو الدخيل.

وللحيز الشخصي وظائف كثيرة متنوعة، فهو يخدم أو يفيد من حيث كونه منطقة محايدة تحمي من التهديد الجسدي والنفسي، كما تساعدنا على التوافق مع المدخلات الحسية التي نتلقاها من الآخرين، كما أنه الميكانيزم الأولي الذي نستخدمه لتنظيم حجم المودة التي تكونت لدينا من خلال تفاعلاتنا مع الآخرين.

وقد تم قياس الحيز الشخصي بعدة طرق، فبعض الدراسات استخدمت مقاييس الورقة والقلم الإسقاطية، وبعضها اعتمد على مقاييس عملية تتم في ظل ظروف اصطناعية يتم التحكم فيها، وبعضها الآخر اعتمد على ملاحظة السلوك في المواقف الطبيعية دون معرفة الشخص بذلك.

ويتجه البحث حالياً إلى الدراسات الطبيعية بعيداً عن استخدام اختبارات المحاكاة، والاختبارات الإسقاطية. وتؤثر الكثير من المتغيرات على حجم وشكل الحيز الشخصي، والتي تتضمن عمر الفرد، وجنسه، وخلفيته الثقافية، بالإضافة إلى العديد من ملامح العلاقات بين الأشخاص، والخصائص المعمارية.

الخصوصية

يرتبط مفهوم الخصوصية Privacy كثيراً بمفهوم الحيز الشخصي والإقليمية. وفي الحقيقة تترابط هذه المفاهيم كثيراً لدرجة أنه أحياناً يكون من المستحيل أن نحدد أيها أكثر شمولاً (Taylor & Ferguson, 1980). وكما هو الحال في الحيز الشخصي والإقليمية، تساعدنا الخصوصية على إدارة تفاعلاتنا الاجتماعية للحفاظ على النظام، ولتفادي الصراع مع الآخرين. وقد ارتبطت الفرص (أو الظروف) غير الكافية للخصوصية بالسلوكيات المعادية للمجتمع Antisocial، والعدوان في العديد من الأماكن بما في ذلك السجون (Glaser, 1964)، والسفن البحرية (Heffron, 1972).

قد يتراءى للقارئ لأول وهلة أن الخصوصية هي المفهوم العكسي المباشر للازدحام. وفي الواقع، هذا المفهوم أكثر تعقيداً مما يبدو. فإذا نظرنا لمباشرته الحاجه إلى الانسحاب - سواء الفيزيقي أو النفسي - إلى مكان ما خاص لتجنب الآخرين الكثيرين، فأننا - ومن هذا المنظور - نجد أن الخصوصية والازدحام غالباً ما يرتبطان، وفيما يلي نتناول تعريف الخصوصية، وتحليلها نظرياً من حيث طبيعة حالاتها ووظائفها، ثم نعرض لأبعاد الخصوصية ذات الصلة بالبيئة والتصميم البيئي.

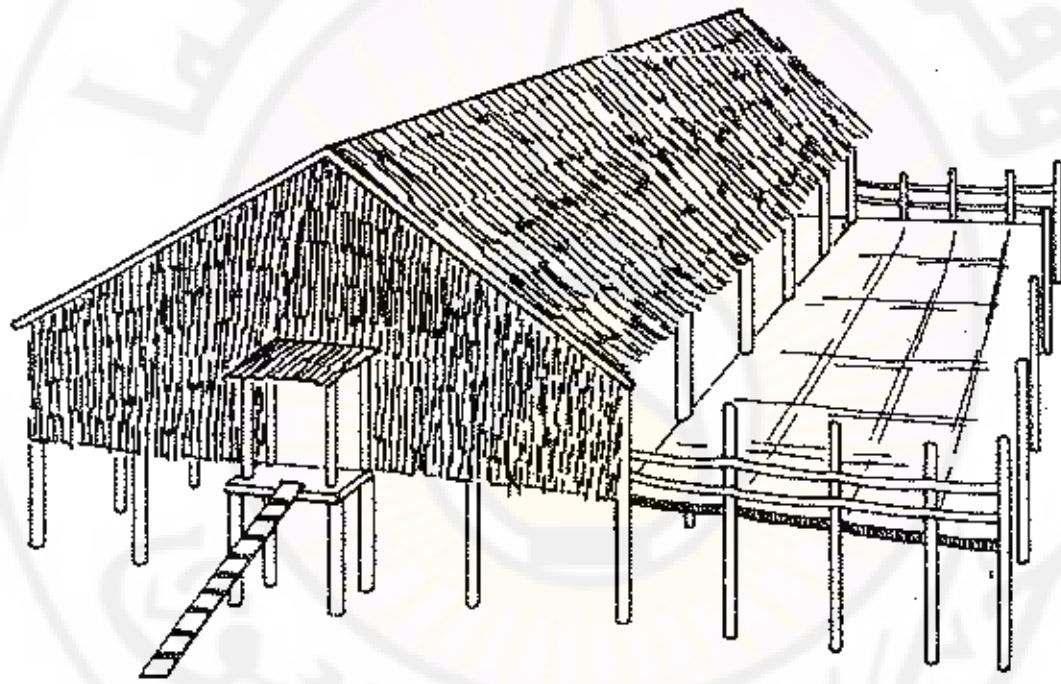
يعرف فشتين Westin (1967) (في 1984) الخصوصية فيما يلي: "ادعاء الأفراد، الجماعات أو الهيئات الحق في تقرير متى يمكنهم إعطاء المعلومات الخاصة بهم للآخرين، وكيف يتم ذلك، وإلى أي مدى، وفي ضوء علاقة الفرد بالمشاركة الاجتماعية، تكون الخصوصية هي "الانسحاب الإرادي والمؤقت للفرد من المجتمع العام من خلال وسائل فيزيقية أو نفسية، سواء في حالة انعزال أو اتصال حميم بجماعة صغيرة، أو بين جماعات أكبر في ظروف مجهولة أو سرية متكتمة". ووفقاً لبروشانسكي وآخرين، (1970) (في 1984 : 15 - 16)، الخصوصية هي حرية الفرد في اختيار جوانب ومعلومات عن ذاته ستكون موضوع للتواصل مع الآخرين، ومع من سوف يتم هذا التواصل في موقف ما. ولا يخطر الفرد في هذا السلوك من أجل الخصوصية في حد ذاتها بل لتحقيق أهداف معينة. ومن هذا المنطلق إذا زودت

الاماكن والاشياء في بيئة ما الفرد بالطرق البديلة المختلفة لتحقيق اهدافه. فان البيئة تعد بمثابة السياق والوسيلة الملائمة لاشباع حاجات الفرد موفره له اكبر قدر من حرية الاختيار. وتكمن جذور الخصوصية في قدرتها على زيادة حرية الفرد في الاختيار بأكبر قدر ممكن، وترتبط هذه القدرة بسلوك الاقليمية... فقدره الفرد على ادعاء احقية في تملك أو استخدام شيء أو مكان ما وفرض سيطرته عليه، تعنى زيادة اختياراته ذات الصلة بهذا المكان أو الشيء. وعندما يستطيع التحكم في البدائل المتاحة، يمكنه تحقيق الخصوصية واشباع حاجاته. ومن ثم، يؤدي اقتحام اقليمه الى اختزال حريته في الاختيار.

وبشكل عام ينظر للخصوصية على أنها الابتعاد عن الآخرين، ولكن تعريف ألتمان Altman (1975) يعطي للمصطلح تعريفاً أكثر تحديداً كما يستخدمه علماء نفس البيئة: فالخصوصية هي التحكم الاختياري للوصول إلى الذات أو إلى جماعة الفرد، لذلك فإن الخصوصية ليست فقط إقصاء الآخرين، ولكنها أيضاً عملية تحكم حدودية من خلالها يسيطر الأفراد على من يتفاعلون معهم، ويحددون كيف تحدث هذه التفاعلات، ومتى تحدث، ويعد الحفاظ على درجة معينة من التحكم في التفاعلات مع الآخرين مهماً للصحة النفسية لكثير من الناس. وتستخدم آليات مختلفة لهذه الغاية، ففي شمال أمريكا يتم التحكم في البيئة الفيزيائية للأبواب والنوافذ والحجرات المنفصلة والدعائم المعمارية الأخرى التي تستخدم بمثابة وسائل أولية لتنظيم الخصوصية. وقد قدم ميلر وشليت Miller & Schilit (1985) ملخصاً ممتازاً للعلاقة بين الخصوصية والبيئة الفيزيائية. (مشكلة الخصوصية هي مشكلة مركزية للعديد من المهتمين بالتصميم والتي تمت مناقشتها في الفصول التالية الخاصة بالبيئات المشيدة). ويعد الاتصال غير اللفظي وملاحظة التقاليد الاجتماعية (على سبيل المثال عدم اتصالك بأستاذ

علم النفس الذي يدرسك بعد منتصف الليل) جوانب إضافية مهمة لتنظيم البيئة بالنسبة للخصوصية، فالناس أكثر ميلاً إلى طلب الخصوصية بطريقة عدائية، ويطلبون من الأشخاص غير المرغوب فيهم أن يغادروا المكان ويتركونهم وحدهم، حيث تدعم مثل هذه الهاديات Cues في البيئة الاجتماعية أو الفيزيائية مشروعية طلبهم للخصوصية (Haggard & Werner, 1990).

وحتى مع اختلاف قواعد الخصوصية من مكان لآخر، فقد طورت جميع المجتمعات أعرافاً اجتماعية تسمح للأفراد بالتحكم في الاختلاء بأنفسهم بطريقة ما. ويُعدُّ هذا حقيقياً في المجتمعات التي تسمح بفرص ضئيلة خصوصية الأفراد مثل أبناء قبرص (Eoors, 1967) Gypsies، وأقزام زائير (Turnbull, 1961) pygmies of Zaire وماليزيا، والتي تمت دراستها بواسطة باترسون وشيزويل (Patterson & Shiswick, ١٩٨١). ويعيش الإيبانيون Iban people في منزل مرتفع يسمى المنزل الطويل (أنظر شكل ٦-١).



شكل (٦-١): منزل إيباني طويل (المصدر: Patterson & Shiswick, 1981)

وهناك أبنية تمتد من حوالي ٢٠ ياردة في طولها، (والتي يمكن أن يسكنها ثلاث أسر) إلى ٣٠٠ ياردة طولاً، والتي يمكن أن تحوي أكثر من ٤٠ أسرة، والأسرة العادية هناك تتكون من الأبوين وأربعة أو خمسة أولاد، وجد أو جدين. ولهذا المنزل الطويل سقف من القش وفناء كبير مفتوح بطول البيت كله. وتشغل كل أسرة حجرة مستطيلة واحدة (من ١٥-٢٠ قدم تقريباً)

تستخدم مطبخاً وغرفة نوم ومنطقة معيشة. وكل غرفة تفتح على منطقة عامة شبه مشاعة للجميع مثل الفناء المفتوح. ومثل هذه الترتيبات المعيشية ينتج عنها كثافة عالية وعدم وجود خصوصية سمعية (الفواصل الرقيقة بين الغرف تنقل الضوضاء)، بالإضافة إلى عدم وجود خصوصية بصرية، حيث تحدث العديد من الأنشطة في المنطقة المشاعة والفناء المفتوح.

ويسمح المستوى المرتفع للاتصال الجماعي في هذا المنزل الطويل بالقليل من الخصوصية بالمعنى الحرفي للكلمة لدى الغرب، ولكن الابانيين يتبنون معايير تساعد على تعويض ذلك. وبالإمكان أن يشغل الأقارب الحجرات المجاورة، وهناك تقسيم صارم للعمل طبقاً لدور الرجل أو المرأة التقليدي (يقوم الرجال بالزراعة وصيد الأسماك، والسيدات يقمن بالطبخ وتنظيف المنزل ورعاية الأطفال)، وتوجد حرية كبيرة في أن يتفصل الفرد عن أسرته، أو أن ينهى ويفسخ صداقاته دون عقوبات سلبية. كما يعد من غير المقبول أن توجه أسئلة شخصية للغرباء، كما أن انتقاد أو تأديب أطفال الآخرين يعد ممنوعاً. وفي الليل تصبح المناطق العامة شبه خاصة، ولا يتجول الأفراد بحرية في المنزل الطويل كما يفعلون في أثناء النهار. ويتوسط الرجل زعيم المنزل في الخلافات، وله السلطة في أن يفرض عقوبات في حالة انتهاك القواعد، وتعدُّ كل أسرة إيبانية وحدة مستقلة اقتصادياً عن جيرانها. وفي داخل الأسرة توضع القواعد. فيما يتعلق بتغيير الملابس، والفصل بين الجنسين في أثناء النوم للأفراد غير المتزوجين فوق ١٢ سنة، وهو ما يوفر درجة من الخصوصية.

وتعد الخصوصية وسلامة الحيز الشخصي مهمة لحياة الأفراد. وتعد الإقليمية هي الآلية الأولى التي تضمن حمايتها، ومن الصعوبة أن نبالغ في أهمية السلوك الإقليمي في التنظيم اليومي لحياتنا، كما تؤدي الإقليمية وظيفة حيوية في تنظيم السلوك الاجتماعي في مملكة الحيوان. وقد تعلمنا الكثير عن الإقليمية من خلال دراسة سلوك الحيوان.

وظائف الخصوصية :

يرى الباحثون في مجال الخصوصية أن عملية تنظيم الخصوصية تخدم مجموعة من الوظائف النفسية الاجتماعية وثيقة الصلة بتقدير الذات وحمايتها ونموها مثل : حماية الاتصال، والتحرر الانفعالي، وتقييم الذات ، والاستقلالية ، وبناء هوية الذات . ويمكن تفصيل هذه الوظائف كما يلي :

حماية الاتصال :

يقول وستن إن الوظيفة الرئيسية للخصوصية هي تنظيم التفاعل مع البيئة الاجتماعية مثل التواصل المحمي والمحدود **Limited and Protected Communication** ونحن كأفراد نؤكد على أهمية أن تكون محادثتنا التي نقوم بها مع الآخرين حميمة، ومحصنة ضد الانتهاك ، وبالذات السمعى ، لذا فإن الأفراد يبحثون عن مكان خاص (لا يتعدى عليه أحد) عندما يرغبون في الحديث مع صديق ، أو محام ، أو معلم ، أو مرشد ، أو زميل العمل ، حول شيء ما شخصي أو هام ، ويمكن القول إنه لن تتم العديد من المحاورات الخاصة إلا إذا استطاع الفرد التحكم في الموقف ، أو وجد المكان الخصوصي ليتحدث مع شخص معين ، حيث يساعد ذلك الفرد في أن يعبر عن مشاعره وأفكاره بصراحة خلال تواصله مع الآخرين، هذا الأمر الذي أصبح مهدداً في ظل الحياة المتحضرة . (Westin, Allan, 1967, p37)

(Altman, I, 1976, p 24) (Gifford, Robert, 1997, p 181)

وتبرز أهمية حماية التواصل أيضاً في أماكن العمل حيث يوجد عدة أفراد في حيز مكاني ضيق بحيث لا تتوافر للفرد أية خصوصية ، ولا يمكنه القيام بمحادثات مع شخص آخر لا يسمعه زملاؤه في العمل . وقد كشفت إحدى الدراسات أن " الموظفين الذين انتقلوا من المكاتب ذات الجدران إلى المكاتب المفتوحة (بدون جدران) كانوا يشعرون بعدم الرضا عن خصوصيتهم والسبب الأساسي لعدم الرضا عند أولئك الموظفين هو ضعف حماية الاتصال ، فهم شعروا بأن الثقة في محادثاتهم قد تضررت . " (Gifford, Robert, 1997, p 181).

تقييم الذات :

يرى المنظرون أن الخصوصية تتيح الفرصة للفرد استيعاب ودمج الخبرات والمعلومات التي يتلقاها خلال تفاعلاته مع الآخرين ومواقف الحياة المختلفة ، والتي قد يصعب عليه أن يدركها بكل أبعادها وهو ما يزال في المنطقة العامة أو مع الناس . حيث يقوم الفرد عادة بتفسير تلك التفاعلات ، وردود فعل أقرانه ، وعلاقاته بالآخرين ، والأحداث التي يمر بها في الحياة من خلال عملية التحليل الاستبطاني ، التي تمكنه أيضاً من وضع خطط وسيناريوهات للطريقة التي سيتصرف بها مستقبلاً ، والتي يرى بأنها تتناسب مع تصوره عن ذاته . وتحقيق

عملية التحليل الاستبطاني هذه عادة عندما تتاح للفرد فرصة الخصوصية . وبشكل عام تمكن هذه العملية الفرد من ترتيب أفكاره ، والموازنة بين البدائل المتاحة أمامه ، من أجل الخروج بأفكار جديدة ، أو حلول لمسائل تشغله ، وبدون أن تتاح للفرد فرصة للانفراد أو الخصوصية ، لن يكون قادراً على صياغة أفكار جديدة ، حيث يتطلب تشكيل الآراء المستقلة وقتاً لتجريب الأفكار واختبارها بشكل مستمر ، وممارسة السلوكيات ، دون خوف من . كل ذلك ... السخرية أو العقاب ، وبحيث يكون هناك وقت لتغيير الآراء قبل أن تكون علنية يتم من خلال الخصوصية التي تقدم الوقت اللازم لحضانة الأفكار والخطط السلوكية ونموها ، وبدون الخصوصية ، فإنه سيتم طرح الكثير من المواقف والأفكار بشكل مقولب ليس فيه إبداع ، ولا يضيف شيئاً جديداً لما هو سائد ، أو معروف من قبل . (Wisten, Alan, 1967,p93)(Altman,I,1976, p 25)

(Bates ,Alan, 1964, p 429)(Gifford, Robert, 1997, p 182).

إضافة لذلك فإن الخصوصية تمكن الفرد من اختيار الوقت الذي يناسبه من أجل الانتقال من حالة التفكير الخاص ، أو مناجاة النفس ، إلى الإعلان عن أفكاره وتنفيذ خطته ، والقيام بالأفعال . (Wisten, Alan, 1967,p37)

التحرر الانفعالي Emotional release:

في ظل العوامل الاجتماعية (كالازدحام) والبيولوجية للحياة اليومية التي تؤدي إلى التوتر والقلق والضغط النفسية تبرز أهمية الخصوصية من حيث إسهامها في تحقيق التحرر الانفعالي الضروري لصحة الفرد النفسية والجسمية معاً ، فهي تتيح الفرصة للأفراد ، ليكونوا بعيدين عن مراقبة العامة ولكيلا يكونوا في حالة تأهب "وليعبروا عن الغضب ، أو الإحباط أو الحزن ، أو أي انفعال قوي آخر دون خوف من رد فعل المجتمع الذي لا يسمح عادة بالتعبير الصريح عن الانفعال ما عدا في ظروف استثنائية مثل الأعراس والأحزان ، لذا فإن الخصوصية تستخدم كأداة للتحرر الانفعالي من خلال ما تتيحه من فرص الانعزال ، أو من خلال حميمية الأسرة ، أو الأقران ، أو من خلال التخفيف عن النفس بين امرأة وامرأة وبين رجل ورجل ، أو في حديقة عامة أو في الشارع حيث تكون مجهولاً للآخرين ، أو في حالة التحفظ والتكتم في حضور مجموعة من الناس . (Westin,Alan, 1967, p 35)

(Robert ,Gifford, 1997, p 183)

وقد لاحظ الباحثون أن هناك ظروفاً معينة تدفع الفرد للبحث عن الخصوصية ، وتعتبر في معظمها عوامل ضغط نفسي أو اجتماعي مثل كثرة العلاقات الاجتماعية التي يجد الفرد نفسه منخرطاً فيها ، حيث يرى البعض أن التشبع الاجتماعي Social Satiation يمكن أن يثير

رغبة الفرد بأن يتعزل عن الآخرين وأن يكون وحده لبعض الوقت . هذا بالإضافة إلى كثرة الأعباء الملقاة على عاتقه ، التي يتوجب عليه القيام بها ، والحاجة إلى "الخلوة" مع الذات بعيداً عن أنظار الآخرين ، أو الحاجة إلى التوحد **Identification**.

وهناك عوامل الإثارة البيئية الزائدة مثل الازدحام والضوضاء ،..... التي لها دور كبير في زيادة دافعية البحث عن الخصوصية ،..... ، فالشيء المنطقي الذي يجب أن يفعله الأفراد عندما يشعرون بحمل حسي زائد **Sensory Overload** أن يعملوا على قطع الإثارة الحسية المتلقاة أو تنظيمها ، وعادة ما يتم ذلك من خلال الخصوصية . وبصفة عامة فإن لدى البشر غريزة طبيعية في الابتعاد عن الآخرين عندما يشعرون باقترب انفعالات غامرة . وقد وجد أيضاً أن من أهم الأسباب التي تدفع الأفراد للخروج إلى البراري والمناطق النائية هو تحقيق التحرر الانفعالي ، حيث توفر لهم تلك المناطق المكان المناسب لكي يسقطوا القناع الاجتماعي الذي يشكل ذاتهم العامة ، والتحرر من التركيز على كيف يبدو ويتصرفون في عيون الآخرين (Morgan, K.B., 1991, P1) (Newell, Patricia, 1995, P. 95) (Russell & Arkkelin, 1995, p271)

وربما تزداد الحاجة إلى هذه الطريقة من تحقيق الخصوصية في هذه الأيام حيث الدعوة للعودة إلى الطبيعة والبعيد عن ضغوطات الحياة العصرية ومتطلبات الأدوار الكثيرة التي يتوجب على الفرد القيام بها.

هوية الذات **Self - identity**:

يقول ألتمان ١٩٧٦ " إن هذه الوظيفة للخصوصية تُبنى على المستويات السابقة من وظائف تنظيم الخصوصية ولها أساس نفسي داخل الذات ، كما تعتبر هوية الذات هدفاً أساسياً لتنظيم الخصوصية. وهي تشير في هذا السياق إلى معرفة الفرد لانفعالاته ، وقدراته ، وصفاته النفسية ، وفهمه لنفسه . و تتضمن معرفة أين يبدأ وأين ينتهي ومعرفة الآخرين لذلك، وما هي جوانب البيئة الفيزيائية والاجتماعية التي تعتبر جزءاً من الذات؟ وما هي الجوانب التي تعتبر أجزاء من الآخرين؟. إنها تشمل بعضاً من فهم الفرد لكفاءاته ، ومقدراته ، وحدوده ، وقواه ، ونقاط ضعفه ، وقدراته ، ونواحي عجزه. (Altman, I., 1976, p 25)

والخصوصية في خدمتها لهوية الذات قد أثبتت في كتابات العديد من الباحثين ، فعلى سبيل المثال ، وصف وستن عام ١٩٧٠ الاستقلال الشخصي بأنه وظيفة رئيسية للخصوصية والتي تتضمن إحساس الفرد بالتكامل **Integrity** والاستقلال **Independence** والقدرة على تجنب الفرد لأن يصبح لعبة في يد الآخرين ، وأنه وسيلة أساسية لتحقيق أهداف الفرد في تحقيق الذات **Self - realization** . وقد تحدث شابمان وزملاؤه Chapman 1971 عن

انتهاكات الخصوصية كأذى من نوع خاص لأنها تحطم الاستقلال الذاتي واحترام الذات وكرامتها (Through Altman, I., 1976, p 25)

ويصف جيفورد كيف أن الخصوصية تيسر إحساس الفرد بالسيطرة أو الاستقلال... فمثلاً بالنسبة للأفراد الذين يعيشون في مؤسسات رعاية يكون لديهم القليل من السيطرة على بيئتهم الفيزيائية أو الاجتماعية ، هذا الإحساس لدى الفرد بضعف سيطرته على مجرى أمور حياته يؤدّد لديه الشعور بالحرمان من الاستقلال والحرية (Gifford, Robert, 1997, p181) وتجب الإشارة إلى أن أولى خطوات الإحساس بالاستقلال هو إدراك الطفل أنه منفصل ومتمايز عن الآخرين، ويتطور هذا الإدراك لدى الطفل بشكل متساق مع تطور قدرته على ضبط وتنظيم حدود التفاعل البين شخصي التي من شأنها تشكيل ما يدعوه ألتمان بالسطح البيني بين الذات وبين ما هو غير تابع للذات ، ويعكس النجاح في بناء هذا السطح والتحكم في مستوى انفتاحه وانغلاقه ، القدرة على التحكم البين شخصي وإدارة التفاعل اللذين يشكلان الطريقة التي نتفاعل بها مع الآخرين . وبما أن التفاعلات تتم عادة في سياق علاقات دور متعددة ، لذا فإن الخصوصية تساعدنا في تقييم أدوار مختلفة مثال : ابن ، ابنة ، أخ ، زوج ، زوجة ، موظف ... من خلال طبيعة السطح البيني لدى الأفراد الذين يتفاعلون مع بعضهم . والذي يعكس قدرة الفرد على تمثيل علاقات الدور الذي يقوم به ، وممارسته التحكم في تنظيم التفاعلات المتنوعة المرتبطة بهذا الدور . لذا يعتبر التحكم البين شخصي وإدارة التفاعل من وظائف الخصوصية الهامة في خدمة بناء الذات والحفاظ على الإحساس بالذات ، وبدونهما سوف نشعر بأننا غير محصنين ، وربما تافهين كأشخاص (بدون قيمة).

(Russell & Arkkelin, 1995, p 270).

أبعاد الخصوصية :

يرى الباحثون أن الخصوصية ليست ظاهرة أحادية البعد ، وإنما هي ظاهرة متعددة الأبعاد ، فقد توصل وستن من خلال تحليل نظري للخصوصية إلى أن هناك أربعة مجالات للخصوصية وهي : الانعزال - الحميمة - المجهولية - التكتّم ، وأنه من الممكن أن يكون لدى بعض الأفراد حاجة للخصوصية أكبر من غيرهم ، ولكن هذه الفروق يمكن أن توجد بالنسبة لتفضيل الخصوصية بشكل عام ، بينما قد لا توجد هذه الفروق على بعض الأبعاد المكونة لمفهوم الخصوصية .

وقد أكدت دراسات مارشال ١٩٧٢ ، ١٩٧٤ وبيدرسن ١٩٧٩ ، ١٩٨٢ الإمبريقية حول مفهوم الخصوصية ، الأبعاد الأربعة التي افترضها وستن . كما توصل كل منهما إلى وجود

بعد جديد تحت اسم العزلة . أما بيدرسن فقد وجد بأن بعد الحميمية ، الذي افترضه وستن وأكده مارشال ، ينقسم إلى بعدين مستقلين هما : الحميمية مع الأصدقاء ، و الحميمية مع الأسرة .

بالإضافة إلى هذه الأبعاد فقد اقترح بعض المنظرين أبعاداً أخرى يرون أنها تتدرج تحت مصطلح الخصوصية ، مثل البعد الخاص بالسرية ، والبعد الخاص بالخيالية .

ومستأول الباحثة كل هذه الأبعاد بالتفصيل على النحو التالي:

١- الانعزال: Solitude:

إن الانعزال الذي يعبر عن "الحالة التي يكون فيها الفرد وحده" كانت واحدة من أكثر الأمثلة الشائعة التي يدعيها العامة على أنها تعبر عن الخصوصية.

حيث اعتبر وستن ١٩٦٧ أن الانعزال كان الأكثر تعبيراً عن الخصوصية لدى الأفراد ، وقد نظر إليه على أنه أحد أبعاد الخصوصية التي تعبر عن كون الفرد وحده وغير مراقب . ورأى فيلكي (Velecky, 1978) أيضاً أن ما تعبر عنه عبارة "أن أكون وحدي" هو الأقرب نسبياً إلى مفهوم الخصوصية . ورأت جيفسون (Gavison, 1984) أن الانعزال يعبر عن الانزواء ، والعزلة فيزيقية . وقد توصلت من خلال دراستها على المسنين الذين يقطنون فسي مؤسسات رعاية المسنين ، أن للقدرة على الحصول على الانعزال أهمية خاصة لشعور الفرد بالصحة النفسية ، حيث أظهرت نتائجها أن الأفراد الذين كان يملكون استراتيجيات الحصول على الانعزال ، كان لديهم معدلات أعلى لتوقع الحياة Life Expectancy والتفائل ، أكثر من الأفراد الذين لم يملكوا تلك الاستراتيجيات . و يبدو أن هذا الأمر يؤكد رؤية الخصوصية من منظور التحكم . وقد وجد لوفر وولف ١٩٧٧ من خلال دراستهما عن تطور مفهوم الخصوصية لدى الأطفال من كل الأعمار ، أن الخصوصية تتجسد لديهم في مفهوم " أن أكون وحدي " .

و قد يتبادر إلى الذهن من خلال هذا الشرح أن مصطلحي العزلة والانعزال يعبران عن شيء واحد ، إلا أنه على الرغم من تشابههما في حالة الانسحاب من الجماعة ، فإن هناك فروقاً بينهما توصل إليها بيدرسن من خلال أبحاثه حول البناء العاملي للخصوصية ، حيث قال : " إن العزلة تعني أن تبقى وحدك بدون أن يكون أحد بالقرب منك . بينما يشير الانعزال إلى أن تبقى وحيداً وأنت وسط الآخرين فأنت تبحث عن العزلة عندما تريد أن تعيش وحدك على جزيرة خاوية بينما أنت تبحث عن الانعزال عندما تريد أن تكون وحدك في الغرفة ولكن لديك أناس آخرون بالقرب منك كأن يكونوا في غرف أخرى من المنزل " .

(Gifford, Robert, 1997, p 189) (Pedersen, Darhl, 1999, p 397)

وقد حددت مارشال - أثناء قيامها ببناء مقياس تفضيلات الخصوصية - الانعزال كأحد العوامل التي تندرج تحت مفهوم الخصوصية ، حيث قصدت بالانعزال التعبير عن رغبة الفرد من حين لآخر بأن يكون وحده ، بالإضافة إلى الحالة التي يكون فيها الفرد مع الآخرين ولكن دون أن يفتحوا عليه تفكيره أو انشغاله . (Marshall ,Nancy, 1974, p 262)

إذاً يمكننا القول : إن الانعزال كبعد من أبعاد الخصوصية يشير إلى انفراد الشخص عن الآخرين المحيطين به لفترة من الزمن من أجل تحقيق أهداف خاصة لديه ، مثل إنجاز عمل معين أو من أجل التأمل أو من أجل الراحة والاسترخاء والتخلص من التواصل الاجتماعي مع الآخرين الذي يفرضه عليه استمرار وجوده بينهم .

٢-العزلة : Isolation

يقول دي كوينسي : "لا يستطيع أي إنسان أن يفنق فكره الشخصي ، ما لم يسلوّن حياته على الأقل بالاعتكاف " . (من خلال أنتوني ستور ، ١٩٩٨ ، ص)

إن العزلة كانت على مرّ التاريخ ، مطلب الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، ليحرروا من وجود الآخرين الذي يعكر صفاءهم الذهني . وأكدت الدراسات التي تحلل ظاهرة الخصوصية أن العزلة مطلب لكل الناس مع اختلاف درجة الرغبة فيها بين فرد وآخر . وقد وصف وستن العزلة بأنها تتسم بالفردية ، وهي حالة من الخصوصية يكون الفرد فيها وحيداً وبعيداً عن أية ملاحظة من قبل الآخرين ... و أنه من الممكن أن تمثل العزلة أقصى حالات الخصوصية التي يمكن أن يحققها الفرد (Westin,Allan,1967).

وقد اتفق معه في هذا التعريف عدد من الباحثين الذين ينظرون للعزلة على أنها تمثل أو تشتمل على الجانب الأكبر من مفهوم الخصوصية ، أمثال ألكسندر ونشيرميف ١٩٦٣ ، حيث وصفا الخصوصية بأنها المركب المدهش للانسحاب ، والاعتماد على الذات ، والعزلة ، والتأمل والتفكير والتركيز . وأيضاً من وجهة نظر شيلز Shils الذي يصف الخصوصية بأنها العلاقة الصفيرية بين الفرد والجماعة . (through Newell ,Patricia, 1995, p 92)

وكان هناك وجهات نظر أخرى ترى أن العزلة لا تعبر بالضرورة عن رغبة الفرد في الخصوصية ، وذلك لأن من الممكن أن يعيش الفرد حالة العزلة نتيجة شعوره بضغوط كبيرة تدفعه للعزلة ، أو عندما يحتاج إلى إقامة علاقات مع الآخرين ولكن لأسباب بيئية تتعلق بالمكان الذي ربما يكون بعيداً عن الآخرين ، أو لأسباب نفسية مثل عدم التوافق ، أو عدم الرضا عن العلاقة التي تربطه بالآخرين وغير ذلك من الأسباب التي قد تعوق قيام الفرد

بعلاقات اجتماعية . وتتفق هذه الرؤية مع وجهة نظر ألتمان الذي يرى بأن الكثير جداً من التفاعل قد يتسبب في انتهاك خصوصية الفرد ، وأن القليل جداً منه يمثل العزلة .

(Altman ,I,1976,P.13) (Kelvin,1973,p.273)

وقد وجد إيتلسون وآخرون عام ١٩٧٤ أن العزلة هي "حالة سلبية" أي أن الفرد يعيشها نتيجة قلة في الخيارات المتوفرة لديه ، بالإضافة إلى وجود قيود على حريته في الاختيار .

(Ettelson through Newell ,Patricia, 1995, p 92).

وتشير العزلة عند بيدرسن إلى العزلة البصرية والسمعية والابتعاد عن الناس وضجيج الشوارع . إنها تعبر عن حالة " أن تكون وحدك ومنفصلاً جغرافياً عن الآخرين ، وكمثال على هذه الحالة أن تسكن وحدك في كوخ في الجبال". (Pedersen ,Darhl, 1987, p 267).

يتبين من ذلك أن العزلة قد تحدث نتيجة رغبة الفرد أو قد تفرض عليه وفي الحالة الأخيرة تعتبر انتهاكاً للخصوصية لأن الفرد لا يتحكم بكمية العلاقات التي يرغب بها.

٣-المجهولية Anonymity:

كان هذا البعد من الأبعاد التي أقرها وستن وهي "إحدى حالات الخصوصية الفردية التي لا تلعب الجماعة فيها دوراً ، وتحدث عندما يكون الفرد قادراً على تحقيق التحرر من الهوية والمراقبة أثناء تواجده في مكان عام (كالسير في الطريق العام، حضور مسرحية ما أو أحد العروض السينمائية، ركوب حافلة عامة ...)" (جابر عبد الحميد وآخرون، ٩٩٣، ص ٢٧٥). كما ظهر بعد المجهولية كبعد مستقل من أبعاد الخصوصية في الدراسات العالمية التي أجرتها مارشال ١٩٧٢ وبيدرسن ١٩٧٩ وفي الدراسة التي قامت حول التفضيلات الإقليمية التي قام بها بيدرسن وفرانيسيس ١٩٩٠ ، ثم دراسة بيدرسن ١٩٩٦ ، وقد كانت تعبر لدى كل منهم عن الحالة التي يختفي فيها الفرد ضمن الحشد ولا يتعرف عليه أحد ، وتمثل الحياة في المدينة أحد أشكال تحقيق المجهولية ، حيث يعيش الفرد مع عدد كبير من الناس لا يعرفهم ولا يعرفونه. (Pedersen ,Darhl,1979 , p 1293)

(Marshall ,Nancy, 1974, p 264) (Pedersen ,Darhl, 1996, p 251)

وقد استتجت جيفسون عام ١٩٨٤ أن المجهولية كانت العنصر المستقل الثاني والذي لا يمكن اختزاله والذي يشكل مع السرية Secrecy والانعزال Solitude مركب الخصوصية . وقد أشارت إلى أن الأفراد يفقدون دائماً الخصوصية عندما يصبحون موضوع الانتباه . وهذا ينطبق في الحالتين ، في حال كان الانتباه عن قصد وله هدف ، أو كان بدون هدف ، وذلك لأن الانتباه أو الملاحظة يعتبران طريقة أساسية لجمع المعلومات في كلتا الحالتين .

(Gavison through Newell ,Patricia, 1995, p 92)

٤- التكتّم Reserve:

كان التكتّم أحد الأبعاد التي افترضها وستن ، و اعتبره واحداً من المكونات الرئيسية لمفهوم الخصوصية ، ورأى أنه يعبر عن حاجة الفرد إلى الاحتفاظ ببعض جوانب حياته في طي الكتمان ، إما لأنها شخصية جداً ، أو مخجلة. (جابر عبد الحميد وآخرون، ١٩٩٣، ص ٢٧٥).

بينما يرى البعض أن التكتّم يستخدم لأغراض أكثر من ذلك حيث يرى جورارد أن التكتّم يعبر عن رغبة الشخص الذي يستخدم هذا الأسلوب في السيطرة أو التحكم في مدركات الآخرين ومعتقداتهم تجاهه . (Jourard ,Sidney, 1966, p 307)

وهذه العملية يستخدمها كل طرف مشترك في التفاعل مع الأطراف الأخرى ، فهي تعتبر أكثر شكل من الخصوصية مكرراً Subtle بسبب طبيعته التبادلية حيث يمارس كل طرف من أطراف التفاعل هذه العملية مع الطرف الآخر، إضافة إلى الرغبة في كتمان سرّ عن آخرين معينين. " . (through Newell ,Patricia, 1995, p 92)

وقد رأى سيمبل أن التكتّم المتبادل "حماية للشخصية" . فهو وسيلة لحماية الشخصية تعتمد بشكل أساسي على الحواجز النفسية التي يقيمها الفرد بينه وبين الآخرين ، أكثر من اعتمادها على الحواجز الفيزيائية . وهذا ما أكدّه إتيلسون ١٩٧٤ حيث قال : إن التكتّم كبعد من أبعاد الخصوصية كان الأكثر تعقيداً ، والأقل اعتماداً على الموضع الفيزيقي .

(through Newell ,Patricia, 1995, p 92)

إذاً يمكننا القول : إن التكتّم يمثل بعداً هاماً من الأبعاد التي يشتمل عليها مفهوم الخصوصية ، والذي يعتمد على قدرة الفرد على إقامة حدود بينه وبين آخرين معينين يريد أن يحجب عنهم معلومات معينة تتعلق به ، أو كجزء من إدارة الانطباع الذي يشكله الآخرون عن الفرد . ويبدو أن الحدود الفيزيائية لا تلعب دوراً مهماً لدى هذا البعد من أبعاد الخصوصية .

٥- الحميمية Intimacy:

يقول فرانسيس بيكون " إن أبشع اعتكاف هو ذلك الذي يكون فيه المرء محروماً من الصداقة المخلصة ."

إن اشتمال مفهوم الخصوصية على بعد الحميمية إنما يدل على أن الخصوصية ليست بالضرورة فردية تتطلب إقصاء الآخرين ، أو النفور منهم واعتزالهم ، وإنما أيضاً هي حالة يبحث فيها الفرد عن علاقة وطيدة وموثوق بها مع آخرين ، بحيث يكون الفرد مع فرد آخر أو مجموعة من الأفراد ، كل واحد ، يعملون كمجموعة على تحقيق الخصوصية لمجموعتهم هذه وإقصاء الآخرين أو استبعادهم من دائرة هذه المجموعة . وقد كانت الحميمية من الأبعاد الأربعة التي افترضها وستن للخصوصية . وكانت تشير لديه إلى حاجة الفرد للخصوصية

كعضو من جماعه ثنائية أو جماعة أكبر لتحقيق أكبر قدر ممكن من العلاقات الشخصية بين أعضاء الجماعة الثنائية ، أو الأكبر. (مثال الزوج والزوجة ، العائلة ، جماعة الرفاق). (جابر عبد الحميد وآخرون، ١٩٩٣، ص ٢٧٥).

ولكي يقيم الفرد علاقات حميمة فإنه يتوجب عليه التخلي بإرادته عن أجزاء من ذاته ، وأن يقلل من درجة الرقابة الذاتية لمشاعره وأفكاره حتى تتاح له فرصة مشاركة الآخرين بها. ولكي تتحقق الحميمية يجب على المجموعة أن تكون قادرة على منع الانتهاكات (أو تقليصها إلى أقل حد ممكن) التي قد يقوم بها الآخرون - الذين لا ينتمون للمجموعة - سواء على المكان الذي توجد فيه المجموعة التي تبحث عن الخصوصية ، أو من خلال النظر والمراقبة، أو استراق السمع إليها ، لذا فإن الحميمية ببساطة لا يمكن أن توجد ما لم تتوفر للناس فرصة للخصوصية. (Newell, Patricia, 1995, p 92)

وإذا لم تكن هناك فرصة أو مقدرة لدى الفرد على إقصاء الآخرين غير المرغوب بهم عن مجموعته الحميمة ، فكيف سيتاح له مشاركة أفراد مجموعته في الأمور البين شخصية وقضاياها ومشاغله التي لا يريد أن تخرج عن نطاق هذه المجموعة الحميمة ، لذا فإن الحميمية لا يمكن أن توجد بدون أن يكون هناك فرصة للخصوصية .

أما على المستوى الامبريقي فقد قسم بيدرسن الحميمية إلى بعدين منفصلين ، هما : الحميمية مع الأصدقاء ، والحميمية مع الأسرة . حيث تشير الحميمية مع الأصدقاء إلى رغبة الفرد بأن يكون وحده مع أصدقائه دون تدخل الآخرين ، أو مقاطعتهم . وتشير الحميمية مع الأسرة إلى رغبة الفرد بأن يكون وحده مع أفراد أسرته بعيداً عن الآخرين وتدخلهم . أما مارشال ، فقد ضمت النمطين تحت نمط واحد باسم الحميمية.

وهناك بعدان آخران ظهرا نتيجة التحليلات النظرية حول الخصوصية والأبعاد التي تدرج تحت هذا المفهوم ، ولم يتم اختبارهما امبريقياً من خلال دراسات واسعة حتى الآن . وهذان البعدان هما السرية ، والخيالية . وقد اقترحت نيول ١٩٩٥ إمكانية أن ينضمما إلى أبعاد الخصوصية الأخرى .

٦- السرية Secrecy:

لم يكن هناك اتفاق تام بين أدبيات الخصوصية بشأن انضمام "السرية" إلى أبعاد الخصوصية . حيث نظر البعض إلى السرية على أنها تشكل بعداً هاماً من أبعاد الخصوصية، بينما رفض البعض الآخر إمكانية ضمها إلى أبعاد الخصوصية . ويعود سبب هذا الرفض كما حددته وارن و لاسليت Warren & Laslett من خلال دراسة قامتا بها حول الفروق بين الخصوصية والسرية حيث ذكرتا أنه على الرغم من أن كلا من الخصوصية والسرية يرتبطان بالحدود ، ورفض السماح للآخرين بالوصول إلى الذات ، إلا أنهما يبدوان مختلفتين

في المحتوى الأخلاقي **moral** للسلوك الذي يتم إخفاؤه ، فالخصوصية تحظى بالقبول الاجتماعي ، بينما السرية ليست كذلك . وهذا يعني أن هناك "حقاً في الخصوصية" **Right to Privacy** ولكن لا يوجد "حق في السرية" معادل له.

وهذا ما أيده سيمل حيث عرف السر بأنه "التعبير السيوسولوجي عن الخطأ الأخلاقي". لذا فإن السرية ليست فقط استراتيجية لإخفاء الصفات ، أو السلوكيات والأفعال التي يعتبر الآخرون أنها تؤذي السمعة الأخلاقية ، لكنها أيضاً وسائل للهروب من كونك موصوماً من قبلهم. (Warren, Carol & Laslett, Barbara, 1977, p 43-44)

وفي مقابل ذلك فقد ذكر إيواتا **Iwata** عام ١٩٨٨ أن السرية كانت أحد أبعاد الأساسية للخصوصية ، وذلك من خلال دراسة امبريقية قام بها في اليابان حول البناء السيميائي للخصوصية . (Through Newell, Patricia, 1995, p 93)

ومع ذلك لا يوجد إجماع في أدبيات الخصوصية ، حتى الآن ، حول مفهوم السرية وإمكانية أن تُدرج كبعد من أبعاد الخصوصية ، حيث يعتبر البعض أن هناك فرقاً جوهرياً بين المفهومين ، يجعل من الصعب أن يشتمل مفهوم الخصوصية على السرية وذلك من حيث أن الخصوصية تحمي السلوك الذي يكون إما محايداً أخلاقياً أو يعتبره المجتمع أنه ذو قيمة **Valued** كما أن الخصوصية تحظى بالقبول الاجتماعي في المجتمع بينما السرية لا تملكه ، كما أنه يوجد اتفاق أو تشريع ينص على الحق في الخصوصية في العديد من مجالات الحياة المعاصرة ، ولا يوجد تشريع مماثل للحق في السرية . فالخصوصية تحظى بالقبول الاجتماعي والسلوك الذي تحميه هو مشروع اجتماعياً وينظر إليه على أنه غير مهدد للأخريين ، بينما السرية لا تحظى بهذا القبول ، والسلوكيات التي تحميها (تغطي عليها) ينظر إليها على أنها غير شرعية. (Warren, Carol & Laslett, Barbara, 1977, p44-45)

٦- الخيالية **Fantasy**:

يرى علماء النفس أن الخيالية تعمل كميكانيزم توازن نفسي ، حيث تقدم للفرد أداة مساعدة للذات لتحقيق التوازن الانفعالي أو التخفيف عن الذات **Self-Healing** ، فالبعد عن الواقع يقدم للفرد ملجأً من الواقع نفسه . حيث يعتبر التعويض ، والإسقاط ، وأحلام اليقظة ، والهروب من الواقع ، جميعها ميكانيزمات تشتمل عليها عملية التخيل والتي من شأنها العمل كصمام أمان لانفعالات الفرد الجارفة (أي أنها تعمل على تخفيض التوتر ، أو القيام بتوفير مؤقت للضغوط النفسية والانفعالية ، والتخلص من العقد النفسية) فهي تعمل كمجدد للحياة النفسية والنشاط حيث تمنح الفرد المرهق والمستنزف نفسياً فرصة لإعادة تنظيم طاقته النفسية أو شحنها . من هنا يرى البعض في الخيالية ميكانيزم هروباً من الواقع ، ينسحب الفرد بواسطتها إلى عالمه الخاص متخلصاً من الضغوط الخارجية ، وخصوصاً إذا كانت

البيئة التي يعيش فيها الفرد مزدهمة ، أو لا تتيح للفرد فرصاً كافية للانفراد.

(Newell, Patricia, 1995, p93) (Corsi, 1994, V2, P11)

كما تعطي الخيالية للفرد الفرصة للتخطيط للمستقبل ، والقيام بـ "تجارب" للفعل أو العمل الذي يريد القيام به قبل أن ينفذه . من هنا يرى علماء النفس أن الخيالية تسهم في بناء هوية الذات ونموها . وقد أكد ماركوس 1992 Marcus أهمية المكان الخاص للفرد الذي يتيح له أن يحلم ، ويتخيل ، وهذان الفعلان يشكلان معاً عاملاً هاماً في نمو وتطور هوية الذات (Corsi, 1994, V2, P11) (Marcus through Newell, Patricia, 1995, p 93)

بالإضافة لذلك فقد استنتج وازرستوم Wasserm 1984 من خلال تحليله للمعايير الثقافية التي كانت سائدة في الماضي ، أن الخيالية قد استخدمت كطريقة من طرائق تحقيق الخصوصية ، حيث استخدمت كوسيلة لإظهار النفور والرغبة في البعد عن الآخرين ، والقيام بتمويه أو إحاطة الفرد لنفسه أو حياته الخاصة بهالة من الغموض الذي من شأنه حماية الفرد من تدخل الآخرين في حياته الشخصية .

(Wasserm Through Newell, Patricia, 1997, p 93)

وهذا يبين أن الخيالية تشكل أسلوباً في منع الآخرين من الوصول إلى الذات ، والتمويه المتعمد للنوايا والأفكار التي يتبناها الفرد من أجل الحد من سهولة دخول الآخرين إلى عالم الفرد وانكشاف الذات عليهم بشكل كلي حتى لا تصبح حياته بكل جوانبها ، وبماضيها وحاضرها ومستقبلها مثل الكتاب المفتوح للآخرين .

يمكننا أن نستنتج من ذلك كله أن هناك اتفاقاً في الأهداف التي تسعى كل من الخيالية والخصوصية لتحقيقها سواء في التخلص من الضغوط الخارجية ، أو في بناء هوية الذات.

-خلاصة هذا الأمر أنه من الممكن أن نقوم بتقسيم الأبعاد السابقة (العزلة - الانعزال - الحميمية مع الأصدقاء - الحميمية مع الأسرة - المجهولية - التكتم) إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى : ترتبط بالانسحاب العام من الاختلاط بالآخرين وتتضمن عناصر العزلة، الانعزال، الحميمية والقاسم المشترك لكل تلك العناصر إنما يتصل بالرغبة في الابتعاد عن الآخرين لتكون إما وحدنا أو مع شخص معين أو مجموعة معينة.

والمجموعة الثانية: ترتبط بالتحكم في المعلومات وتتضمن أبعاداً هي : المجهولية ، التكتم، وتشترك هذه الأبعاد في الرغبة العامة في تجنب الكشف الحميم عن الذات والدخول في علاقات عابرة مع الآخرين ، ويبدو أن من الممكن تصنيف البعدين النظريين (السرية ، الخيالية) استناداً إلى مضمونهما الذي يركز على الإخفاء والتستر على المعلومات أو تمويه الواقع والذات ، ضمن هذه المجموعة .

الازدحام

«أهم إشكالات البنية الأثرية»

قمت في الفصلين السابقين بفحص السلوك المكاني لدى الإنسان، وكيف أن كلاً من الخاصية الإقليمية والخصوصية والحيز الشخصي تحقق عدة حاجات مهمة بالنسبة للإنسان، وتعمل على تيسير التفاعلات فيما بين أعضاء الجماعات الاجتماعية. وفي هذا الفصل سوف أناقش ما يحدث عندما تنهار هذه الحواجز الأمنية ويحدث الازدحام.

سأبدأ بتعريف مصطلحين غالباً ما يتم استخدامهما على نحو مترادف، ولكنهما في الواقع يشيران إلى شيئين مختلفين، وهما: الكثافة Density، والازدحام Crowding (Seagert, 1973; Stockols, 1972). الكثافة هي مقياس موضوعي لعدد الأشخاص في كل وحدة من وحدات الحيز أو المساحة، ويمكن تحديدها بدقة. وعند الحديث عن الكثافة يجب أن يصف الفرد بعناية المقاييس المستخدمة في قياسها. على سبيل المثال، يمكن مناقشة الكثافة والتحدث عنها بشكل له معنى بالنسبة لعدد السكان في كل دولة، ولكل ميل مربع ولكل حجرة. كما يمكن التحدث عنها في ضوء المصطلحات المعمارية بالنسبة لعدد الحجرات لكل وحدة إسكان أو عدد الوحدات السكنية في الفدان. وقد ميز الكثير من الباحثين بين هذه المقاييس المختلفة للكثافة من خلال الإشارة إلى الكثافة «الداخلية» و«الخارجية» (Galle, Gove & Mcpherson, 1972; Jacobs, 1961; Zlutnick & Altman, 1972).

أما المقياس الذي يبدو أكثر وأقوى ارتباطاً بالعلاقات بين الأشخاص، ويظهر تأثيرات قوية على السلوك فهو الكثافة التي يحددها عدد الأشخاص في الحجرة (Galle, Gove & Mcpherson, 1972).

وهناك شكلان رئيسيان للكثافة يمكن التحكم فيهما أو معالجتهما تجريبياً، وهما الكثافة الاجتماعية Social، والكثافة المكانية Spatial (Baum & Valins, 1977; Paulus, 1980). وتتغير الكثافة الاجتماعية عن طريق شغل أعداد مختلفة من الأشخاص لنفس المساحة أو الحيز الفيزيقي. بينما تتغير الكثافة المكانية أو الحيزية عندما يشغل نفس عدد الأشخاص أحياءاً فيزيقية ذات أحجام مختلفة. كما أن لهما أيضاً تأثيرات مختلفة على المشاعر والسلوك، طبقاً للموقف الذي

يحدث فيه تغير الكثافة (Baum & Koman, 1976; Baum & Valins, 1979; McGrew, 1970; Paulus, 1980; Stokols, 1976).

وبينما تشير الكثافة إلى حالة فيزيقية موضوعية فإن الازدحام يشير إلى حالة سيكولوجية ذاتية يترتب عليها حدوث مشاعر سلبية. ويحدث الازدحام عندما يدرك الفرد أن هناك عدداً كبيراً من الأشخاص في حيز ما. وبالطبع فإن هناك أشياء كثيرة تؤثر في إدراك الازدحام، بما في ذلك شخصية الفرد، والعلاقات بين الأشخاص، والعوامل الموقفية مثل الحرارة والضوضاء والرائحة بالإضافة إلى المهام التي يتم تأديتها في تلك البيئة. وعلى الرغم من ذلك تعد الكثافة أكثر العوامل تأثيراً في تحديد الدرجة التي يشعر عندها الأفراد بالازدحام.

وقد تم تعريف الازدحام بأنه حالة سلبية غير سارة. ويتبنى الفلكلور أو التراث الشعبي الخاص بالازدحام البشري تعريفاً يتسق مع هذا التعريف. وهناك العديد من الأحداث الشهيرة للازدحام البشري، وقد وقع أحد أسوأ تلك الأحداث في «حضرة كالكوتا السوداء» في عام ١٧٥٦ (Ashcraft & Schefflen, 1976). حيث تم الاستيلاء على حصن «وليام» المستعمرة البريطانية في كالكوتا من قبل القوات التي كان يقودها سراج أودولا Siraj-Ud-daula. فقد أجبر ١٤٦ سجيناً على دخول حجرات مساحتها ١٨ × ١٤ قدم لقضاء الليل. وفي الصباح لم يبق سوى ٢٣ فرداً فقط على قيد الحياة. كما تشير كذلك العديد من الحكايات الأقل شهرة عن الازدحام إلى العواقب السلبية للكثافة العالية على الإنسان، وعلى سبيل المثال أوضح اشكرافت وسكفلن Ashcraft & Schefflen (١٩٧٦) في تقرير مبدئي عن الازدحام على قطار نقل القوات الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية ما يلي:

كان من المقرر ألا تستغرق الرحلة أكثر من ساعتين.. ولسوء الحظ استغرقت تلك الرحلة بالذات ١٦ ساعة، وذلك لأسباب بيروقراطية غير واضحة تعطل القطار في الانتقال من مكان لآخر. لم يكن هناك طعام كاف، حيث كان من المتوقع أن تستمر الرحلة لمدة ساعتين أي رحلة قصيرة. في نهاية

الساعة الثالثة استنفذت المياه أيضاً. وبالتدريج بدأ الضحك يخفت والأعصاب تنهار وصارت هناك مشادات أكثر وأخذت الشكاوى العادية تأخذ نبرة مريرة. حتى الاتصال والتعامل الملموس والمستمر بين الأفراد أصبح غير محتمل. وما كان يثير الضحك من ساعات قلائل أصبح يؤدي إلى عراك بالقبضات. كان بعض الجنود واسعي الخيلة.. وآخرون انغلقوا على أنفسهم وأحدهم وصل لدرجة التهور، وحاول القفز من القطار، أثناء حركته. ومن الواضح أن بعضهم تكيف مع ظروف الازدحام في حين لم يتكيف آخرون (ص ٩٠).

وعلى الرغم من هذه الأمثلة الواضحة، فإن هناك قبولاً متزايداً بأنه على الرغم من أن للكثافة المرتفعة غالباً عواقب سلبية على الإنسان فليس هذا هو الحال دائماً (Choi, Marjafari & Weaver, 1976; Ditton, Fedler & Graefe, 1983; Freedman, 1975; Westover, 1989).

آثار الكثافة المرتفعة على الحيوانات:

هناك درجة محدودة من الشك في أن الفترات الطويلة من العيش في كثافة مرتفعة يمكن أن ينتج عنها عواقب سلبية شديدة بالنسبة للكثير من أنواع الحيوانات، ويبدو أن عدد الحيوانات في الجماعة أهم بكثير من مقدار الحيز المتاح لكل حيوان (Baum & Paulus, 1987; Freedman, 1979). وهكذا بالنسبة للحيوانات تتسبب الكثافة الاجتماعية المتغيرة في تأثيرات أشد قوة من الكثافة المكانية المتغيرة. وهذه التأثيرات تكون ذات طبيعة سيكولوجية وسلوكية ووجدانية، حيث إن الحيوانات التي تعيش في جماعات تكون أقل انفعالاً وأكثر نشاطاً، ويكون إفراز الغدد الكظرية لديها أكبر من الحيوانات التي تعيش بمفردها (Freedman, 1975). وترجع هذه الآثار لأسباب مختلفة منها: أن الحيوانات تواجه منافسة متزايدة على الموارد الحيوية مثل الحيز والطعام، فالكثافة المتزايدة تؤدي إلى تداخل كبير في الأنشطة الموجهة نحو الهدف، كما أن هناك تعرضاً متكرراً لدوافع عديدة قد تؤدي إلى سلوك مضطرب.

المواقب الفسيولوجية للكثافة المرتفعة:

إن العيش في كثافة عالية له تأثير حاد على صحة الحيوانات، وقد أجرى كريستيان وزملاؤه (Christian, 1955, 1963; Christian & Davis, 1964; Christian, Flyger & Davis, 1960) عدة بحوث عن الآثار الفسيولوجية للكثافة العالية على الحيوانات. واعتقد كريستيان أن الإثارة Stimulation والضغط Stress المتزايدة والتي يسببها وجود عدد كبير من الحيوانات معاً يؤدي إلى اختفاء للهرمونات بشكل منتظم، وبالتالي نقص في إفراز الغدة الكظرية. كما اعتقد أيضاً أن الفترات الطويلة من الضغط يمكن أن تؤدي إلى الانهيار النفسي ثم الموت.

وفي إحدى دراسات كريستيان (Christian, Flyger & Davis, 1960) ترك قطع من غزلان «السيكا» ليتكاثر دون مراقبة على جزيرة معزولة في خليج شيزابيك بعيداً عن ساحل «ماريلاند». وكانت الجزيرة خالية من الحيوانات المفترسة، وتم توفير الطعام والمياه بكثرة. وزادت كثافة الحيوانات بدرجة كبيرة جداً، ثم اختفت فجأة. ومرض عدد كبير من الحيوانات ثم ماتت. وأظهرت عمليات التشريح أن هذه الحيوانات قد تزايد لديها بالفعل إفراز غدها الكظرية، وأن هناك مؤشرات أخرى على وجود الضغط. وقد لاحظ علماء بيولوجيا الحياة البرية هذه الظاهرة الخاصة بنمو الكثافة ثم فنائها في أنواع أخرى من الحيوانات أيضاً.

وأكدت دراسات أخرى عديدة أن الكثافة العالية ترتبط بتلف في بعض الأعضاء لدى الحيوانات (Myers, Hale, Mykytowycz & Hughes, 1971) فعند القوارض على سبيل المثال، تتدهور الخصوبة بشكل ملحوظ في ظروف الكثافة المرتفعة، ويتغير حجم ونشاط الأعضاء التناسلية عندما تكون الحيوانات في مجموعة كبيرة (Christian, 1955; Davis & Meyer, 1973; Massey & Vandeburgh, 1980; Snyder, 1968; Southwick & Bland, 1959; Thiessen, 1964). ويقرر هيمسترا وماكفارلنج (Heimstra & McFarling) (١٩٧٨) أن تأثير الأمفيتامين يكون أكثر فتكاً عندما تكون الفئران في مجموعات عنه عندما

تكون منفردة. كما تؤدي الكثافة العالية أيضاً إلى زيادة في ارتفاع ضغط الدم عند الحيوانات (Henry, Meehan & Stephens, 1967; Henry, Stephens, Axelrod & Muleieleer, 1971). وقد أظهرت البحوث أن الفئران الحبلية والتي تعيش في كثافة عالية تلد صغاراً مضطربين انفعالياً وجنسياً (Clapman, Masterpasqua & Lore, 1976).

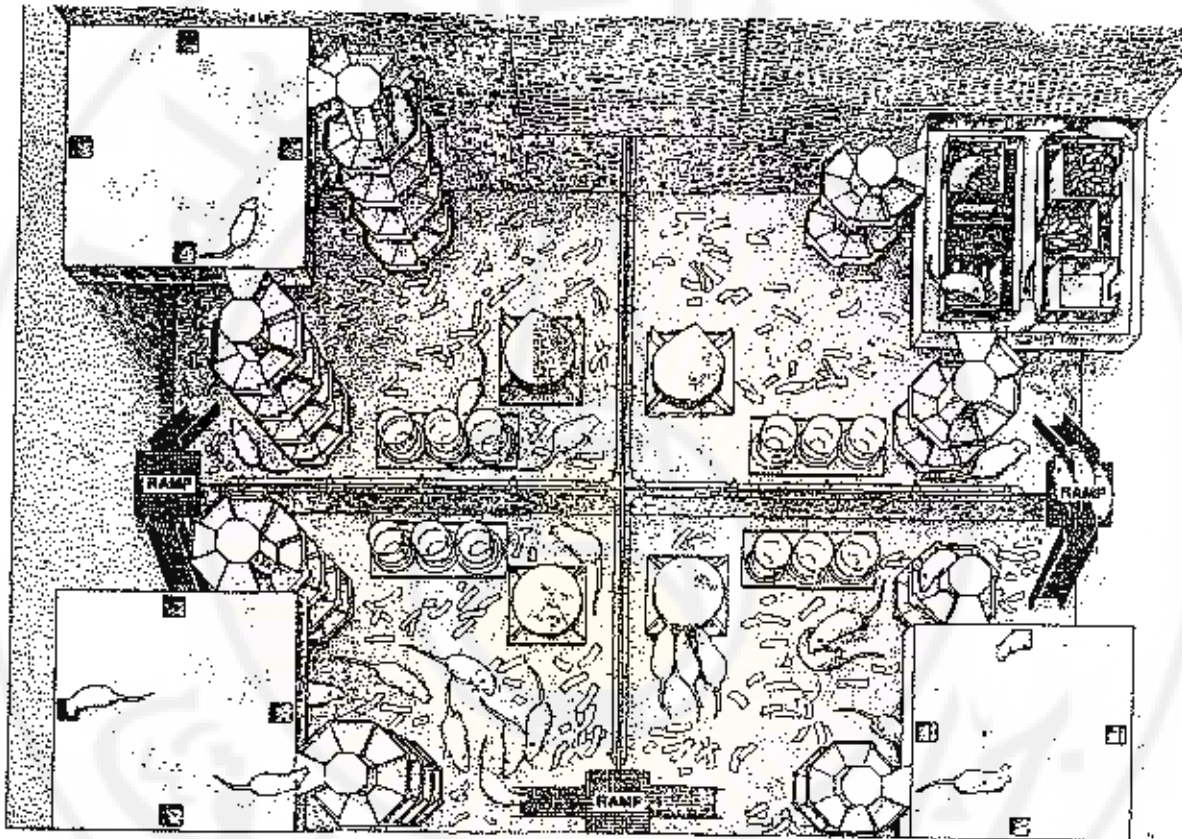
العواقب السلوكية للكثافة المرتفعة:

غالباً ما يكون اضطراب السلوك أكثر وضوحاً من الآثار الفسيولوجية للكثافة المرتفعة، وقد تم الكشف عن أن الكثافة المرتفعة تزيد من حجم الخلافات والسلوك العدواني. وقد لوحظ هذا الأثر في عدد كبير من الفصائل. ومن الفصائل التي تظهر عدواناً أكبر في ظل ظروف الكثافة العالية هي القروذ وذباب الفاكهة والقطط والكابوريا ذات الخوذة والقنائد والدجاج والعنكبوت الذئبي والجردان والدبابير (Andreson, Erwin, Flynn, Lewis & Erwin, 1977; Aspey, 1977; Hazlett, 1968; Hodosh, Ringo & McAndrew, 1979; Hull, Langan & Rosselli, 1973; Kinsey, 1976; Moore, 1987; Moss, 1978; Polley, Craig, Bhagwhat, 1974; Southwick, 1967).

كما أن الكثافة العالية قد تؤدي إلى اضطراب السلوك «المعرفي» مثل التعلم وأداء المهمة (Goeckner, Greenough & Maier, 1974; Goeckner, Greenough & Mead, 1973).

ومن الدراسات المبكرة حول آثار الكثافة العالية على السلوك الاجتماعي للحيوانات، الدراسة التي قام بها كالهون Calhoun (1957، 1962، 1973)، والذي بدأ بحثه بملاحظة سلوك الفئران البرية بعد وضعها في حظيرة في الهواء الخارجي على مساحة ربع فدان. ومثل دراسة كريستيان على الغزلان، كانت فئران كالهون محمية من الحيوانات المفترسة لها، وكان الوصول إلى الغذاء والماء والموارد الأخرى سهلاً. وعلى الرغم من هذه الرفاهية وخلال ثلاث سنوات تقريباً من الملاحظة لم يزداد تعداد الفئران عن 150 فأراً، وقد قرر كالهون بعد أن حيرته هذه النتيجة أن يتابع المشكلة في ظل ظروف أكثر تحكماً.

وفي تجارب المتابعة قام بدراسة ستة أنواع مختلفة من الكثافة لدى فئران الألبينو لمدة ستة عشر شهراً، وكانت كل كثافة في حجرة ملاحظة مساحتها ١٠ × ١٤ قدماً. وقسمت الحجرة إلى أربع حظائر متساوية الحجم في كل منها نافورة للشرب ووعاء للغذاء، وجحر صناعي يحتوي على خمسة صناديق (عشش)، وشباك في السقف يمكن من خلاله الملاحظة. والشكل (٧-١) هو رسم يوضح حجرة الملاحظة. وكان الاختلاف الوحيد الملحوظ بين الحظائر هو أن اثنين منها (رقم ١، ٤) يمكن الوصول إليهما عن طريق ممر منحدر واحد من الحظائر المجاورة.



شكل (٧-١): حجرة الملاحظة التي استخدمت في دراسة كالهون للازدحام عند الفئران.
(المصدر: Callhoun, 1962).

أما من الناحية الأخرى فكان لكل من الحظيرتين ٢، ٣ ممران منحدران مختلفان، ويمكن استخدامها مداخل أو مخارج مما يتيح للفئران الدخول والوصول بسهولة إلى الحظيرة من موقعين آخرين. فكان على الفأر الذي ينتقل بين الحظيرتين ١، ٤ أن يمر عبر الحظيرتين ٢، ٣.

وفي الظروف العادية يجمع الفئران الذكور والإناث للتزاوج، ويتزاوج الذكور فقط مع الإناث التي توجد في إطار حراستهم، وتميل الإناث للبقاء في المنطقة التي يحرسها الذكر فقط، وتقاوم الإناث محاولات الذكور الآخرين للتزاوج معها. وهذا ما حدث بالضبط في دراسة كالهون في الحظيرتين رقم ٤،١. حيث تقع مجموعة صغيرة نسبياً من الفئران تحت سيطرة وحماية ذكر واحد. وكان من السهل على الفأر المسيطر أن يفرض تحكمه على الحظيرة ومنع الذكور الآخرين من الدخول عن طريق الممر المنحدر الوحيد المتاح، لدرجة أنه ينام على قاعدة الممر ليمنع الذكور المتطفلين. وكانت الإناث في هذه المجموعات عادة أمهات جيدات، وكانت معدلات البقاء في الحظيرتين ٤،١ جيدة.

وكان الموقف في الحظيرتين ٣،٢ مختلفاً تماماً، حيث كان لهاتين الحظيرتين مدخلان فكان من الصعب على أي من ذكور الفئران أن يظهر سيطرته ويبعد الدخلاء.

وقد أدى هذا إلى حالة تزاحم وانهايم تام للسلوكيات الطبيعية للذكور والإناث في هذه الحظائر. ولم تعد الإناث تهتم ببناء أعشاش مناسبة، كما كان السلوك الخاص بالأمومة في حالة اضطراب كامل. في إحدى هذه الكثافات مات ٩٦٪ من الصغار قبل أن يفطموا، وغالباً ما يترك الصغار أو يأكلهم الكبار. أما الإناث التي كانت في حالة هياج جنسي فكان يتبعها قطعان من الذكور. وبالتالي كان يموت الكثير منها في أثناء الحمل أو عند الولادة. وقد نمت لدى كثير من الذكور أنماط سلوكية غريبة بما في ذلك الشذوذ الجنسي والنشاط الحركي المفرط ومستويات متزايدة من العدوان. وكان اضطراب السلوك الاجتماعي في الحظيرتين ٣،٢ أكثر حدوثاً في حالة ما إذا كان نظام التغذية يشجع الحيوانات على أن تأكل في جماعات.

وأشار كالهون إلى الحظائر المزدهرة وغير المنتظمة على أنها تتضمن هبوطاً أو انحداراً سلوكياً Behavioral Sink. وينشأ الانحدار السلوكي عندما تسبب كثافة سكانية في اضطرابات لنفسها مما يجعل الكثافات السكانية في بعض المناطق تتعدى مقدرة الأنواع في الحفاظ على النظام الاجتماعي الطبيعي. وسرعان ما

تعلق مصطلح كالهون Calhoun في الأذهان، واستخدم بحرية ليصف الظروف الإنسانية التي تتضمن تشابهاً ظاهرياً للعثران التي درسها كالهون.

وهذا يؤدي بنا إلى سؤال مهم: إلى أي مدى نستطيع التعميم من دراسات الكثافة التي أجريت على الحيوان إلى الإنسان؟ لقد كان الميل للأخذ بهذا التعميم قوياً للغاية في الستينيات وأوائل السبعينيات من هذا القرن حيث كانت المعلومات المعروفة عن الآثار السيئة للازدحام على الحيوان كثيرة في حين كانت نفس المعلومات عن الإنسان قليلة، ولم تكن البحوث قد أجريت بعد على الإنسان. وبعد أن بدأت البيانات والمعلومات تتراكم عن آثار الكثافة العالية على الإنسان بدا واضحاً على الرغم من ذلك أن العلاقة أكثر تعقيداً بالنسبة للإنسان عنه فيما يتعلق بأغلب الحيوانات الأخرى.

ولاحظ فريدمان Freedman (١٩٧٩) أن الباحثين الأوائل في الازدحام البشري كانوا متأثرين بالدراسات التي أجريت على الحيوانات مثل دراسة كالهون التي كشفت عن عواقب سلبية للازدحام، كما مالوا إلى تجاهل الدراسات التي تستحق النظر إليها وتشير إلى أن الكثافة العالية قد لا تكون دائماً ضارة للحيوان. بالإضافة إلى ذلك اقترح فريدمان وآخرون (Baron & Needel, 1980, Baum & Paulus, 1987) أنه حتى إذا كانت العلاقة بين الكثافة والعواقب السلبية متسقة عند الحيوانات، فإن هناك أسباباً كثيرة قد لا تجعل هذا ينطبق على البشر، ومن أهمها التعليم والعمليات المعرفية والعوامل الثقافية في تحديد متطلبات الحيز والتعقيدات الكبيرة ومرونة التفاعلات الاجتماعية البشرية. وباختصار فإن التصور السائد الآن هو أنه في حين تعد الدراسات التي أجريت على الحيوانات مفيدة فإن نتائجها لا يمكن أن تطبق بصورة مباشرة وبسيطة على الإنسان.

آثار الكثافة المرتفعة على الإنسان:

دراسات الازدحام قصير المدى:

تهتم البحوث التي تتناول الازدحام الطويل المدى باستجابات البشر الذين

يعيشون تحت ظروف كثافة عالية لفترات طويلة، وعادة ما تكون هذه الدراسات من النوع الارتباطي* Correlational، وقبل مناقشة آثار التعرض الطويل المدى للكثافة العالية سأقوم بفحص نتائج البحوث الخاصة بآثار الازدحام قصير المدى.

تميل دراسات الازدحام قصير المدى لأن تكون تجريبية أكثر منها دراسات ارتباطية، حيث يقوم الباحث عشوائياً بتكليف المبحوثين المرور بظرفين أو أكثر من الظروف التجريبية، والتي تختلف طبقاً للكثافة الاجتماعية أو المكانية في الموقع الذي تحدث فيه التجربة. وقد تستغرق الجلسة ٣٠ دقيقة أو عدة ساعات.

ومن الواضح أن قصر التجربة والطبيعة الاصطناعية للموقف تحد من مقدار تعميم نتائج هذه الدراسات على مشكلات الناس الذين يعيشون في ظل ازدحام مزمن في بيئات حقيقية. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه التجارب تعد ذات قيمة لأنها الطريقة الوحيدة الصادقة للكشف عن العديد من المتغيرات الديموجرافية والموقفية والتي تمتزج أو تختلط بشكل ميثوس منه في معظم الدراسات الميدانية القائمة على الازدحام الطويل المدى. بالإضافة إلى ذلك يوجد قدر كبير من المتغيرات المستقلة والتابعة المختلفة والتي يمكن دراستها باستخدام أساليب تجريبية. ومن أهم المتغيرات التابعة الشائعة في تجارب الازدحام القصير المدى هي الاستجابات الوجدانية والانفعالية، وأداء المهام والسلوكيات الاجتماعية مثل العدوان وسلوك المساعدة والتجاذب بين الأشخاص.

ويمكن القيام بتجارب الازدحام قصير المدى في كل من المعمل والمواقع الميدانية. والمثال الجيد للدراسة المعملية على تأثير التعرض القصير المدى للكثافة العالية هو دراسة أجراها ماثيوز وبولوس وبارون Mathews Paulus & Baron (١٩٧٩)، وهدفت إلى تحديد تأثير الكثافة على السلوك العدواني في المواقف التي

(*) يشير الارتباط إلى قدر من العلاقة أو التلازم بين متغيرين. ويعني ذلك أن التغيرات أو الفروق في قيم المتغير الأول مرتبطة بقدر ما، كبير أو صغير، بتغيرات مناظرة في قيم المتغير الثاني (المترجم).

يكون فيها الأشخاص موضع التجربة إما أن يدافعوا أو يتعاونوا مع بعضهم البعض. وكان هؤلاء الأشخاص المبحوثون من الطلاب الذكور ممن يدرسون مقدمة أو مدخلا في علم النفس، ويتواجدون في مكان يتميز بالكثافة العالية (أربعة أشخاص في حجرة $١,٧ \times ٢$ متر)، أو كثافة منخفضة (أربعة أشخاص في حجرة $٣,٩ \times ٣,٤$ متر) والتي حاول فيها أفراد المجموعة القيام بعمل معقد للغاية يتطلب منهم أن يتعقبوا ويسيروا خلال ١٢ متاهة أفقية مرتبطة بممرات صحيحة وأخرى غير صحيحة. في نصف المجموعات تنافس الطلاب مع الأشخاص الآخرين من مجموعتهم، بينما في النصف الآخر عمل الطلاب مع بعضهم البعض معتقدين أن مجموعتهم تدخل المنافسة مع مجموعات أخرى. وعندما انتهت هذه التجربة تم إخبارهم بأن الجزء الثاني من التجربة يختص بآثار العقاب على الاستجابات الفسيولوجية. وكان عمل الأشخاص في هذا الجزء من الدراسة هو أن يشتتوا شخصا وسيطا كان يحاول أن يتعلم قائمة من مقاطع كلمات صماء. كان على الأشخاص أن يشتتوا انتباه هذا الوسيط عن طريق صدمة كهربائية (لم تكن هناك صدمات في الواقع، وكان الأشخاص فقط يعتقدون في ذلك). وكانت كثافة وفترة استمرار الصدمات التي يظهرها الأشخاص هي المتغيرات التابعة.

في هذه الحالة وجد الباحثون أن الكثافة العالية في الواقع قد أدت إلى تناقص العدوان في ظل ظروف تنافسية. وبينما تبدو هذه النتائج على عكس نتائج دراسات أخرى سوف نناقشها، فإنها متسقة مع البحوث الحديثة التي تشير إلى أن الازدحام في ظل ظروف تنافسية يؤدي إلى الانسحاب وليس العدوان (Baum & Valins, 1977; Loo, 1978)، وليس للكثافة أي تأثير على العدوان مع الأشخاص المتعاونين. كما وجد أيضاً ماثيوز وبولوس وبارون أن إعطاء الأشخاص المبحوثين ٣٠ دقيقة راحة بين الجزء الأول والثاني من الدراسة قضت على أي تأثير للازدحام. ويقترح هؤلاء الباحثون أن نتائج دراسات الازدحام معملياً يمكن تعميمها بصورة أفضل على الازدحام القصير المدى مثل ذلك الذي يحدث في المصاعد والحافلات.

وأجرى سيجرت وماكيتوش وويست Saegert, Mackintosh & West (١٩٧٥) دراستين تُعدّان من الأمثلة الممتازة للبحث في مجال الازدحام القصير المدى وآثاره في المواقع الميدانية. وكان الهدف من الدراستين هو فحص آثار الكثافة على قدرة الشخص على الأداء الكفء الذي يتطلب يقظة وتفكيراً صافياً في الدراسة الأولى كان المبحوثون من الطالبات الإناث قد تم اختيارهن عشوائياً للمشاركة خلال فترات الكثافة العالية أو المنخفضة في قسم الأحذية بمحل وسط مانهاتن. وركزت كل مبحوثة انتباهها على الأحذية والزبائن في القسم، ثم طلب منهن بعد ذلك أن يصفن الأحذية المختلفة وكذلك الناس الذين لاحظوهن. وبينما قدمت المبحوثات في ظروف الكثافة المنخفضة وصفاً أفضل إلى حد ما، فقد ظهر التأثير المدهش للكثافة على قدراتهن على تذكر الأشياء الأخرى التي لم يركزن انتباههن عليها بدقة. وعندما تم اختبارهن فيما بعد أظهرت السيدات في المجموعة المرتفعة الكثافة ذاكرة أكثر فقراً للأشياء العارضة مثل الأثاث وقوائم العرض، كما ذكرن خرائط المكان بصورة أقل تفصيلاً ودقة. وتتسق هذه النتائج مع ضيق الانتباه الذي يحدث في المواقف الضاغطة والمثيرة. ويشير هذا إلى أن مستويات الإثارة العالية ترتبط بارتفاع الكثافة.

أما دراستهم الثانية فقد أجريت في محطة السكة الحديد في بنسلفانيا بمدينة نيويورك. وكان المفحوصون من الذكور والإناث من جماعات عمرية وخلفيات مهنية مختلفة، تم تجميعهم والحصول عليهم من خلال إعلان. وتجميعهم كانوا على غير علم نسبياً بمحطة بنسلفانيا. وقد أعطي لكل منهم قائمة بـ ٤٢ مهمة معرفية، للانتهاء منها خلال فترة تكون فيها الكثافة عالية أو منخفضة في المحطة. وكانت المهام المعطاة لهم بسيطة مثل تحديد مكان الحصول على التذاكر، والبحث عن رقم تليفون، أو شراء شيء من محل بيع الجرائد. كان على الجميع أن ينهوا المهام بنفس النظام أو الترتيب. وقد شعر المبحوثون في المجموعة ذات الكثافة العالية بقلق أكثر وأتموا عدداً أقل من المهام بالمقارنة بالمبحوثين في المجموعة ذات الكثافة المنخفضة. ومن المثير أن الذكور في المجموعة ذات الكثافة العالية قد عبروا عن انفعالات أكثر حدة (مثل العدوان، والنشوة) عن الإناث.

وقد وفرت دراسة الازدحام القصير المدى (في المعمل أو الميدان) معظم المعلومات المتاحة الآن للباحثين بخصوص آثار الكثافة على الإنسان. وعلى الرغم من وجود بعض الاستثناءات فإن أحداث التعرض قصير المدى للكثافة العالية يكون لها في الغالب آثار سلبية أكثر منها إيجابية. وتؤدي الكثافة المتزايدة وخاصة الكثافة الاجتماعية إلى زيادة مستويات الاستشارة السيكولوجية. (Aiello, Epstein & Karlin; 1975; Evans, 1979; Saegret, 1978; Singer, Lundberg & Frankenhaeuser, 1978). وغالباً ما يتم تفسير هذه الاستشارة بشكل سلبي من قبل من يتعرضون لها. كما يمكن أيضاً أن يولد التعرض قصير المدى للكثافة العالية آثاراً سلبية تظهر فيما بعد. كما يظهر الأفراد الذين مروا بتجربة ازدحام حديثة قدرة ضعيفة على تحمل الإحباط (Dooley, 1975; Sherrod, 1974).

وتعد الكثافة العالية أكثر إزعاجاً إذا ما كان الآخرون يلمسونك (Nicosia, 1979) Hyman, Karlin, Epstein & Aiello, 1979). وليس من المستغرب أن يشعر الأشخاص في الحجرات الصغيرة بأنهم أكثر ازدحاماً وضيقاً وعدم راحة وينظرون إلى الحجرة على أنها أكثر سخونة واختناقاً من الأشخاص المتواجدين في حجرات واسعة. ويميل الطلاب في الفصول الدراسية المزدحمة لأن يكونوا أكثر شكوى من التهوية وحجم الحجرة والدرس الذي يأخذونه (Stokols, Rall, Pinner & Schopler, 1973). إن توقع الأفراد أنهم سيمرون بكثافة عالية يؤدي بهم إلى إنهاء التداخل أو الاندماج مع الآخرين أو الانسحاب من التفاعل (Baum & Greenberg, 1975; Baum & Koman, 1976). وبين جريفيت وفيتش (Griffit & Veitch, 1971) أن الكثافة المرتفعة أدت إلى أن يكون المبحوثون في حالات مزاجية سيئة، ويكرهون الغرباء - أكثر من المبحوثين الذين مروا بتجارب الكثافة المنخفضة، وأصبحت آثار الكثافة العالية أكثر وضوحاً في حالة ما إذا كانت درجة حرارة الحجرة مرتفعة أيضاً.

وقد تم إجراء معظم دراسات الازدحام قصير المدى على الأطفال. وعلى الرغم من أنه قد لا يكون هناك أي تأثير للكثافة على السلوك العدواني لدى الأطفال عندما تكون الموارد متوفرة (Loo & Smerana, 1978 Rohe & Patterson, 1974). فقد ارتبطت الكثافة العالية في معظم الحالات بالسلوك

المضطرب والعدواني (Ginsburg, Pollman, Wauson & Hope, 1977; Hutt & Vaizey, 1966; McGrew, 1972). وقد توصل لو وكنيلي (1979) في دراسة ميدانية على أطفال أعمارهم 5 سنوات، إلى أن الكثافة العالية تزيد من العدوان، وترتبط أيضاً بزيادة الأسى أو الضيق وقلة اللعب بالألعاب. بالإضافة إلى هذا فقد تبين أن الأولاد في ظل كثافة عالية يكونون أكثر تدميراً وغضباً من البنات، وغالباً ما يكسرون اللعب أو يتشاجرون. وقد أخفقت القليل من الدراسات (على سبيل المثال Loo, 1972) في أن تجد علاقة بين الكثافة العالية والعدوان المتزايد لدى الأطفال. وفسر لو (1973) هذه الاستثناءات عن طريق ظروف مخففة Mitigating وجدت في هذه الدراسات ولم توجد في غيرها.

كما أثبتت الدراسات أن الذكور الراشدين، وليس الإناث - غالباً ما يصبحون أكثر عدوانية تحت ظروف الكثافة الاجتماعية العالية (Schettino & Borden, 1976; Stokols et al., 1973) وفي الحقيقة هناك اختلاف بين استجابة الذكور والإناث للكثافة العالية في العديد من الجوانب المثيرة (انظر المربع التالي).

والكثافة العالية لا تؤثر فقط على مشاعرنا بل يمكنها أن تؤثر أيضاً على قدرتنا لأداء المهام بشكل جيد. وبينما لا تؤثر الكثافة العالية على أداء المهام البسيطة كثيراً، فإنها تؤثر على أداء المهام الأكثر تعقيداً، وعلى المهام الصعبة التي تتطلب حلاً للمشكلات، ومثابرة، وقدرة على التمييز (Freedman, Klevansky & Ehrlich 1971; Klein & Harris 1979; Nagar & Pandey, 1987; Paulus, 1974; Annis, Seta, Schkade & Matthews, 1976; Sherrod, 1974).

ويضطرب أداء المهام سواء الجماعي أو الفردي بواسطة الكثافة العالية، خاصة عندما تكون الجماعة بنائية جداً بواسطة قائد تم تعيينه وقواعد محددة للإجراءات (Worchel & Shackelford, 1991). ويلاحظ العديد من الباحثين أن الكثافة العالية تؤدي إلى اضطراب في أداء المهام المعقدة، وكذلك العوامل البيئية الأخرى مثل الضوضاء. ويرى كوهين (1980، 78) وشيرود وكوهين (1978) أن الحضور أو التواجد الوثيق للغرباء يمكن أن يؤدي إلى بيئة غير متوقعة يصعب التحكم فيها. وتتطلب مثل هذه البيئات مراقبة وثيقة Close Monitoring لكي تدافع عنها ضد التهديد أو المفاجأة.

وهذا يتطلب سعة أو كفاءة انتباهية Attentional Capacity إضافية، وتقليل الموارد المعرفية المتاحة لأداء المهام المعقدة، والتي تتطلب معلومات كثيرة، ولا تختلف الكثافة في هذا عن الأحداث الأخرى التي لا يمكن التحكم فيها.

هل يختلف الذكور عن الإناث في استجاباتهم للازدحام؟

تبدو خبرة الازدحام مختلفة اختلافاً كبيراً من الذكور إلى الإناث، وأوضح فريدمان (١٩٧١) أن الكثافة لها تأثير أقل نسبياً على الجماعات المختلطة جنسياً، بينما ينتج عن الازدحام في المجموعات التي تحتوي على الذكور فقط أو الإناث فقط، تأثير كبير. وقد أظهرت الدراسات المعملية بشكل متسق أن الذكور يعتبرون أنفسهم أكثر عدوانية وتنافساً، ويظهرون إنكاراً كبيراً للفردية، ويلاقون ضغوطاً كبيرة، ويعتبرون أنفسهم والآخرين أكثر سلبية في حجرة مزدحمة بالمقارنة بحجرة غير مزدحمة. أما بالنسبة للإناث فغالباً ما تحدث تأثيرات عكسية تماماً (Epstein & Karlin, 1975; Freedman, 1971; Freedman, Levy, Buchanan & Price, 1972; Nicosia et al., 1979; Ross, Layton, Erikson & Schopler, 1973; Schettino & Borden, 1976; Stokols et al., 1973). على سبيل المثال في دراسة أجراها روس ومعاونوه (Ross et al., 1973)، تبين أن الذكور يتعدون بنظراتهم عن بعضهم البعض عندما يزاحمهم أفراد من نفس جنسهم في حجرة واحدة. بينما تندمج الإناث مع بعضهن البعض ويرتبطن أكثر باتصال العين Eye Contact.

وبالمثل وجد فريدمان وزملاؤه (١٩٧٢) أن الازدحام في إحدى التجارب جعل الخبرة أكثر إيجابية بالنسبة للنساء، ولكن أقل إيجابية فيما يتعلق بالرجال. في هذه الدراسة ازدحمت النساء على هيئة محلفات، وأعطين أيضاً حكماً أكثر تساهلاً للمدعى عليه أكثر من السيدات الأقل ازدحاماً. وجاء الرجال على عكس ذلك تماماً. إن سبب ظهور هذه الاختلافات بين الجنسين لم يتضح بعد، وهناك دليل على أن الذكور أكثر حساسية للعبء الحسي Sensory Overload في المواقف غير الاجتماعية ذات الكثافة العالية أكثر من النساء (Leventhal & Levitt, 1979) وافترض

ابستين وكارلن (١٩٧٥) أنه يمكن إرجاع الاختلافات بين الجنسين في الاستجابة للازدحام إلى العمليات المختلفة التي تحدث في جماعتي الذكور والإناث. ووجدوا أنه في المواقف غير البنائية Unstructured ذات الكثافة العالية تكون جماعات الإناث أكثر تماسكاً وتعاوناً وتفاعلاً. من جهة أخرى كان التفاعل بين أعضاء جماعة الذكور أقل، وأصبحت مقسمة إلى أجزاء وصار بينهم تنافس. وبالمثل وجد كارلن وزملاؤه (١٩٧٦) أن الإناث استجبن إيجابياً للازدحام عندما شجع الموقف على التفاعل. وقد أكدت الدراسة العملية الوحيدة التي استجاب فيها الرجال للازدحام بشكل أكثر إيجابية من النساء، أكدت أن طبيعة المهمة تعد متغيراً مهماً (Marshall & Heslin, 1975). في هذه الحالة كان الموقف منظماً بشكل كبير واعتمد الأداء الناجح للمهمة على تكوين فريق موجه نحو الإنجاز. هكذا يبدو الازدحام غير سار بالنسبة للذكور في المواقف غير البنائية، حيث يكون الاندماج مع الآخرين في نفس الحجرة غير ضروري على الإطلاق. وتظهر الدراسات الميدانية القليلة في مجال الاختلافات بين الجنسين في الاستجابة للازدحام تناقضاً مع الحقائق التي كشفت عنها الدراسات العملية. وقد توصلت دراسات أجريت على طلاب يعيش كل ثلاثة في حجرة نوم مصممة لاثنتين فقط، إلى أن النساء أكثر شعوراً بالازدحام من الرجال (Aiello, Buam & Gormley, 1981; Mandel, Baron & Fisher, 1980).

ويرى أيلو وتومسون وبوم (١٩٨١) أن هذا قد يرجع إلى أن الرجال أكثر ميلاً لأن يتحملوا الازدحام أو يتكيفوا معه عن طريق ترك حجراتهم بينما تظل الإناث لفترة أطول في حجراتهن حتى وإن شعرن بالازدحام.

وتذكرنا نتائج الفروق بين الذكور والإناث في إدراك الازدحام بأن العلاقة بين الكثافة والازدحام ليست بسيطة. كما توضح أنه يجب أن نأخذ في الاعتبار العديد من المتغيرات قبل الوصول إلى استخلاصات عن ردود فعل الإنسان لمواقف الكثافة العالية.

دراسات الازدحام طويل المدى:

اقتصرت دراسات الآثار طويلة المدى للعيش في أماكن ذات كثافة عالية على دراسة البيانات الأرشيفية التي جمعتها هيئات متعددة لأغراض أخرى، وبينما تعد قاعدة البيانات هذه مفيدة لإقترح الفروض، وأساساً لنمو وتطوير النظريات، فإنه عادة ما يمكن الاستفادة منها تدريجياً في دراسة آثار المعيشة في الكثافة العالية بطريقة منظمة. ومع ذلك يواصل الباحثون محاولة الاستفادة من هذه الإحصائيات حينما تتوفر لديهم. ويقترح زورافين (Zuravin, 1986) على سبيل المثال في دراسته أن معاشة الكثافة العالية ارتبطت بالمعدلات المرتفعة من الإساءة للطفل. وعلى الرغم من ذلك لم تتوصل البحوث إلى أن هناك ارتباطاً بين الآثار السلبية الخطيرة والعيش في الكثافة المرتفعة، مما يعني أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والديموجرافية قد تكون على الأقل في نفس المستوى من الأهمية (Booth & Edwards, 1976; Ruback & Pandey, 1991).

وتعد الدراسة التجريبية للآثار طويلة المدى للكثافة صعبة للغاية، فعلى مدى العشرين عاماً الماضية ركز علماء علم النفس البيئي على موقعين سكنيين لإلقاء الضوء على الازدحام طويل المدى، وكان هذان الموقعان هما السجون وسكن الطلاب الجامعيين.

ومن جوانب عديدة وفرت السجون فرصة جيدة للباحثين المهتمين بالازدحام حيث يوجد تنوع كبير في نظام المعيشة، والكثافات، ويتوفر الأشخاص الذين لم يختاروا بحرية ترتيبات معيشتهم في معظم الحالات. بالإضافة إلى ذلك فإن ازدحام السجن أصبح مشكلة كبيرة، وهناك حاجة ملحة لفهم دينامياتها. ولتوضيح ذلك فإن جمهور النزلاء قد زادت نسبته ٤٥٪ من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٨٤. ومع ذلك زادت مساحة المباني بنسبة ٢٩٪ فقط خلال نفس الفترة الزمنية. والأسوأ من ذلك أن أعلى الكثافات وجدت بالمناطق القديمة التي بها أقصى حد للأمان، وتسهيلات للذكور فقط (Innes, 1986). ويقرر اينس وروبك (Innes & Ruback, 1988) أن كثافة الأفراد في الغرف في سجون الولاية زادت تقريباً حوالي ٧٠٪ من ١٩٧٨ إلى عام ١٩٨٨. ومن

الواضح أن الكثير من الناس يعيشون في ظل ظروف كثافة عالية، والتي تعد قاسية ولا مفر منها. ولكن ما تأثير هذا على مئات الألوف من المسجونين الآن في السجون الأمريكية؟

وقد أرسيت الإجابة على ذلك للدرجة أن ضغط الدم المرتفع لدى السجناء يرتبط بكثافة ظروف معيشتهم (D'Arti, 1975; D'Arti & Ostfeld, 1975; Paulus, McCain & Cox, 1978) كما تزداد الشكاوى من قبل المرضى في السجون وسجون المقاطعة في ظل الكثافات العالية (McCain, Cox & Paulus, 1976; Wener & Keys, 1988). وباستخدام البيانات الأرشيفية والبيانات التي جمعها كل من بولوس وماكين وكوكس (Paulus, McCain & Cox, 1978) بهدف دراسة رفقاء الغرف في عشرة سجون مختلفة، تتراوح في كثافتها السكانية من ٢٤٥ إلى ٢,٤٠٠ سجين. ولوحظ أنه في جميع الحالات قد أسفرت الكثافات السكانية العالية عن معدلات أكبر من الوفيات، هذا علاوة على الأمراض النفسية. وارتبطت إدراكات النزلاء للازدحام بدرجة كبيرة بالكثافة المكانية عن الكثافة الاجتماعية.

وفي دراسة أجريت في سجنين وجد روباك وكار وهوبر (Ruback, Carr & Hopper, 1986)، أن الشعور بالسيطرة في بيئة السجن قد ارتبط بحجم الضغوط التي يشعر بها النزلاء، ويوجد لدى النزلاء الذين يعيشون في حجرات فردية مشاعر كبيرة بالتحكم والسيطرة مقارنة بالنزلاء الآخرين، وكذلك الحال بالنسبة للنزلاء الذين قضوا في السجن مدة طويلة. وأظهرت هاتان المجموعتان مستويات أقل نسبياً من الضغوط بالمقارنة بالنزلاء الآخرين.

والملاحظ أن هناك بطلاً من قبل صانعي السياسة في أن يأخذوا في الاعتبار نتائج البحوث التي أجريت بالسجون في تعديل سياسة هذه السجون.

وطبقاً لروباك وأنيس (Ruback & Innes, 1988) قد يرجع ذلك إلى أن علماء النفس ركزوا على الأفراد وليس على وحدات التحليل الكبرى، كما ركزوا على المتغيرات التابعة مثل شعور النزلاء بالإحباط والسيطرة، والتي تعد غير مفيدة لمديري السجن ومسؤولي الحكومة مقارنة بالمتغيرات الأخرى.

وأظهرت أيضاً مساكن نوم الطلاب فائدتها من حيث كونها معامل لعلماء النفس المهتمين بالازدحام. وعلى الرغم من أن لطلاب الجامعة تحكماً أكبر في ترتيبات معيشتهم أكثر من السجناء (على الرغم مما قد تظنه) فإن للمساكن الطلابية كثافات متنوعة وترتيبات فيزيقية ودرجة من الاختيار بين قاطنيها، وتمكن هذه العوامل الباحثين من دراسة كيف يمكن أن تؤثر هذه الظروف على الناس الذين يقضون وقتاً طويلاً فيها. وتركز معظم أبحاث سكن الطلاب على الاختلافات بين مساكن «الجناح» (حيث يوضع بها مجموعات صغيرة من الأشخاص في وحدات منعزلة) وبين مساكن «الطرقات» (حيث يوضع بها مجموعات كبيرة في حجرات مفتوحة على صالات طويلة مستقيمة) ووجد فالنز وبوم Valins, Baum (١٩٧٣) أن المقيمين في الجناح شعروا بأنهم أقل ازدحاماً من المقيمين في حجرات «الطرقات». وافترضوا أن ذلك ربما يرجع إلى زيادة في التفاعلات غير المرغوبة في حجرات الطرق، ووجود الجماعات المتماسكة في الأجنحة.

وقد وجدت هذه الأفكار بعض التأييد في دراسة لاحقة قام بها بوم، وهاربن وفالنز Baum, Harpin & Valins (١٩٧٥)، حيث أمكن لطلاب المرحلة الأولى المقيمين في الأجنحة حل مشكلات الجماعة بصورة أفضل من المقيمين في حجرات الطرق، وبدأت مجموعات الأجنحة أكثر تماسكاً، وكان أدائها أكثر سهولة وسلاسة، مما يشير إلى أن ترتيبات الجناح تخفف بالفعل من مشاعر الإحساس بالازدحام. وبغض النظر عن ترتيبات الحجرات فمن الواضح أن الكثافات العالية للغاية في مساكن الطلاب تؤدي إلى ردود فعل سلبية وانسحاب اجتماعي من جانب الطلاب (Baron, Mandel, Adams & Griffin, 1976; Baum & Valins, 1977). وقد ركز الكثير من الطلاب على أسلوب «الثلاثي» الشائع Tripling، والذي يعيش فيه ثلاثة من الطلاب في حجرة مصممة لاثنين، وكان هذا الترتيب دائماً غير مُرضٍ، وظهرت آثاره السلبية واضحة عندما كان القاطنون من الذكور، وفي الحجرات التي توجد بالممرات الطويلة (Mullen & Felleman, 1990). وقد اقترح بوم وشابيرو وموراي

وويدمان Baum, Shapiro, Murray & Wideman (١٩٧٩) أن الازدحام الثلاثي لا يمثل على الإطلاق دالة للكثافة، ولكنه على الأقل يرجع إلى عدم استقرار أو عدم اتزان الجماعات المكونة من ثلاثة أشخاص.

وفي هذه الجماعات الثلاثية يكون من الشائع أن يصبح فردان من الثلاثة أكثر صداقة مع بعضهما البعض أكثر منه مع الشخص الثالث، ويكونان تحالفاً يجعل الطرف الثالث يشعر وكأنه دخيل. ونشير دراسة حديثة قام بها لبوري وايفانز وشنيدر Lepore, Evans & Schneider (١٩٩١) إلى أن الطلاب الذين يشعرون بأنهم جزء من شبكة اجتماعية مساندة داخل سكن الطلاب يتحملون الازدحام عن الطلاب الذين لا يُحفظون بهذا التأييد الاجتماعي، ومع ذلك وجد لبوري وزملاؤه أيضاً أنه إذا استمرت عملية الازدحام لفترة طويلة (أكثر من ثمانية شهور) فإن الضغوط المصاحبة تمحو فكرة التأييد الاجتماعي، وتقلل تأثيرها للغاية كعامل مخفف للازدحام.

كما درست آثار الازدحام الطويل المدى في مواقع أخرى. على سبيل المثال، قام دين وبوف وجوندرسون Dean, Pugh & Gunderson (١٩٧٦) بسؤال رجال متطوعين على متن ١٣ سفينة بحرية، ووجدوا أن هناك علاقة بين الكثافة والرضا والنية للاستمرار في البحرية. ووجد فليمنج وبوم ويز Fleming, Baum & Weiss (١٩٨٧) معدلات عالية من الضغوط والمرض النفسي في المجاورات السكنية المزدحمة. وعلى الرغم من ذلك فإن هناك القليل من الدراسات التي تناولت هذا الجانب، وما زالت السجون ومساكن الطلاب تعتبر أكثر المصادر خصوبة للمعلومات عن التعرض طويل المدى للمعيشة ذات الكثافة العالية.

العوامل المعدلة لآثار الكثافة :

يعد نوع Gender الأفراد المتضمنين في دراسة الكثافة أحد العوامل المهمة في التنبؤ بردود الفعل للكثافة العالية، كما تؤثر العديد من العوامل الأخرى على العلاقة بين الكثافة والازدحام، وفي دراسة على النساء الآسيويات وجدت جين Jain (١٩٨٧) أن ندرة الموارد تسهم في زيادة الشعور بالازدحام. وتذكر لو

وزملاؤها (Loo, 1973; Loo & Smetana, 1978) أن العمر يعد عاملاً مؤثراً في كيفية تحمل الأطفال للكثافة العالية، وافترضوا أيضاً أن مدى بنائية البيئة والأنشطة الجماعية ذات أهمية خاصة.

ويعتقد الكثير من علماء النفس أن الشخصية متغير جوهري في الازدحام، وذكر كل من كيو وبرنر Khew & Brebner (1985) أن الانبساطيين يلاحظون الازدحام بسرعة أكبر من الانطوائيين، ووجدت عدة دراسات أخرى أن الأشخاص المرتفعين في الحاجة للانتماء Need for Affiliation يتحملون الازدحام عن المنخفضين في هذه الحاجة (Miller, Nardini, 1977; Miller, Rossbach & Munsonm 1981). كما اقترنت أيضاً عملية «فرز المثير Stimulus Screening»^(*) (الذي وصفناه في الفصل الثالث)، بالقدرة على تحمل الازدحام (Baum, Calensnic, Davis & Gatchel, 1982).

ومن الطبيعي أن تؤثر الخلفية الثقافية للفرد وتاريخ الخبرات الشخصية مع الازدحام في كيفية استجابته أو استجابتها، على الرغم من أن طبيعة هذه العلاقات لم تتضح بعد. وتوصلت دراسة استخبارية أولية عن ردود الفعل لمواقف الكثافة العالية، إلى أن البريطانيين كانوا أقل تحملاً للكثافة العالية، وأن الجماعة المختلطة من الآسيويين كانت الأكثر تحملاً للكثافة. واحتل الأوروبيون الجنوبيون في هذه الدراسة، من الإيطاليين موقعاً وسطاً (Gillis, Richard & Hagan, 1986). وعلى المستوى الفردي تشير البحوث إلى أن الفرد الذي مر بالكثير من مواقف الازدحام يتكيف أحياناً مع الكثافة العالية أفضل من الفرد الذي لم يمر بهذه المواقف، ولكن في بعض الحالات يكون العكس صحيحاً (Booth, 1976; Gove & Hughes, 1980; Rohe, 1982; Sundstom, 1978; Walden, Nelson & Smith, 1981).

وفي أوقات كثيرة تكون المظاهر المعمارية للمباني بمثابة العوامل الأولية

(*) وصفه المؤلف في الفصل الثالث بأنه مقياس للقابلية للاستشارة طوره مهربان (المترجم).

التي تتحكم في كيفية شعور الناس بالازدحام في تلك البيئة. وفي الحجرات السكنية تسمح الأسرة المتعددة الطوابق باستخدام حيز أكبر من الطابق أكثر من الأسرة المتجاورة، والتي عادة ما تبدو أقل ازدحاماً (Rohner, 1974).

ودرس شيفنبور وزملاؤه Schiffenbauer (1977) الازدحام في مساكن الطلاب، ووجدوا أن هناك العديد من العوامل الفيزيائية غير حيز الطابق الفعلي تسهم في الحجم المدرك للازدحام، فالحجرات التي يدخلها ضوء الشمس يحكم عليها بأنها أكثر إضاءة وأقل ازدحاماً، بينما ينظر إلى الحجرات التي بها أرضيات أكثر استخداماً، والحجرات في الأدوار العليا على أنها أوسع. ووجد سافينار Savinar (1975) أن الأسقف الأعلى ترتبط بازدحام أقل. واستخدم عدد من الدراسات التي تناولت العلاقة بين المعمار والازدحام مقياساً إسقاطياً Projective للازدحام، حيث يضع الأشخاص أشكالاً في حجرات النموذج معدلين العديد من هذه الأشكال والمسافات فيما بينها بحسب سعة الحجرة. وباستخدام هذا الأسلوب، أوضح ديسور Desor (1972) أن الحجرات التي بها أبواب ونوافذ يمكن أن تحتوي على المزيد من الأشكال، مثل الحجرات المستطيلة بالمقارنة بالحجرات المربعة التي لها نفس المساحة. ووجد روتون Rotton (1987) أن الأشخاص المبحوثين كانوا أقل تحملاً للازدحام في حجرات ذات حوائط منحنية (أكثر منها مستقيمة). وذكر بوم ودافيز Baum & Davis (1976) أن معظم الأشكال وضعت في الحجرات الفاتحة اللون وليس في الحجرات القاتمة.

إن إضافة الصور إلى الحجرة أو أي شيء آخر يمكن أن يزيد من تعقيدها البصري، ويؤثر أيضاً على إدراك الازدحام، ولكن هذا التأثير يعد مركباً، ويعتمد بدرجة كبيرة على طبيعة الأنشطة الأخرى التي تتم في الحجرة (Baum & Davis 1976; Worchel & Teddlie, 1976).

نظريات الازدحام:

الآن وبعد أن أصبحت على دراية بكيفية تأثير البيئة على الإنسان، فقد حان الوقت لأن نأخذ في الاعتبار النظريات التي تحاول تفسير هذه الآثار. وقد

أوضح بوم وبولوس Baum & Paulus (١٩٨٧) أن نظريات الازدحام تختلف عن بعضها البعض في عدة جوانب مهمة، حيث تركز بعض النظريات على الآثار الخارجية والموقفية على الازدحام، وتركز أخرى على استجابات الفرد، كما يهتم البعض بشكل أساسي بالموقع الفيزيقي، وآخرون يؤكدون المتغيرات الاجتماعية، ومع ذلك يجب أن تضع جميع نظريات الازدحام في الحسبان البيانات التي تم جمعها عن طريق البحث والتنبؤ بالمسببات والعواقب الناتجة عن الازدحام في مواقف نوعية محددة إن كان سينظر لها جدياً.

ولا تزال النظريات حول طبيعة الازدحام في مهدها، والعديد من النظريات تتنافس على كسب الانتباه أو الاهتمام، ويبدو أغلبها معقولا، وله درجة من التأيد، ولكن ليس بينها ما هو مُرضٍ تماماً. وسأقوم بوصف أنواع النظريات التي شاعت بين علماء النفس البيئي، وسأشرح بإيجاز أكثر النماذج تأثيراً. وتنتمي نماذج الازدحام إلى واحد من خمس فئات هي: الأيكولوجية، والعبء الزائد، وشدة الكثافة، والاستثارة، ونماذج الضبط أو التحكم.

النماذج الأيكولوجية: Ecological Models

على الرغم من أن هذه النماذج لا تمثل نظرية في الازدحام فإن نموذج علم النفس الأيكولوجي لروجر باركر (Barker, 1960, 1963, 1965, 1968; Wright, 1955, Wicker, 1973)، يقدم منظوراً لتفسير العديد من السلوكيات التي تظهر في ظل ظروف الكثافة العالية. وقد نما نموذج باركر من ملاحظاته في محطة المجال السيكلولوجي للوسط الغربي في أوسكالوسا بكانساس، وطبقاً لباركر تحتاج مواقع السلوك العدد المناسب فقط من الناس لتعمل جيداً. وفي حالة ما إذا كان الموقع سفينة أو محلاً أو فصلاً في كلية فإن هناك العدد المثالي من الأفراد الذي سيجعل المكان أو الموقع يؤدي وظيفته بأعلى كفاءة ممكنة. وتؤدي قلة الناس إلى نقص الإشغال Understaffing، مما يترتب عليه عدم استقرار ومطالب أكثر على الأفراد المستخدمين لهذه البيئة. من جهة أخرى، فإن إفراط الإشغال Overstaffing يحدث عندما يكون عدد الناس أكبر بكثير من المطلوب أو حاجة

الموقع للعمل، حيث يؤدي هذا إلى تنافس على الموارد المحدودة والشعور بالازدحام.

ويطلق على النظرية الأكثر حداثة في مجال النموذج الأيكولوجي «الفيزياء الاجتماعية» (Social Physics (Knowles, 1983). ويركز هذا النموذج على توزيع الأشخاص في موقع السلوك وليس فقط دراسة المسافات فيما بين الأشخاص. فعلى سبيل المثال من المهم أن نعرف ما إذا كان الأشخاص المحيطون بالفرد ليسوا إلا مجرد حضور، أو ما إذا كانوا يلاحظون بفاعلية أو يتفاعلون مع هذا الشخص. وقد يكون هناك أيضاً حواجز بصرية أو سمعية في الموقف الذي سوف يؤثر على إدراك الازدحام. وتشبه الأبنية أو التراكيب الاجتماعية كثيراً النموذج الأيكولوجي، في تأكيدها طبيعة موقع السلوك في تحديد متى سيحدث الازدحام. ووجد نولز Knowles (١٩٨٣) وفري ومارك وونر وفيلبس وكوربر Freimark, Wener, Phillips, Korber (١٩٨٤) أن هذا المنظور مفيد في التنبؤ بالوقت الذي يقوم فيه الملاحظون أو المشاهدون المواقع على أنها مزدحمة أو غير مزدحمة.

نماذج العبء الزائد: Overload Models

طور العديد من الباحثين (Cohen, 1978; Milgram, 1970; Saegert, 1978) نظريات يمكن النظر إليها على أنها نماذج العبء الزائد من المنبهات أو المعلومات، وبينما تختلف هذه النماذج في بعض الجوانب فإن جميعها يفترض أن البيئات ذات الكثافة العالية تقدم للأفراد المعلومات الحسية التي تتعدى مستوياتهم المفضلة للإثارة، وغالباً ما تتعدى قدراتهم على استيعابها. في تلك المواقف ذات الكثافة العالية تكون المطالب المعرفية ومطالب معالجة المعلومات كثيرة جداً. وقد يؤدي هذا إلى فرض قيود على الكفاءة أو السعة الانتباهية للشخص، وإلى الضغوط والاستثارة. ويجب أن يركز الشخص في مثل هذا الموقف على المعلومات الملائمة من البيئة، ويتغاضى عن المعلومات غير الملائمة، والتي ليست لها صلة بالموضوع. واقترح ميلجرام Milgram (١٩٧٠) أن انسحابات الفرد المثقل بالعبء الزائد من الاندماج الاجتماعي Social Involvement مع أناس

أقل أهمية يمكن النظر إليه على أنه نتيجة لزيادة المطالب الاجتماعية، وقد يؤخذ ذلك في الحسبان بالنسبة للعديد من السلوكيات التي تبدو وقحة وبعيدة، والتي سوف نتحدث عنها في فصل قادم.

ويتفق إيفانز وزملاؤه Evans (١٩٨٩) على أن الأشخاص الذين يعيشون في ظل ظروف ازدحام قد يتبنون نمطاً من العلاقات للانسحاب الاجتماعي بهدف التعامل مع موقف العبء الزائد، وبالتالي قد يفتقر هؤلاء الأفراد إلى شبكة التأثير الاجتماعي، والتي قد تساعد على حمايتهم من الضغوط المصاحبة للازدحام. وفي دراسة ميدانية أجريت في الهند، أكد الباحثون أن الكثافة السكانية العالية ترتبط بزيادة الضغوط، وبالقليل من التأثير الاجتماعي. وكان الأفراد الذين قرروا أنهم حصلوا على كم كبير من المساندة الاجتماعية أكثر ميلاً لأن يقرروا مستويات عالية من الضيق النفسي.

نموذج الكثافة - الشدة : The Density-Intensity Model

قدم فريدمان Freedman (١٩٧٥) نموذج الكثافة - الشدة، وهو من النظريات القليلة في الازدحام التي تفترض أن آثار الكثافة العالية على البشر ليست سلبية دائماً. وطبقاً لهذه النظرية فإن الكثافة في حد ذاتها ليس لها آثار حسنة أو سيئة على الأشخاص، ولكنها تزيد من شدة أو حدة رد الفعل النمطي للفرد في الموقف. وهكذا إذا وجد الفرد نفسه في موقف سار (كأن يكون في حفل أو حدث رياضي) فإن الازدحام مع وجود آخرين قد يؤدي في الحقيقة إلى جعل الموقف أكثر إمتاعاً. ومن جهة أخرى، فإن المواقف غير السارة مثل التسوق في آخر لحظة من عيد الميلاد أو الوقوف للتسجيل الدراسي، تصبح أكثر كراهية إذا حدث ازدحام. ويشبه فريدمان أثر الكثافة بمفتاح الصوت في الاستريو، حيث زيادة الصوت عند سماع الموسيقى المفضلة يزيد من استمتاعك بها، في حين تزيد حدة رفضك لموسيقى لا تحبها عند سماع صوتها العالي المنبعث من مذياع الجيران. وقد أيدت العديد من الدراسات أفكار فريدمان، حيث تبين أن الكثافة تزيد من حدة مشاعر الناس في كل من المواقف السارة وغير السارة

(Freedman, Birsky & Cavoukian, 1980; Freedman & Perlick, 1979;
. Schiffenbauer & Schiavo, 1976; Walden & Forsyth, 1981)

نماذج الاستثارة: Arousal Models

تعتمد بعض نظريات الازدحام (Evans, 1978; Paulus, 1980) على دليل يبين أن الكثافة العالية مثيرة لعدة أسباب. وتفترض هذه النظريات أن المستويات العالية من الاستثارة تؤثر على أداء المهام أو السلوكيات الاجتماعية. فمستويات الاستثارة العالية تؤثر على أداء المهام المركبة وليس البسيطة، وتؤدي إلى اضطراب أو تشتيت الظواهر الاجتماعية الطبيعية مثل التجاذب، والعدوان، وسلوك المساعدة، والاتصال غير اللفظي. وبشكل ما ارتبطت نماذج الاستثارة بنماذج العبء الزائد، لأن مستويات الاستثارة العالية التي تنشأ عن العبء الحسي الزائد يمكن أن تحدث في مواقف الكثافة العالية.

ويعتقد ورشل وتدلي Worchel & Teddlie (١٩٧٦) أن العلاقة بين الازدحام والاستثارة معقدة إلى حد ما، واقترحا نظرية ثنائية ذات عاملين Two-Factor للازدحام. وطبقاً لورشل وتدلي، فإن عزو الحيز الشخصي يؤدي إلى مستويات استثارة عالية. فإذا عزى (أو أرجع) الشخص الاستثارة الزائدة إلى الأشخاص الآخرين في الموقف فإن ذلك سوف يجعله يشعر بالازدحام. ويقرر جوشمان وكيبنج Gochman & Keating (١٩٨٠) أن الناس غالباً ما يعزون المشاعر غير السارة إلى عوامل أخرى للازدحام، حتى إذا توفرت تفسيرات أخرى. وعلى الجانب الآخر، هناك دليل على أن الأشخاص في الحقيقة قد يشعرون بأنهم أقل ازدحاماً إذا اعتقدوا أن جذور أو أصول استشارتهم ترجع لمصادر أخرى مثل فيلم يشاهدونه (Worchel & Brown, 1984) أو حتى ضوضاء غير صاخبة (Worchel & Yohai, 1979) أكثر منها إلى الازدحام.

نماذج الضبط أو التحكم: Control Models

تمثل المجموعة الأخيرة من نظريات الازدحام في نماذج التحكم، وهو

منظور أصبح أكثر فاعلية، فقد اتحدت الكثير من النظريات المتنافسة عن طريق مفهوم التحكم الشخصي Personal Control، أي الحرية التي يمتلكها الفرد لإصدار القرارات والسلوكيات التي يختارها. ويمكن أن يشير التحكم الشخصي أيضاً إلى مشاعر «التحكم المعرفي»، والذي يعني أن الفرد يشعر أن لديه فهم ومعلومات كافية في الموقف لكي يشعر بدرجة من التحكم فيما يحدث. وتفترض نماذج التحكم أن الكثافة المرتفعة تؤثر على سلوك الإنسان ومشاعره، لأنها تميل إلى تقليل شعور الفرد بالتحكم، وتؤدي إلى إدراك الازدحام.

وقد انبثق هذا المنظور من النماذج المبكرة للازدحام. وتشير نماذج التدخل Interference (Schopler & Stockdale, 1977) إلى أن وجود الكثير من الأشخاص الآخرين يعوق الأنشطة الهادفة، ويسبب الإحباط.

وتفترض نماذج تقييد السلوك Proshansky, Ittelson, Rivlin 1976; Behavioral Constraint (Stokols, 1972, 1976) أن وجود العديد من الأشخاص الآخرين يضع قيوداً حقيقية أو مدركة على سلوكياتنا. وعالج باحثون آخرون (Baron & Rodin, 1978; Baum & Valins, 1979; Schmidt & Keating, 1979; Sherrod & Cohen, 1978) هذه الأفكار الأولية عن طريق تطوير فكرة أهمية التنبؤ والتحكم لراحة الإنسان، حيث لا يتدخل الحضور الوثيق للآخرين فقط في تحقيق الأهداف، ولكن عندما يكون هؤلاء الأشخاص الآخرين غرباء، تصبح البيئة أقل قابلية للتنبؤ والتحكم، كما تصبح مقيدة، لذلك فإن عدم التحكم وعدم الكثافة المدرك يعد في حد ذاته مسؤولاً عن الآثار السلبية التي توجد غالباً في مواقف الازدحام. وفي جوانب عديدة يتشابه نموذج التحكم للازدحام مع نظرية سيلجمان Seligman (1975) للعجز المتعلم العام General Learned Helplessness، حيث يطور الأفراد الذين يمرون بكثافة عالية التوقع بأن أفعالهم لا تؤثر على ما يحدث لهم.

وهناك دليل على أن التفاعل غير المرغوب فيه والنتائج عن الكثافة العالية، يحطم بالفعل مشاعر التحكم الشخصي. ووجد مونتانو وآدموبولوس Montana & Admopulus (1984) أن الناس غالباً ما يتعرفون على القيود السلوكية

وعرقلة الهدف من حيث كونها مكونات أولية لخبرة الازدحام، ووجدت العديد من الدراسات الأخرى أن زيادة شعور الفرد بالتحكم الشخصي يمكن أن يخفف بشكل كبير من خبرة الازدحام (Burger, Oakman & Ballard, 1983; Karlin, Katz, Epstein & Woolfolk, 1979; Langer & Saegert, 1977; Paulus & Matthews, 1980; Rodin, Solomon & Merealf, 1978; Sherrod, 1974). وأوضحت إحدى هذه الدراسات (Langer & Saegert, 1977) أهمية التحكم المعرفي في خبرة الازدحام. حيث مر المبحوثون في سوبر ماركت بمدينة نيويورك، بقائمة من مشتريات البقالة خلال فترة ازدحام، وأخرى ليس بها ازدحام، وكانت مهمتهم هي اختيار أكثر الأنواع اقتصاداً في بنود القائمة. ووجد لانجر وساجرت أن مجرد إمداد المبحوثين بمعلومات إرشادية عن آثار الازدحام قد أحدث تحسناً في كل من أداء المهمة والردود الانفعالية للمبحوث في ظل كثافة عالية.

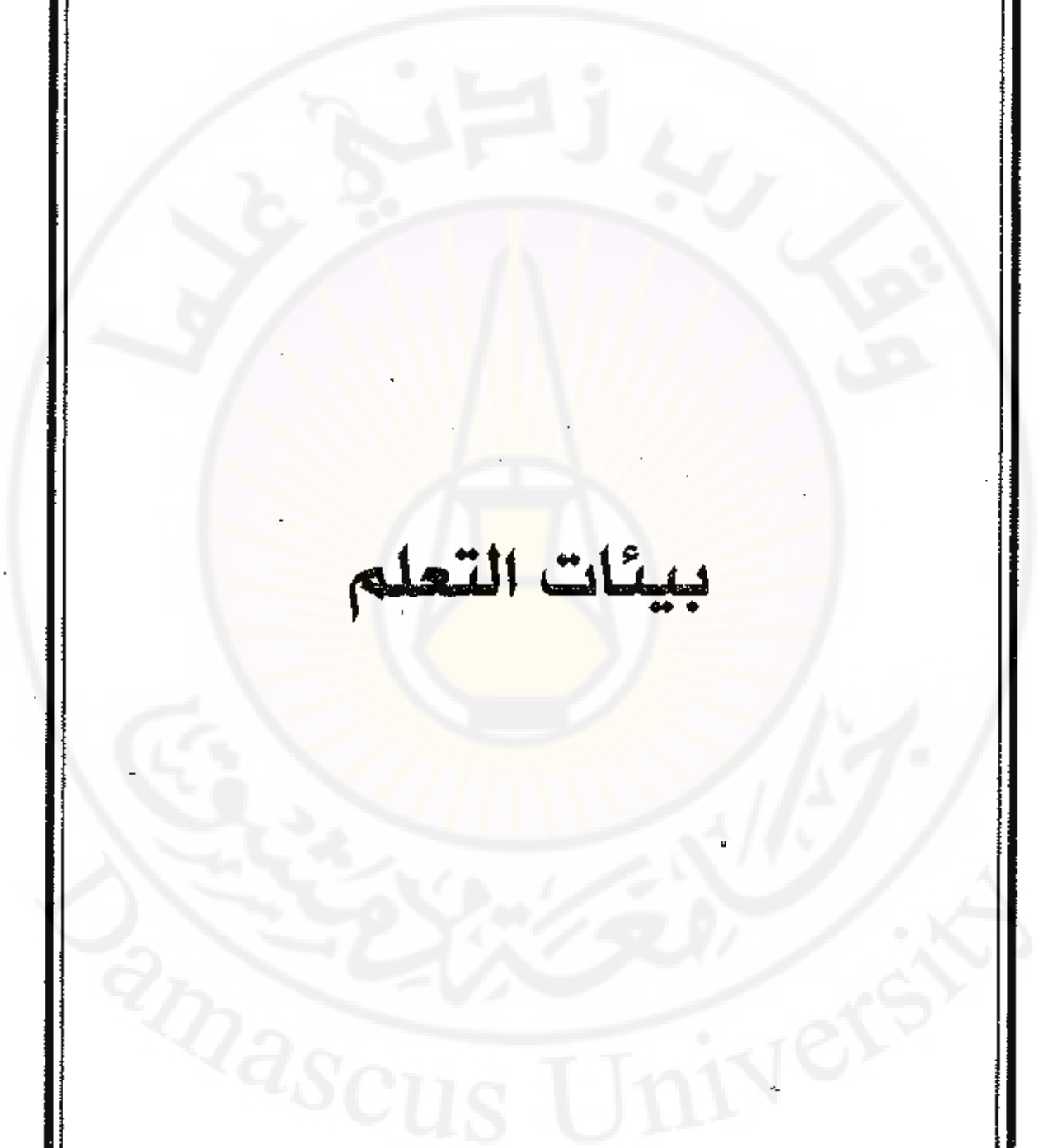
ملخص الفصل:

إنه من الأهمية بمكان أن نميز بين مفهومي الكثافة والازدحام. فالكثافة هي مقياس موضوعي لعدد الأفراد بالنسبة لكل وحدة من وحدات الحيز أو المساحة، أما الازدحام فيشير إلى الحالة الذاتية السيكولوجية والتي تؤدي إلى مشاعر سلبية. وبينما تعد الكثافة عادة عنصراً مهماً في الازدحام، فإن إدراك الازدحام يتأثر بمتغيرات موقفية وديموجرافية أخرى مثل العمارة ومتطلبات المهمة وعمر الفرد وجنسه.

ومما لا شك فيه أن التعرض الطويل المدى للكثافة العالية يمكن أن يكون له مرتبات سلبية على الصحة والسلوكيات الاجتماعية للعديد من أنواع الحيوانات. وقد يكون نفس الشيء صحيحاً بالنسبة للبشر. إلا أنه ينبغي الحذر في الانتقال من التعميمات المستمدة من نتائج دراسات الحيوانات إلى البشر بشكل مباشر وبسيط.

ويمكن تقسيم الدراسات التي تناولت ردود فعل البشر للكثافة العالية إلى

بيئات التعلم



المدارس وحجرات الدراسة:

من أكثر البيئات ألفة لأي فرد يقرأ هذا الكتاب، المدرسة وحجرة الدراسة التي قضى فيها جزءاً كبيراً من حياته. وقد توصل جيمب Gump (١٩٧٨) من خلال عملية حسائية إلى أن المتوسط الذي يقضيه الفرد في المدرسة حوالي ١٤٠٠٠ ساعة من الحضارة إلى الصف الثاني عشر، ويستغرق الأشخاص الذين يذهبون إلى مراحل ما قبل المدرسة أو الجامعة وقتاً أطول من ذلك، وبالتالي، فإن الأفراد الصغار يقضون معظم ساعات يقظتهم في بيئات مدرسية، وبناء على ذلك، فمن المهم بمكان أن تكون المدرسة مكاناً ساراً وفعالاً وتيسر خبرات التعلم.

الملامح الفيزيائية للمباني المدرسية:

من الملامح الأساسية للبيئة الفيزيائية، المتغيرات المحيطة مثل الضوء، واللون، وخشونة أو نعومة الأسطح. وتوضح البحوث أن إعطاء مزيد من الانتباه لهذه العوامل الرئيسية المحيطة يمكن أن يؤدي إلى بيئة تعليمية أفضل. وفي بعض الأحيان يكون المطلوب بعض التعديلات البسيطة. ويعزو ميهرابيان Mehrabian (١٩٧٦ «أ») حدوث الزيادة الجذرية في استخدام التلميذ لمكتبة المدرسة الابتدائية المملة إلى إزالة بعض المناضد والكراسي واستبدالهما بسجاد خشن أو زقيق، ومجموعة من الوسائد. وقد أيدت عدة تجارب منظمة ومضبوطة مزايا نعومة البيئة التعليمية. فقد وجد سومر Sommer وأولسن Olsen (١٩٨٠م): أن إزالة المواد الخشنة والانحناءات من الفصول (قاعات الدراسة) في الجامعة، باستخدام الوسائد، والأضواء القابلة للتعديل، والفرش بالسجاد، تؤدي إلى زيادة المشاركة الفصلية. وذكر نيل Neill (١٩٨٢ «ب») أن الفرش بالسجاد في مدارس التمريض أدى بمفرده إلى مزيد من التفاعل بين التلميذ والمعلم مقارنة بالسطح ذي الملمس الخشن.

وهناك مناقشات كثيرة تركز على أهمية النوافذ في الفصول الدراسية خاصة في المدارس الابتدائية. وتثبت البحوث أن التلاميذ يفضلون بشدة الفصول ذات

النوافذ، ولكن المعلمين يشعرون في بعض الأحيان أن الحجرات التي ليس بها نوافذ أكثر مرونة وأقل تشتيتاً (Ahrentzen, Jue, Skorpanich & Evans, 1982; Larson, 1965)، ومع ذلك، لم يجد أي بحث من هذه البحوث أي فروق بين أداء التلاميذ الذين يجلسون في حجرات بنوافذ وأداء هؤلاء الجالسين في حجرات ليس بها نوافذ.

ويبدو أن اللون يمثل بُعداً ذا أهمية خاصة في تحديد استجابة الأطفال للمواقف الفيزيائية التي يوجدون فيها (Cohen & Trostle, 1988) ووجد كوهين Cohen وتروستل Trostle (١٩٩٠) أن البنات أكثر تفضيلاً للترتيبات المكثفة والمعقدة من الأشكال والألوان والمثيرات البيئية الأخرى مقارنة بال أولاد.

حجم الحجرات الدراسية والمدارس:

من بين جوانب البيئة المدرسية المهمة بالنسبة للتصميم الفيزيقي للمبنى ولنوع التعليم الذي يتلقاه التلميذ حجم حجرة الدراسة التي يجلس فيها التلميذ. ويعد الحجم الأمثل لحجرة الدراسة بالنسبة لعملية التعلم مشكلة قائمة وقضية سياسية ضاغطة في العديد من المدارس. وإحدى المشكلات الرئيسية لزيادة حجم حجرة الدراسة أنها تزيد عادة الكثافة المكانية والاجتماعية.

وقد ناقشنا مستويات الكثافة المرتفعة في الفصل السابع، ومن الواضح أن الكثافة المرتفعة تستثير سلوكيات غير توافقية في العديد من المواقف، ولا تعد حجرة الدراسة استثناءً من هذه القاعدة. وقد وجد روحي Rohe ونيوفير Nuffer - على سبيل المثال - أن زيادة الكثافة المكانية في فصول ما قبل المدرسة أدت إلى تناقص السلوك التعاوني وزيادة العدوان. وعلى الرغم من ذلك فإن زيادة حجم حجرة الدراسة لا يؤدي فقط لزيادة الكثافة ولكنه يؤدي أيضاً إلى زيادة التنافس على المصادر الموجودة كالمقاعد، والمواد التعليمية، وانتباه المعلم. ومن أفضل التحليلات الحاسمة التي قدمت بخصوص أهمية حجم الفصل في المدارس الابتدائية ما قدمه جلاس Glass وزملاؤه (١٩٨٢م). وليس من المستغرب أن يخلصوا إلى أن الفصول الأصغر تؤدي إلى بيئات تعليمية أفضل.

بكل المقاييس، وتشمل اتجاهات المعلم والتلميذ، والتفاعل، وبيئة التلميذ الفعلية. والأكثر من هذا فهم يعتقدون أنه بمجرد وصول حجم الفصل إلى ٢٠ أو ٢٥ تلميذاً، فإن أي إضافة أخرى تؤدي إلى فروق ضئيلة نسبياً، بمعنى آخر فإن إضافة خمسة تلاميذ لفصل سعة ١٥ تلميذاً تؤدي إلى تغير أكبر في جو الفصل عن إضافة خمسة تلاميذ لفصل فيه ٢٨ تلميذاً.

وعلى غرار ذلك فإن الحجم الأمثل لحجرة الدراسة له تضميناته بالنسبة للحجم الأمثل للمدرسة، وتعد هذه المسألة مثيرة للمشاكل بخاصة في مستوى المدارس الثانوية. ومن أجل مناقشة متعمقة لهذه القضية الجدلية انظر المربع التالي.

إلى أي مدى ستكون المدرسة الثانوية كبيرة؟

تختلف المدارس الثانوية عن المدارس الأولية في منظومة واسعة من الأنشطة اللاصفية (لا تتعلق بالمقررات) وفي المواقف المؤدية لها. وما لا شك فيه أن هذه النشاطات والمواقف تلعب دوراً مهماً في ارتقاء المهارات الاجتماعية والهوية النفسية للمراهقين. وفي ضوء أهمية خبرة المدرسة الثانوية، درس كثير من الباحثين المزايا النسبية لكل من المدارس الثانوية الكبيرة في مقابل المدارس الثانوية الصغيرة من منظور بيئي (ايكولوجي) يركز على أهمية تهيئة المدرسة بعدد من الأشخاص يعتبروه مثالياً بالنسبة للتلميذ الفرد، بالإضافة إلى المدرسة بشكل كلي.

ووجدت الدراسات أن نسبة التلاميذ إلى النشاطات مثل الرياضة، والتمثيل والحكم الذاتي للتلاميذ أقل بكثير في المدارس الكبيرة. فالمدرسة ذات الجمهور الصغير من التلاميذ تتطلب مسؤولية أكبر بالنسبة لكل تلميذ لكي يعمل بجد من أجل نجاح المدرسة، وبالتالي فإن التلاميذ في المدارس الثانوية الصغيرة من المحتمل أنهم يحتلون مراكز القيادة، ويتلقون الاعتراف على إنجازاتهم مقارنة بزملائهم في المدارس الثانوية الكبيرة. وهم يقررون بشكل متكرر بتنامي الرضا من جراء مواجهة التحديات، وكونهم جزءاً من مجموعة منتجة، ويطورون شعورهم بالكفاءة (Baird, 1969; Barker & Gump, 1964, Gump, 1987; Schoggen, 1984) وهذه

المسؤولية المضافة هامة بنوجه خاص للتلاميذ المهمشين أكاديمياً (Willems, 1967). وفي المدارس الصغيرة يستطيع التلاميذ معرفة معلمهم ورفاقهم بشكل جيد جداً، مما يثري عمق هذه العلاقات وربما يدعم الارتقاء الشخصي (Gump, 1987). كذلك فإن النقص في المجهولية^(*) يؤدي إلى سلوكيات منحرفة وإجرامية أقل (Mcpartland & McDill 1977; Plath, 1965).

كذلك فإن المدارس الثانوية الصغيرة تكون في قلب المجتمع في المدن الصغيرة والمناطق الحضرية المجاورة؛ وتؤدي النشاطات المدرسية والرياضية إلى تركيز شائع وموضوعي للمحادثة وهي مهمة لشعور المجتمع بهويته. وفي الغالب تقاوم هذه المجتمعات بضراوة أية اقتراحات بمنع النفقات عن المدارس، وتقدم التضحيات للحفاظ على مدارسها الثانوية. ولما علمت المجتمعات بأن هناك زيادة في الأعداد بدأت في الاتحاد معاً لمحاربة مقولة أن «الانتساع أفضل بالضرورة، وقد بذلت إحدى الحركات التي تسمى نفسها «صوت الحاضرة» "The voic of the prairie" مجهوداً لدى الولاية لتوحيد^(**) عدد من المدارس الثانوية الصغيرة في المناطق الريفية من الينوس.

والآن أعود لسؤالي الأصلي: ما التوسع الذي يُعدُّ كبيراً؟ تشير البحوث إلى أن حجم المدرسة الحرج (الخطير) يتراوح بين ٥٠٠ - ٧٠٠ تلميذ، وإذا حدثت زيادة بعد هذه العتبة فإن هذه الزيادة الإضافية سيكون لها أثر ضئيل (Garabino 1980).

بيئة الجلوس في حجرة الدراسة: The Ecology of Classroom Seating

إن الشكل التقليدي لحجرات الدراسة يتكون من صفوف وأعمدة من المقاعد التي تواجه المعلم وتكون السبورة في مقدمة الحجرة.

(*) أي كون الشخص نكرة وغير معروف (المترجم).

(**) المدرسة الموحدة Consolidated School: هي مدرسة ابتدائية عادة تنشأ بدمج بعض المدارس ببعضها الآخر (المترجم).

إن العلاقة بين موضع الجلوس وأداء التلميذ كانت موضع اهتمام التربويين وعلماء النفس التربوي لعدة سنوات. وقد عرض نولز Knowles (1982م) دراسة جريفت Griffith التقليدية المبكرة عام 1921م عن العلاقة بين درجات التلميذ (ترتيبه) وموضع الجلوس. وفي تلك الدراسة تم تعيين التلاميذ للمقاعد أبجدياً، ثم سجل ترتيبهم (درجاتهم) بحرص عبر عدة فصول دراسية، واستطاع جريفت الحصول على حوالي 20000 (عشرين ألف) درجة (ترتيب)، وفحص بحرص ترتيب التلاميذ في علاقته بموضع جلوسهم، واكتشف وجود علاقة منحنية مميزة بين موضع التلميذ في الجلوس وترتيب درجاته، وقد مال التلاميذ الذين يجلسون في منتصف الفصل إلى الحصول على أعلى التقديرات (الدرجات)، ويبدأ بعد ذلك التناقص الثابت في الدرجات كلما ابتعد موضع الجلوس عن المنتصف. كما أن التلاميذ الذين يجلسون في مقدمة الفصل يحصلون على درجات أعلى من الذين يجلسون في مؤخرته (Becker, Sommer, Bee & Oxley, 1973; Brooks & Rebrta, 1991, Levine, O'Neal, Garwood & McDonald, 1980; Strires, 1980).

وقد برزت مشكلة في تفسير هذه الدراسات عندما سمح للتلاميذ باختيار أماكن الجلوس. وتشير دراسات تلاميذ المدارس الثانوية إلى أن التلاميذ لديهم إدراكات محددة للأجزاء المختلفة من حجرة الدراسة، ويختارون المقاعد التي تتناسب مع أهدافهم ومع مواظبتهم، والمكانة الاجتماعية غير الرسمية داخل المجموعة (Mac pherson, 1984).

الجلوس في حجرة الدراسة والمشاركة الفصلية (الصفية)

توضح البحوث أن المشاركة الفصلية (الصفية) تزداد باقتراب جلوس التلاميذ من المعلم وفي مقدمة الحجرة. والآن اجعل محاولة التثبيت من هذه الظاهرة أحد مهامك، ابدأ بتجهيز صفحة بيانات تشمل ثلاثة أعمدة أحدها يحمل عنوان «أمام» والثاني «وسط» والثالث «خلف». صنف الثلث الأقرب في حجرة الدراسة للمعلم على أنهم «أمام»، والثلث الثاني «وسط»، والثلث الأخير «خلف»، وعلى مدى أسبوع ضع علامة

تحت العمود الملائم في كل مرة يسأل التلميذ أو، يجيب عن سؤال أو يشارك في المناقشة الصفية. ولأنك ما تزال مشاركاً حديثاً (ساذجاً) فلا تحسب إجاباتك. وفي نهاية الأسبوع أحسب عدد العلامات في كل عمود من الأعمدة الثلاثة، وانظر ما إذا كانت هناك بالفعل مشاركة كبيرة للتلاميذ الذين في الأمام أو المقدمة. وإذا فشلت في الحصول على هذه النتيجة فهل تفكر في أن متغيرات معدله مثل الشكل المعماري للحجرة الدراسة أو حجم الفصل هو الذي يمكن أن يكون قد خفض ميزة المشاركة لأولئك الذين يجلسون في مقدمة الحجرة؟

لقد وجد ماك فرسون Mac Pherson أن إحساس الفرد بأنه تحت سيطرة المعلم، وأنه معتمد عليه يرتبط بشدة بالجلوس في مقدمة الحجرة، وارتبطت مؤخرة الحجرة بحرية التفاعل مع الرفاق والتحرر من سيطرة المعلم. وبالتالي، ليس من المستغرب أن كمية معينة من الاختيار الذاتي في الجلوس تحدث عندما يكون التلميذ حراً في الجلوس في المكان الذي يختاره. فالتلاميذ الذين يأخذون المقاعد قريباً من مقدمة الحجرة يميلون لأن يكونوا مرتفعي التحصيل، ومن الذين يستمتعون بوجودهم في الفصل مقارنة بأولئك البعيدين عن المعلم؛ ويقررون - بصفة عامة - أنهم يحبون المدرسة ويعملون بجهد. كذلك فإن مرتفعي التحصيل يحصلون على درجات مرتفعة على مقياس تقدير الذات Self-esteem (Hillman, Brooks, & O'Brien, 1991; Millard & Simpson, 1980; Wabbery, 1969, Wulf, 1977) ويذكر بروكس Brooks وريبيتا Rebata (1991م) أن جلوس الإناث في مقدمة الفصل أكثر احتمالاً من جلوس الذكور، ومما لا شك فيه أن جانباً من العلاقة بين الأداء وموضع الجلوس يرجع إلى عملية الاختيار الذاتي. ففي الدراسات التي كان التلاميذ يعينون فيها على المقاعد، لم تظهر العلاقة دائماً (Wulf, 1977). ومع كل هذا، وحتى في تلك الدراسات فإن لموضع الجلوس في حد ذاته - فيما يبدو - تأثيره على الأداء (Koneya, 1976, Levine et al., 1980; Millard & Simpson, 1980).

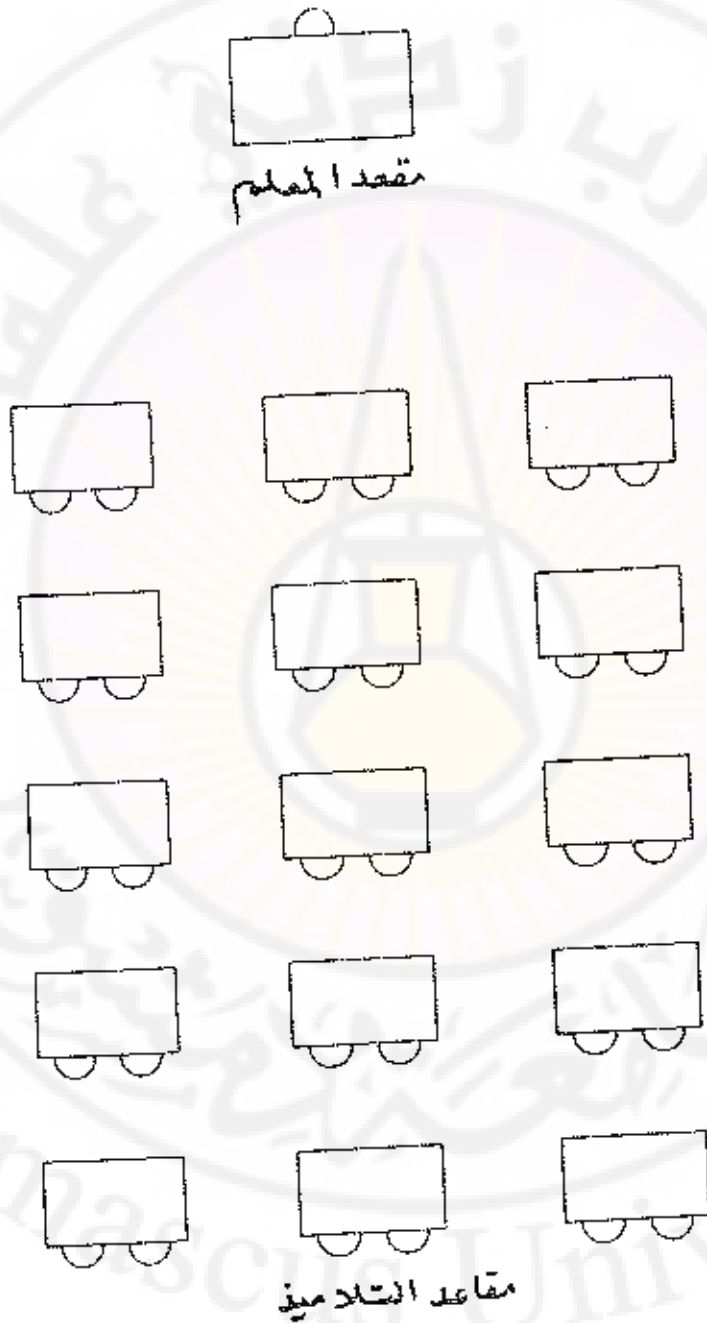
وتشير البحوث إلى أن الاتجاه نحو المقررات والمشاركة الفصلية تتأثران بشدة بموضع الجلوس أكثر من تأثر الدرجات أو التقديرات (Levine et al.,

(Montello, 1988; 1980) فالنلاميذ الأقرب إلى مقدمة ووسط الحجرة، أكثر تفاعلاً- في العادة - مع المعلم (Adams & Biddle, 1970)، وأكثر انتباهاً للمهام الفصلية (Schwebel & Cherlin 1972; Breed & Colaiuta, 1974). ويبدو أن هذا الأمر صحيح منذ الفصول المبكرة في المدرسة الابتدائية (الأساسية) (Schwebel & Cherlin, 1972) وحتى الجامعة (Sommer, 1967). وبينما يتم إرجاع هذا التأثير إلى الاختيار الذاتي، فمن الواضح، أن المستويات المرتفعة من الاتصال بالعين مع المعلم، والبروز في الفصل بالجلوس قريباً من المقدمة يشجعان المشاركة إلى حد كبير (Caproni, levine, O'Neal, McDonald & Garwood, 1977). ولكي تتأكد من صحة هذا التأثير حاول تنفيذ ما جاء بالمرجع السابق والخاص بالجلوس في حجرة الدراسة والمشاركة الفصلية.

حجرات الدراسة التقليدية في مقابل المفتوحة Traditional versus Open Classrooms

لعل أحد التغييرات التعليمية التي تنامت في الستينيات كانت التحرك تجاه حجرات الدراسة المفتوحة، هذه الحجرات مشابهة في التصميم للمكاتب المفتوحة التي ناقشناها في الفصل الثامن. وهي عبارة عن مناطق واسعة من الفراغ المرن غير المقسم، كما أنها توفر العديد من المميزات التي توجد في المكاتب المفتوحة (تكاليف إنشائية وصيانة أقل) (أنظر الشكل ٩ - ١) وعلى الرغم من عدم وجود علاقة بين تصميم حجرة الدراسة والبرنامج الأكاديمي المنفذ بالضرورة (Bennett, Andreal, Hegarty & Wade, 1980) فإن سومر Sommer يعتقد أن الطريقة التي يتبعها المعلم في تنظيم مساحة حجرة الدراسة تعكس فلسفته في التعليم. ويعتقد رفلن Rivlin وروزنبرج Rothenberg (١٩٧٦م) أن الحجرات الدراسية المفتوحة تشمل كلا من السياسة التعليمية والموقف الذي ينبع من الأشكال التقليدية (ص ٤٨٠). وبناء عليه، هناك اعتقاد شائع بأن التحول من غرفة تشبه «صندوق البيض» المقتن المستخدم في حجرات الدراسة التقليدية (انظر الشكل ٩ - ٢) سوف يصاحبه مناحي جديدة في التدريس والتعلم. إن المنظور البيئي في دراسة المواقف السلوكية (Barker, 1968; Wicker, 1979) يركز بشدة على أهمية الملاءمة الجيدة بين الجوانب الفيزيائية، والنفسية/ الاجتماعية من

واللعب النشط (الإيجابي) (Loughlin & Suina, 1982)، وما دام الأطفال ينبغي أن يتحركوا إلى مراكز مختلفة للنشاط في الحجرات المفتوحة (Gump, 1974) فسوف تتوقع أن المعلمين ذوي الحاجة المرتفعة للنظام والسيطرة سيفضلون الحجرات الدراسية التقليدية عن الحجرات المفتوحة. وقد تأكد هذا على الأقل في دراسة واحدة (Feitter, Weiner, & Blumberg, Cited by Gifford, 1987).



شكل (٩ - ٢) ترتيب الجلوس في حجرات الدراسات التقليدية

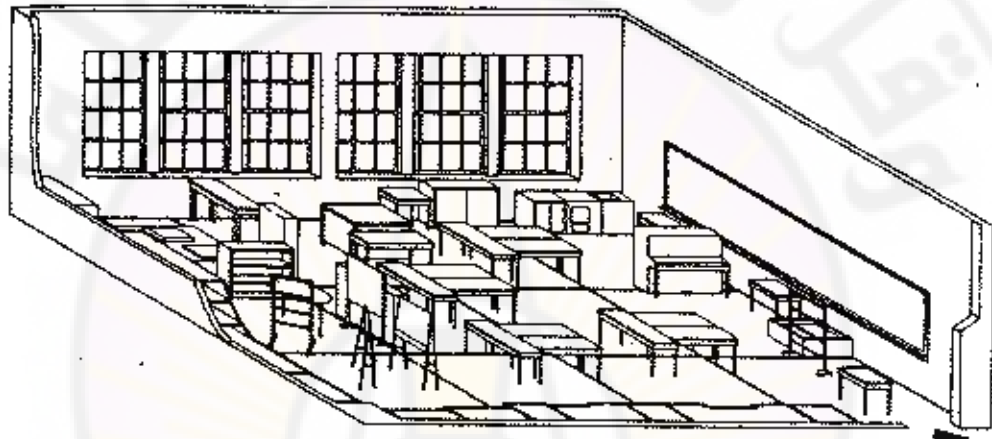
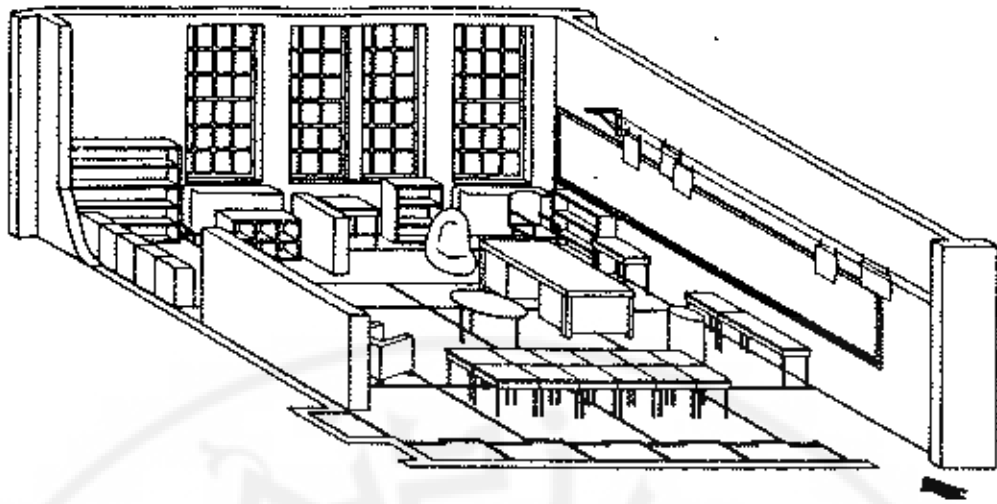
ولكن ما الفوائد التعليمية التي يمكن أن نتوقعها من نظام المدارس المفتوحة؟ هناك عدة أسباب تجعلنا نعتقد أن المرونة والحرية النسبية للحجرات الدراسية المفتوحة سوف تخفض الملل، وتزيد من اندماج التلميذ ودافعيته. وقد وجد زيفربلات Zifferblatt (١٩٧٢م) أن الترتيبات التي تشجع المعلمين على الحركة في الحجرة أكثر من الجلوس في المقدمة تؤدي إلى أن يكون التلاميذ أكثر انتباهاً وأقل إثارة للضوضاء. وتؤدي المدارس المفتوحة إلى زيادة التفاعل بين المعلمين (Meyer, in Weinstein, 1979) وبناء على ذلك، هناك عدة إشارات بأن الفصول الدراسية المفتوحة سيكون لها مميزات تعليمية حقيقية. وللإجابة عن السؤال بشكل استنتاجي، قارنت عدة دراسات - مباشرة - المخرجات أو النتائج التعليمية لتصميمين من الحجرات الدراسية. ولسوء الحظ، فإن البحوث الميدانية من هذا النوع تتعرض بسبب تشابك آثار الموقف الفيزيقي مع البرنامج التعليمي، نتيجة لصعوبة فصل النوعين من التأثيرات (Gump, 1987). وتعتقد المشكلة أكثر بمدى التغير في المناحي التعليمية الجديدة التي تصاحب التغير في بيئة حجرة الدراسة، وقد تم في كثير من الحالات تغيير المناهج المطورة في المدارس التقليدية ببساطة إلى الموقف الجديد. ومع وجود هذه القيود (التحديدات) في ذهن سوف أراجع بعض البحوث عن العلاقة بين تصميم حجرة الدراسة والأداء التعليمي. وفي الغالب الأعم فإن النتائج ليست مشجعة لمستقبل المدارس المفتوحة.

وعلى الرغم من أن بعض البحوث أوضحت الكثير بالنسبة لدور المهمة (Con-took activity) في التنظيمات المفتوحة أو الدائرية للجلوس (Rosenfield, Lambert & Black, 1985)، وجدت غالبية الدراسات أن التلاميذ الذين يجلسون حول المناضد يتفاعلون مع بعضهم البعض أكثر، ولكنهم يقضون وقتاً أقل في التركيز على المهمة التي بين أيديهم (Axelrod, Hall & Tams, 1979, Wheldall, Morris, Vaughan & Ng, 1981) كما أن التلاميذ في الحجرات الدراسية المفتوحة يقضون وقتاً أطول في الحركات غير الهادفة (Moore, 1983; Neill, 1982a) ويكونون مستعدين للمهام الجديدة، لكنهم يقضون وقتاً فعلياً

أقل عند القيام بهذه المهام (Gump, 1984, 1987). وهناك اتفاق كبير على أن حجرات الدراسة المفتوحة أكثر وضوءاً (Kyzar, 1977; Walsh, 1975) وأكثر تشتيماً (Ahrentzen, Jue, Shorpanich, & Evans, 1982; Rivin & Rothenberg, 1976; Stebbins, 1973).

وتؤكد وانيشتاين Weinstein (١٩٧٩م) أن نوعية البيانات في العديد من هذه الدراسات موضع شك، لأن طريقة ضبط متغيرات مهمة أخرى مثل الخلفية الأسرية للتلميذ، وطبيعة البرنامج التعليمي لم يكن مناسباً تماماً. وهي تعتقد أن سلوكيات التحصيل الفعلية لا تتأثر - إلى حد ما - بالبيئة الفيزيائية، ولكن السلوكيات غير التحصيلية مثل المواقبة، والمشاركة الفصلية، والرضا هي التي يحتمل أنها تتأثر بها. وإذا كانت معظم الدراسات التي قارنت التحصيل الأكاديمي الفعلي للأطفال في المدارس المفتوحة في مقابل المدارس التقليدية لم تجد فروقاً رئيسية، فإن الدراسات التي وجدت فروقاً في هذا الصدد تميل لأن تفضل المدارس التقليدية عن المدارس المفتوحة (Angus, Beck, Hill & McAtee, 1979; Bell, Abrahamsen & Growse, 1977; Bennett et al., 1980; Gump, 1987; Sanders & Weiss, 1975).

ويحصل التلاميذ في المدارس التقليدية - عادة - على درجات أعلى من تلاميذ المدارس المفتوحة في اختبارات التحصيل على الرغم من أن السبب في ذلك غير واضح (Wright, 1975)، وتبدو حجرات الدراسة المفتوحة غير مناسبة بالمرّة للتلاميذ منخفضي القدرة أو منخفضي الدافعية (Grapko, Cited by Gump, 1987; Reiss & Dydhalo, 1975) أو بالنسبة للتلاميذ الذين لا يتعلمون بلغتهم الأصلية (Traub & Weiss, 1974).



شكل (٩ - ٣ أ، ب)

حجرات الدراسة التي استخدمت في دراسة ريفلين Rivlin وروزنبرج Rothenberg
(المصدر: Proshansky, Ittelson & Rivlin, 1976).

وفي الحقيقة، فإن كل هذه البحوث أجريت في مواقف تعليمية فعلية. ويعتقد موري Moore (١٩٨٦م) على سبيل المثال أن مواقف السلوك ذات التحديد الجيد والحدود الواضحة سوف تيسر الانتباه، وتخفض التشويش في حجرة الدراسة. وقد اختبر فرضه في دراسة ميدانية في أربعة عشر مركزاً من مراكز رعاية الأطفال التي تتفاوت في ضوء مدى تحديد الأماكن فيها. ووجد أن المواقف جيدة التحديد ارتبطت بالسلوكيات المدعومة ارتقائياً بشكل جوهري مثل الاستكشاف، والتعاون، والسلوك الذاتي لدى الطفل الذي يركز على نشاطات معينة. وفي دراسة ميدانية أخرى اهتم ريفلين وروزنبرج Rivlin & Rothenberg (١٩٧٦م) بالحجرات الدراسية المفتوحة في المدارس الأساسية (التمهيدية) العامة في اثنتين من المناطق الحضرية.

ويوضح الشكلان (٩ - ١٣)، (٩ - ٣ ب) تخطيط هذين النوعين من الحجرات الدراسية. وقد تبعا موضع الأثاث والأدوات في الحجرات خلال العام المدرسي، ورسمنا خريطة سلوكية تصف موضع ونشاطات الأفراد خلال فترات الملاحظة. كما قاما في أثناء الدراسة بإجراء مقابلات مع التلاميذ والمعلمين. وعلى الرغم من الحرية الواضحة في الحركة وجد ريفلن وروزنبرج أن النشاط والحركة تحدث بداية في قطاعات مفتاحية قليلة من الحجرة، تاركة جزءاً كبيراً من حجرة الدراسة غير مستخدمة. كما كان هناك أيضاً كمية معتبرة من العمل الفردي مثل الكتابة، على الرغم من الهدف المقرر للمشروعات الجماعية، والتفاعل.

وكان نقص الخصوصية أحد الشكاوي المتكررة من جانب كل من التلاميذ والمعلمين في دراسة ريفلن وروزنبرج، وعلى الرغم من أن التلاميذ عبروا عن حاجة قوية للفراغات الخاصة Private Spaces، فإن دراسات أخرى (مثل دراسة وانيشتاين ١٩٨٢م) تشير إلى أن مثل هذه الفراغات نادراً ما تستخدم عندما تكون متاحة، وذلك لأنها ربما تولد الشعور بالعزلة، أو لأن هناك - في الواقع - حرية أقل للحركة عما هو ظاهر. إن نقص الخصوصية بالنسبة للمعلمين مشكلة أكثر خطورة ما دام المعلمون الذين يشتركون في النظام المفتوح قد يتجنبون دعوة ضيوف للحديث أو استخدام الآلات الموسيقية التي قد تصيب مجموعة أخرى في المنطقة بالتشتيت (Gump, 1987).

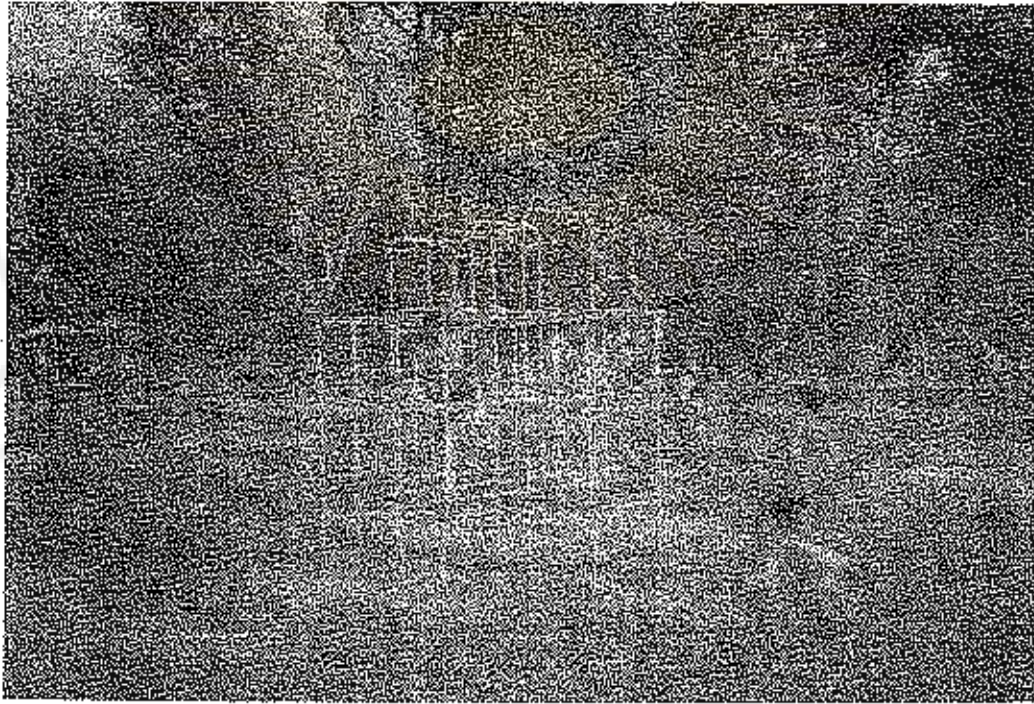
الأفنية المدرسية، والملاعب: Schoolyards and Playgrounds

يحدث الكثير من التعلم غير الرسمي للمهارات الاجتماعية واللعب البناء (المنتج) في أفنية المدارس وملاعبها، حيث يقضي الأطفال الوقت غير المخصص للدراسة. وتشير دراسات عديدة (على سبيل المثال، دراسة بيكر Becker ١٩٧٦، وموري Moore ١٩٨٠ وموري ويونج Moore & Young ١٩٧٨) إلى أن ما بين ٢٪ إلى ٤٢٪ من النشاطات اللاصفية (الخارجية) للأطفال تحدث في الملاعب العامة (الشعبية) بالإضافة إلى ٩٪ في أفنية المدارس، وقد تضاعفت أهمية هذه المواقع للأطفال من خلال دراسة أوضحت أن الملاعب والأفنية المدرسية هي المواقع التي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الشيوع في رسومات الأطفال، والواقع أنه عند تطوير المدارس يتم إغفال الأفنية المدرسية عادة. وما يزال العديد منها كما أطلقت عليه السيدة ألن هرتود

«السجن» "prison yard playgrounds" وتتكون من سطح خشن أو إسفلتي محاط بسياج دائري من الجنازير. (Cited in weinstein & Pinciotti, 1988) Lady Alen of Hurtwood «ملاعب ساحة

وطبقاً لرأي شو Shaw (١٩٨٧م). فإن الملاعب وأفنية المدارس ينبغي أن تتكون من فراغات مختلفة ومتنوعة ترتبط بممرات واضحة منظمة لتيسر كل أنواع التفاعل (اللفظية والبصرية إضافة إلى الجسمية). والتنوع والتعقيد هو الأمر المثالي المطلوب في مسطحات أفنية المدارس، غير أن العكس تماماً هو الموجود دائماً. وقد درست وانيشتاين وبنكيوتي Weinstein & Pinciotti (١٩٨٨م) التغيرات في سلوك اللعب لأطفال الحضانة من خلال ثلاثة مقدرين في فناء المدرسة. ووظفوا تصميم السلاسل الزمنية المتعددة (كما سبق وصفه في الفصل الأول) لفحص لعب الأطفال قبل وبعد إنشاء ملعب دائري بالإطارات تم إحاطته بسياج مثل المستخدم في رصف الطرق والأرضيات.

واستغرقت الإطارات حوالي $\frac{1}{3}$ (ثلث) المنطقة الإسفلتية، وتكونت من ثلاثة أبراج قائمة الزاوية مصنوعة من الإطارات المربوطة من خلال جسور الإطارات بثلاثة أكوام هرمية من الإطارات اثنين منها ينتهيان بلوحات منحدرية (مائلة).



صورة (٩ - ١): يتم عادة تجاهل أهمية الملاعب كبيئات تعليمية.

وهذا البناء أحيط بكامله بدعامات متوازنة من الخشب أو الإطارات البلاستيكية. كما كان هناك أيضاً جبل آخر من الإطارات يمكن الوصول إليه بدعامات التوازن و بحلقات متشابكة معلقة في القوائم. وقد وجدت وانيشتاين وبينكوتي زيادة هائلة في اللعب الإيجابي والألعاب المصطنعة بعد بناء الملعب الدائري (بالإطارات)، وانخفاض في الألعاب المنظمة، وانخفاض التعلق الدائري غير الاندماجي، وكانت اللعبة المفضلة في الملعب الجديد محاولة الأطفال الدوران حول المنطقة كلها دون لمس الحصى على الأرض، لأن هذا يعني أن الآلات المتحركة سوف تلتحق بالشخص (ص ٣٦٩). وذكر الأطفال أن الملعب بث فيهم الشعور بالكفاءة والنجاح خاصة كلما اقتربوا تدريجياً من مهام أكثر صعوبة تتطلب مهارة جسدية أكبر.

وعلى الجانب الآخر لاحظت وانيشتاين وبينكوتي أن هناك فيما يبدو تناقصاً في الكلام والتفاعل الاجتماعي المقصود، وزيادة في الصراعات المكانية عبر الأجزاء المختلفة من الجهاز.

وقد أكد باحثون آخرون العلاقة بين أسلوب اللعب وطبيعة فناء المدرسة، فالأطفال في الأفنية التقليدية بالمناطق الإسفلتية المسوّرة يميلون إلى لعب مباريات الكرة أو ألعاب أخرى متحررة من الأجهزة (Beth- Halachmy & Thayer, 1986) وخاصة في الصفوف الأعلى (Heusser, Adelson & Ross, 1986) ومما لا شك فيه أن هذا يرجع إلى النوعية المحددة والألفة اليومية بجهاز اللعب الموجودة في معظم أفنية المدارس.

وتحتوي الملاعب غير الملحقة بالمدارس - غالباً - على فراغات أكثر، وبناء على ذلك تكون هناك مرونة أكبر في تصميماتها. وقد ميز هايوارد Hayward وروزنبرج Rothenberg وبيزلي Beasley (١٩٧٤م) بين ثلاثة أنواع من الملاعب على النحو الآتي.

جدول (٩ - ١) توزيع مستخدمي الملاعب طبقاً للمجموعات العمرية

ملعب المخاطرة	الملعب التقليدي	الملعب المعاصر	ملعب المخاطرة
٢٩,٤٨	٣٥,٢٣	١,٧٤	ما قبل المدرسة.
٢٠,٨٤	٢٢,٢١	٤٤,٥٨	عمر المدرسة.
٩,٨٠	٦,٨٥	٣٢,١٦	المراهقون.
٣٩,٧٨	٣٥,٧١	٢١,٥٢	الراشدون.
١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	النسبة الإجمالية.
٪(٤,٢٩٤)	٪(٩,٧٦٥)	٪(٢٢,٣٦٠)	الملاحظات الكلية (ن =) .
١٠,٥	١١	١١	أيام التخطيط السلوكي

(المصدر: (Hayward, Rothenberg & Beasley, 1974)).

وتشمل الملاعب التقليدية الآلات المألوفة غير المعقدة (البداية) مثل المراجيح ومنحدرات التزلج، وأقفاص القروء، والقرص الدوار. أما الملاعب المعاصرة فتوفر آلات جديدة صممت كي تكون ممتعة وفعالة من الناحية الجمالية، وهي توفر - عادة - مواد للعب أكثر مرونة مثل أكوام الرمل، والرشاشات أو صنابير المياه، أما ملاعب المخاطرة (تسمى أحياناً ملاعب الخردة Junk) فتعد الأطفال بآلات غير معهودة مثل الإطارات، وقطع الخشب المصقول، وتلال الطين، وأوعية الحفر، وحفر (فتحات) المياه، وفرش الرسم. وتكون هذه الملاعب - عادة - مناطق غير مبنية كي تسمح للأطفال بأن يخططوا ويغيروا طبيعة الملعب كما يريدون.

وقد درس هيوارد وزملاؤه (١٩٧٤) الملاعب الحضرية الثلاثة السابقة، واحداً من كل نوع، بملاحظة السلوك، ووصف الموقف، وتسجيل الموقع، والعمر والنوع، وعدد الأشخاص في الملعب خلال كل فترة من فترات الملاحظة. وتم حساب السلوكيات الصريحة وتصنيفها في فئات من خلال ملاحظتين مدربين سجلوا أوصاف النشاطات القائمة على شرائط تسجيل. كذلك أجريت مقابلات مع الأشخاص (وخاصة الأطفال) الموجودين في الملعب. وقد وصف الأشخاص أسباب قدومهم وكيف يأتون عادة، وما أكثر ما يحبونه في الملعب، ومن صاحب فكرة المجيء إليه.

كما سئلوا أيضاً عن ملاعب أخرى سبق لهم استخدامها، ولعل الفرق الأكثر جذباً للانتباه بين هذه الملاعب هو الخاص بنمط الاستخدام الخاص بها (انظر الجدول ٩ - ١). ويلاحظ أن أطفال ما قبل المدرسة لم يتواجدوا في ملاعب المخاطرة إلا بنسبة ضئيلة جداً، ولكن يشيع وجودهم في الملاعب التقليدية والمعاصرة. أما الأطفال الذين هم في عمر المدرسة (من ٦ - ١٣ سنة) فكانوا يشكلون مجموعة كبيرة في كل الملاعب، ولكن وجودهم كان ملحوظاً بشكل خاص في ملاعب المخاطرة. وكان حوالي ٤٤٪ من كل الأشخاص الموجودين في ملعب المخاطرة هم من الأطفال الذين في عمر المدرسة، ولكنهم يشكلون ٢٠٪ فقط من الأشخاص في كل ملعب من الملاعب الأخرى. وقد شكل المراهقون ٣٢٪ من الذين كانوا في ملعب المخاطرة، ولكن نسبتهم في كل من الملعبين الآخرين كانت أقل من ١٠٪ وليس من المستغرب أن يتركز الراشدون بكثافة واضحة حيث يوجد أطفال ما قبل المدرسة. فالراشدون كانوا يمثلون المجموعة العمرية التي يشيع وجودها في الملاعب التقليدية والمعاصرة (فالعديد من الراشدين والمراهقين الذين وجدوا في الملاعب كانوا يقومون بدور القادة أو المرشدين في المعسكر اليومي). ويأتي الأطفال في ملعب المخاطرة - عادة - بمفردهم أو مع أقرانهم، أما الراشدون فيصطحبون الأطفال أكثر إلى الملاعب الأخرى، ربما لأن متوسط عمر الأطفال كان أصغر سناً في الملاعب التقليدية والمعاصرة، وربما كان ذلك لأن هذه الملاعب توفر مناطق أكثر راحة وملاءمة للراشدين للجلوس والملاحظة. ويرتبط بهذا أن الأطفال في ملعب المخاطرة قرروا بوضوح أنه كان ملعبهم المفضل، وأن الذهاب إليه كان قرارهم الشخصي لكن الأطفال في الملعب التقليدي كانوا أقل إقراراً بذلك.

وقد كانت أنشطة اللعب التي تمت المشاركة فيها في الملاعب المختلفة قابلة للتنبؤ. فالأطفال في ملعب المخاطرة قاموا ببناء قصور، ولعبوا ألعاباً خيالية، أما الأطفال في الملاعب الأخرى فقد ركبوا المراجيح ومنحدرات الترحلق ولعبوا في الرمال أو خاضوا البرك (أحواض المياه).

وعلى الرغم من أن هارت وشيهان Hart & Sheehan (١٩٨٦م) وجدوا

أن النشاط الجسمي يكون أقل في الملعب المعاصر عنه في الملعب التقليدي، فإن براون وبيرجر Brown & Burger (١٩٨٤م) يعتقدان أن الاختلاف بين الملاعب المعاصرة والملاعب التقليدية اختلاف مصطنع. وقد وجداء، كما تبين لهاوارد وزملائه (١٩٧٤م) فروقاً رئيسية قليلة بينها في سلوك اللعب، ومن ناحية أخرى فإن ملعب المخاطرة يعيد بشكل جذري المقولات التقليدية عما ينبغي أن يكون عليه. ويشعر هاوارد وزملاؤه أن ملعب المخاطرة مفيد في مساعدته للأطفال على تحديد أنفسهم بشكل أفضل، ولأنه يسمح لهم بإبداع أكثر في اختيار نشاطاتهم. ويذكر سيفاك Spivak (١٩٦٩م) أن الأطفال يحبون ملاعب المخاطرة بشكل كبير، لكن الراشدين يكرهونها لأنها أماكن غير جذابة، وغير منظمة وملئية بالخرقة.

وعلى الرغم من أن إضافة ملامح طبيعية مثل الخضرة والماء ترفع تقويمات الأطفال للملعب بشكل كبير (Moore, 1989a)، فإن هذه الملامح أنارت الوجود. وعندما تكون العناصر الطبيعية موجودة في الملاعب، فإنها في الغالب تضاف لأغراض جمالية أكثر منها لأغراض اللعب (Bruya & Langendorfer, cited by Moore, 1989b) ويصف موري Moore (١٩٨٩ ب) عدة مميزات لإدخال الطبيعة إلى الملعب بقوله: «إن المواد الطبيعية الحية، والمتغيرة دوماً، والمجددة لنفسها لها قيمة مرتفعة جداً للعب. فهي تثير الخيال، وتصلق تناسق العضلات من خلال اللعب على الأجزاء الخضراء، والعصتي، والوحل، وهي تشغل الأطفال في حل المشكلات عندما يبنون القصور من المواد الطبيعية. كما أنها تدعم الأنشطة التي تحتاج إلى عضلات أكثر من خلال ألعاب مثل «الاستغماية» hide and go-seek التي تُلعب بين خائل الشجر والأعشاب، وتسلق الصخور والأشجار،... وتؤثر المواقف الحية بقوة على حواس الأطفال البريئة (غير الفاسدة)، وتثير الإبداع لعالم من الخيال والبهجة الذي لا يعرف حدوداً للعقل والروح (ص ١٠١).

وتشير البحوث إلى أن الأنواع المختلفة من الملاعب يكون لها مميزات للأطفال في المراحل الارتقائية المختلفة فمقارنة المجموعة العمرية ونوع الملاعب

قد ييسر الخبرة التي يرغب فيها الآباء والمعلمون لأطفالهم. وقد وضع «موري» (١٩٨٩ب) قائمة بعدد من التوصيات لتحسين الملاعب؛ فهي ينبغي أن تشمل مداخل ومخارج رسمية يمكن أن تخدم على أنها أماكن إنزال وإركاب، وأماكن تجمع للتعارف (التلاقي)، والتوديع (الوداع) وتبادل الأحاديث. ويمكن أن توفر الممرات الأولية طرقاً واضحة لأماكن الخدمات مثل حجرات الاستراحة والهواتف والممرات الثانوية (خلال الخضرة أصلاً)، وسوف تشجع الاستكشاف وإقامة المباريات.

وينبغي أن تتوفر عدة مناطق للعب، فالمناطق المفتوحة المسطحة تشجع مباريات الكرة وألعاب الجري الأخرى، والتلال مفيدة للتسلق والتزحلق والدوران ومناطق اللعب بالرمال والماء ذات قيمة خاصة للأطفال الصغار. كذلك فإن العلامات الإرشادية التي تحدد الاتجاهات تعد مفيدة إذا تمت باستخدام رسومات بسيطة.

المتاحف وحدائق الحيوان:

- المتاحف:

تعتبر المتاحف مؤسسات تعليمية تثقف الأشخاص من مختلف الأعمار والخلفيات، وهي بعكس معظم المدارس، تحاول بصراحة الجمع بين التعليم والترفيه. وطبقاً لرأي ميهرابيان Mehrabian (١٩٧٦أ) فإن المتاحف (وخاصة متاحف الفنون) ينبغي أن تصمم لتزيد الاهتمام بالمعروضات إلى الحد الأقصى. وعلى الرغم من ذلك، يتم عادة تجاهل العبء البيئي للمبنى ذاته، والذي يؤدي إلى حجرات متحفية واسعة ومظلمة وتكون عملة ورتيبة. وهذا يمكن أن يولد مشاعر الإذعان (الخضوع) وعدم السرور، ويجعل زوار المتحف يتصرفون بطريقة رسمية تتسم بالخضوع (Mehrabian, 1976a). وعلى الرغم من أن هناك مجهوداً مقصوداً لعدم التقليل من تأثير العرض فإن هناك نوعية من الحجرات التي توضع فيها المعروضات طبقاً لثقلها التاريخي تكون أكثر فاعلية لتحقيق ذلك،

فالفنون الرائعة مرتفعة العبء ينبغي أن تعرض في أماكن متفرقة نسبياً، بينما القطع الرقيقة سوف تتبدد إذا وضعت في منطقة مهجورة بالفعل.

والمتاحف الغامضة التي يصعب على الفرد أن يجد طريقه فيها تكون أقل إمتاعاً عن تلك التي تكون أكثر وضوحاً وبروزاً (Mehrabian, 1976a; Winkely, Olsen, Wheeler & Cohen, 1976). وتؤدي الهاديات السياحية مثل الخرائط، والطرق التوضيحية لرؤية أنواع معينة من المعروضات، إلى أن يقوم الأشخاص خبرتهم بالمتاحف بشكل أكثر إيجابية (Borun, 1977).

وقد أوضحت البحوث المبكرة جداً في العشرينيات والثلاثينيات أن الناس يستكشفون المتاحف بشكل قابل للتنبؤ، فالزوار يفحصون دائماً المعروضات القليلة التي تصادفهم أولاً بتدقيق أكبر، ولكن بعد ذلك يبدأون في تخطي المعروضات بسرعة، ويستكشفون فقط المعروضات ذات الجاذبية الأقوى بالنسبة لهم. وهم يتحركون، لليمين تماماً، عند استكشاف الحجرات، وبالتالي يكونون أكثر ميلاً لاستخدام المخارج (أماكن الخروج) إلى حجرات أخرى يمكن رؤيتها بسهولة وتقع على يمينهم. ويسمى «الجذب» الذي تسببه أماكن الخروج «منحدرًا» أو نزعة الخروج (Melton, 1933) exit gradient.

ويؤدي الإجهاد الذي يعاني منه زوار المتاحف (Robinson, 1988) والذي يعد مشكلة شائعة يمر بها هؤلاء الزوار، إلى خفض الاستمتاع بزيارة المتحف بشكل كبير. ويرجع هذا في جانب منه إلى الإجهاد بسبب المشي في المتحف الذي يعد نتيجة محاولة الفرد بذل مجهود للمحافظة على درجة مرتفعة من الانتباه في مثل هذه البيئة ذات العبء المرتفع، وتؤدي زيادة العبء في المعلومات إلى العجز عن التركيز على التفاصيل. ويشير العمل المبكر لروينسون Robinson إلى أن أخذ فترة استراحة بتغيير طبيعة المعروضات قد تساعد على إزالة الإجهاد الناتج عن زيارة المتحف (Thomson, 1986). فعلى سبيل المثال، يمكن تغيير طريق المرور في متحف تاريخ طبيعي مملوء بمنتجات الأمريكيين الأصليين، من خلال حجرة عرض واسعة لحيوانات مميزة وذات أهمية لحياة الناس في ذلك

الوقت. هذا المتنفس المعرفي يسمح للزوار بالتركيز على بنود مختلفة ويريح عملية الانتباه للمثيرات المشابهة شديدة التفاصيل لفترات طويلة من الوقت.

- حدائق الحيوان:

تعتبر حدائق الحيوان أوسع بيئة تعليمية ترفيهية في أمريكا الشمالية، وقد تزايد عدد حدائق الحيوان في الولايات المتحدة من ٥٥ حديقة في عام ١٩٣١م إلى ١٣٥ حديقة في عام ١٩٨٨ م (Martin O'Reilly, 1989) ويزور حدائق الحيوان ١١٠ مليون فرد سنوياً في الولايات المتحدة (Boyd 1988)، والأصل في حدائق الحيوان أنها أنشئت لتسلية الإنسان، غير أن هذا المقصد تغير ببطء. ويشمل الغرض من إنشاء حدائق الحيوان - بشكل متزايد - الحفاظ على الأنواع النادرة، وتوفير الراحة والأمن للحيوانات. ويعتبر التداخل بين الزوار والمعرضات مسألة دينامية في حديقة الحيوان مقارنة بالمتاحف لأن الحيوانات كائنات حية. (Martin & O'Reilly, 1988). ومنذ الستينيات، بذلت حدائق الحيوان مجهوداً كبيراً لتحقيق ذلك، ولتطوير القيمة التعليمية من زيارات حديقة الحيوان، وتراوحت الجهود بين إنشاء أقسام تعليمية جديدة في حدائق الحيوان، وامتدت إلى إيجاد سبيل لوصول البرامج المجتمعية الخارجية الموجهة أساساً لأطفال المدارس (Serrell, 1988) وبعد كل هذا فإن حدائق الحيوان هي الرابطة الوحيدة بين الإنسان المتحضر المعاصر وبين الحيوانات المتوحشة (Livingston, 1974).

وعلى الرغم من أن زوار حديقة الحيوان يكونون من مستويات تعليمية أعلى من المتوسط وذوي مكانة اجتماعية اقتصادية مرتفعة (Hood, 1984; Reed & Mindlin, 1963) فقد لاحظ سيريل Serrell (١٩٨٨) أن المجموعات الزائرة لحديقة الحيوان ليست متحضرة (راقية) في معرفتها بالحيوانات، فاهتمامهم بالحيوانات اهتمام انفعالي وعاطفي أكثر من أن يكون اهتماماً قائماً على الفهم الحقيقي. وتوضح الدراسات أن مجموعات أخرى مثل مشاهدي الطيور، والصيادين وأعضاء المنظمات الإنسانية البيئية يحصلون على درجات أعلى من زوار حديقة الحيوان على الاختبارات التي تقيس معرفتهم بالحيوانات (Keilert, 1988).

ويعتبر الذهاب لحديقة الحيوانات بالنسبة للكثيرين منهم حدثاً اجتماعياً للاستمتاع مع الأطفال والأقارب. وقد وجد أن ٧٠٪ من الذين يزورون حديقة الحيوان في مجموعات هم من الأقارب (Brennan, in Serrell, 1988) و ٥٠٪ من كل المجموعات تضم أطفالاً (Rosenfeld, in Serrell, 1988) وبعيداً عن الجانب الاجتماعي يذكر الزوار فوائد أخرى من زيارتهم لحديقة الحيوان مثل: الاسترخاء، والتعلم غير الرسمي، والخبرات الجمالية (Loomis, in Serrell, 1988).

ومادام هناك تفاوت بين الدافعية والخلفية لدى زوار حديقة الحيوانات فإنه ينبغي على المصممين أن يكونوا حريصين على جعل المكون التعليمي لحقائق الحيات أمرأ مطلوباً جداً. فمعظم زوار حديقة الحيوان لا يقرأون العلامات، وبالتالي ينبغي أن تكون قصيرة، وملفتة للنظر ومناسبة جداً عندما تقرأ (Serrell, 1988). ومن أجل تطوير العلامات والرسوم الأخرى المعروضة في حدائق الحيوان، ينبغي أن يتم التحول عن الفلسفة التعليمية البحتة إلى فلسفة أخرى تعنى أكثر بجعل الخبرة بحدائق الحيوان ممتعة إلى أقصى حد ممكن (Serrell, 1988) وتعتبر المعارضات التي يهتم بها الزوار إيجابياً ويخبرونها من خلال اللمس، والاستماع واللعب أكثر فعالية عن العلامات الإرشادية (التلقينية) لتقديم معلومات جديدة عن الحيوانات. وعلى سبيل المثال، تعرض حديقة حيوان بروكفيلد في شيكاغو Chicago Brookfield's Zoo «المشي الطائر» Flying Walk وهو ما يجبر الزوار على تحريك الأجزاء العليا من أجسامهم والزارعين لمحاكاة حركة الشكل الثامن من أجنحة الطيور عند الطيران.

وأوضحت دراسة قبلية - بعدية للراشدين والأطفال الذين زاروا هذا العرض مكاسب واضحة للمعرفة عن ميكانيكا الطيران (Birney, 1988) وبالمثل، فإن زوار معرض «كوبوجي الصخور الأفريقية» في حديقة حيوان «سان دياجو» San Diego الذين حصلوا على ميزة العناصر التفاعلية للمعرض تعلموا علماً جوهرياً أكثر عن النظام الصخري المماثل في سهول أفريقيا مقارنة بأولئك الذين نظروا إليه ببساطة أو قرأوا العلامات (Derwin & Piper, 1988). وتميل المعارض التفاعلية إلى جذب الناس إليها (Bruce, in Derwin & Piper, 1988) فهي تقدم خبرات تعليمية على

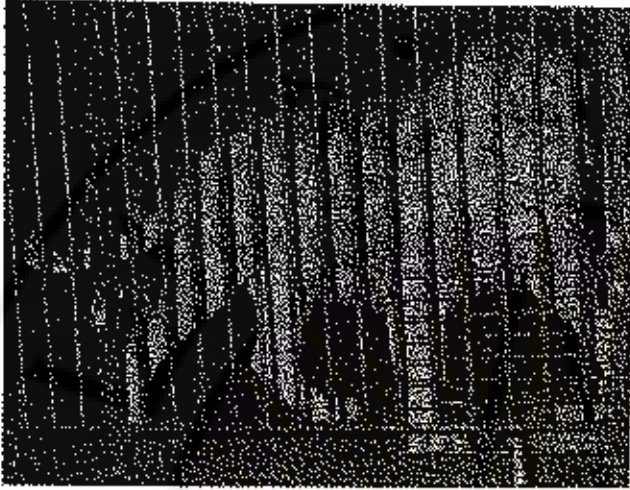
المستويات المعرفية المختلفة، وتعطى مدى واسعاً من أساليب التعلم (Lee, 1985; Plaisance ; 1984; Webster, 1985; White, 1986) كذلك تدعمت القيمة التفاعلية للمعروضات في المتاحف بقوة (Danilov, 1982; Fleming & Levie, 1978; Peart, 1984). ولعل العيب الوحيد في المعارض التفاعلية أن تطويرها والحفاظ عليها مكلف (Derwin & Piper, 1988).

ويعد فهم استجابات الزوار لمعروضات حديقة الحيوان أمراً مهماً لتحسينها وتطويرها؛ لأن طرق العرض السيئة قد تؤدي بالزوار إلى تكوين انطباعات غير صحيحة عن الحيوانات وخلق مشاعر سلبية؛ وهذه الاتجاهات يمكن أن تعمل ضد الحفاظ على الحياة البرية (Coe, 1985; Maple, 1983; Sommer, 1972b) ومن المعارض ذات الأهمية الخاصة تلك التي تزيل الخوف وسوء الفهم عن الحيوانات، وتلك التي تشمل الحيوانات قبيحة المنظر، والقدرة، أو ذات الحركات المفاجئة غير القابلة للتنبؤ. ويرى فنلاي وجيمس ومابل Finlay, James & Maple أن بيئة حديقة الحيوان يمكن أن تؤثر - في الواقع - على إدراكات الزوار للحيوانات.

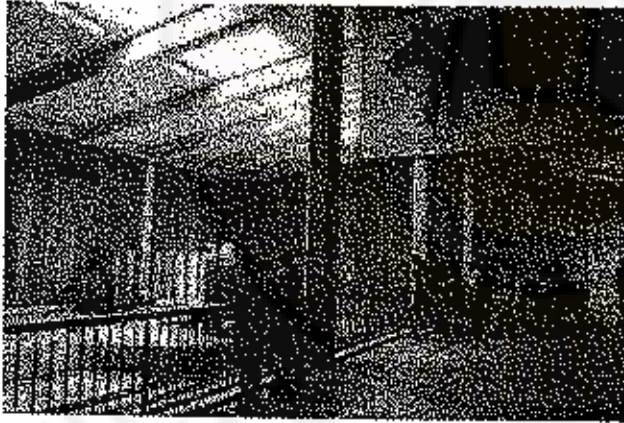
وقد شاهد المبحوثون في هذه الدراسة شرائح لحيوانات صورت في البرية أو في حديقة حيوان طبيعية، أو حديقة حيوان مغطاة، وتمت مقارنة أحكامهم على الحيوانات ببعضها البعض، وبأحكام مجموعة ضابطة قدروا (رتبوا) الحيوانات دون مشاهدة الشرائح. وقد قدرت الحيوانات وهي في كل حدائق الحيوان على أنها مقيدة أليفة سلبية مقارنة بها عندما شوهدت في البرية، أو عندما قدرت بواسطة أناس لم يسبق لهم رؤيتها في أي سياق. كذلك فإن حدائق الحيوان تمدنا - في بعض الأحيان - بانطباعات مؤداه أن الحيوانات ليست ضارة، ويمكن مصادقتها.

وقد مرت طرق العرض في حدائق الحيوان بثلاثة أجيال من التطور (Campbell, 1984)، بدأ الجيل الأول في منتصف القرن الثامن عشر (انظر الصورة ٩ - ٢ أ) وكانت في العادة صغيرة وعبرة عن أقفاص متجاورة أو عميقة، وذات حوائط ناعمة. أما الجيل الثاني من العرض فهو النوع الشائع

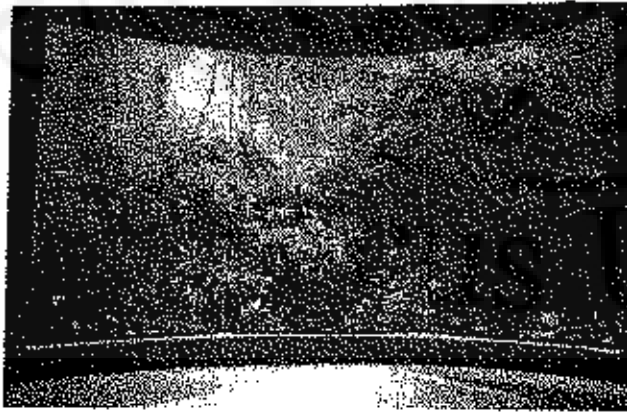
الذي نشاهده في حدائق الحيوان الآن انظر الصورة ٩ - ٢ ب) أما معارض الجيل الثالث فيعرض الحيوانات في مجموعات طبيعية التكوين مع الخضرة والمروج الشبيهة بتلك التي توجد في البيئة الطبيعية للحيوانات (انظر الصورة ٩ - ٢ ج).



صورة (٩ - ٢ أ): معرض حديقة الحيوان من الجيل الأول.



صورة (٩ - ٢ ب): معرض حديقة الحيوان من الجيل الثاني.



صورة (٩ - ٢ ج): معرض حديقة الحيوان من الجيل الثالث.

وقد فشل الجيل الأول من المعارض في التصدي بشكل جيد لكل حاجات الحيوانات، ويوفر الجيل الثاني من المعارض فراغاً أكبر ومناظر جيدة للزوار، ولكنه ما يزال عقيماً ومملاً بالنسبة للحيوانات. وسوف يكون الجيل الثالث أفضل بالنسبة للحيوانات، وأكثر إمتاعاً وتعليماً للزوار (Maple, 1983; Maple, 1982; & Stine, 1982).

وعلى الرغم من ذلك، لا توجد سوى بحوث ضئيلة جداً عن جدوى الجيل الثالث من المعارض، وفي إحدى الدراسات الحديثة، قارنت شيتيل - نيوبير Shettell- Neuber (١٩٨٨م) استجابات الزوار، والمسؤولين بالحديقة، والحيوانات لمعارض الجيل الثاني والثالث في حديقة حيوان سان دياجو، وعندما أجرت تلك الدراسة كانت هناك معارض متفصلة من الجيل الثاني والثالث لكل من إنسان الغابة البوريني Bornean Orangutans وقرودة الشمبانزي الصغيرة (الأقزام) Pygmy Chimpanzees، وقد تبعت بحرص أنماط النشاط للحيوانات في المعارض، وكذلك بالنسبة للزوار، وقد حددت الباحثة طول إقامة الزوار في المعارض زمنياً، وأعطتهم استبانات، وأجرت مقابلات مع هيئة العاملين بالحديقة. ولم تجد فروقاً حقيقية في النشاط أو الصحة لدى الحيوانات في كل من نوعي المعارض. وقد عبر الزواره وهيئة العاملين عن حُب كبير لأساليب العرض من الجيل الثالث على الرغم من أن هيئة العاملين رأت أنه أكثر صعوبة من حيث إمكانية الاستمرار والحفاظ عليه. وقد كان الوقت الذي قضاءه الزوار دالة لنوع الحيوانات إلى حد ما، فقد كان إنسان الغابة السلبي وبطيء الحركة هو الأطول ملاحظة في معرض الجيل الثالث، ولكن القردة النشطة كانت مشوقة وأسهل في رؤيتها ومتابعتها في معرض الجيل الثاني.

ولعل الدراسة الأكثر عمومية عن زوار حديقة الحيوان تلك التي نفذها بيتجود Bitgood وبياترسون Patterson وبنيفيلد Benfield (١٩٨٨م). فقد درسوا سلوك الزوار في ١٣ حديقة حيوان عبر الولايات المتحدة، وكانوا معنيين

- بوجه خاص - بطول الوقت الذي يقضيه الزوار في مشاهدة حيوان معين في مكان عرضه . وقد لخصوا نتائجهم الرئيسية كما يلي :

- ١ - حظيت الحيوانات النشطة بوقت مشاهدة ضعف الحيوانات غير النشطة .
 - ٢ - ارتبط زمن النظر (المشاهدة) مباشرة بحجم الحيوانات، وبصفة عامة، كلما كان الحيوان أكبر طال زمن مشاهدته .
 - ٣ - ارتبط وجود حيوان وليد (صغير) بزيادة زمن المشاهدة .
 - ٤ - أدت المنافسة البصرية بين المعارض إلى تناقص وقفات الزوار .
 - ٥ - أثر اقتراب الزائر من الحيوان على توقف الزائر . فكلما كان الحيوان أقرب إلى الزائر زاد احتمال توقف الزائر .
 - ٦ - ارتبط وضوح أو بروز الحيوانات بزمن المشاهدة لدى الزوار . وعليه فإن مستويات الإضاءة المنخفضة، والحواجز البصرية، وعوامل الحجب البصري ارتبطت بفترات المشاهدة القصيرة لدى الزوار .
 - ٧ - يبدو أن الملامح الفيزيائية للمعرض ترتبط بكل من نسبة الزوار الذين يتوقفون وكمية زمن المشاهدة (ص ٤٨٩) .
- واقترح مارتن Martin وأورييلي O'Reilly أن حقائق الحيوان التي تحتوي على الماء تكون شديدة الجاذبية للزوار وبخاصة الأطفال .
- وتعتبر التضمينات الخاصة بهذه النتائج بالنسبة لتصميم حقائق الحيوان واضحة، فالمعارض مرتفعة الجاذبية لا ينبغي أن توضع متلاصقة مع بعضها البعض لأن هذا يخفض الازدحام إلى حده الأدنى، ويزيد زمن المشاهدة لدى الزوار لكل معرض، وينبغي أن تصمم المعارض بحيث تظل بعض الحيوانات في وضع بارز دائماً . أما الأماكن المخفية فينبغي أن تقام بحيث تظل الحيوانات بارزة للزوار دون أن يسبب ذلك ضغطاً للحيوانات . ومن الممكن - غالباً - أن يحجب الزوار عن الحيوانات دون أن يحدث العكس . وما دام حجم الحيوان

عاملاً مهماً فإن مشاهدة الأنواع الصغيرة تكون مفضلة أكثر في المعارض التي يمكن مشاهدة الحيوان فيها عن قرب .

هذه الاقتراحات قد لا تكون محل تقدير من كل الزوار . وقد وجد فيردربر Verderber ، وجاردنر Gardner وإسلام Islam وناكانيشي Nakanishi (١٩٨٨) أن المواطنين الخبراء أقل اهتماماً بالمعارض التفاعلية، ولا يحبون معارض حدائق الحيوان الأقرب والأكثر انفتاحاً. هؤلاء الأفراد ليسوا معتادين على التفكير في حدائق الحيوان بهذه المصطلحات وغير مستريحين لفكرة أن تكون الحيوانات المتوحشة طليقة متحررة في مكان مفتوح .

ملخص الفصل :

إن التصميم الفيزيقي للمدارس وحجرات الدراسة مكون مهم في العملية التعليمية، وتوضح الدراسات أن مواضع الجلوس وما إذا كان الفصل منظماً بطريقة تقليدية مثل صندوق البيض أو حجرة دراسية مفتوحة يمكن أن يؤثر في تحصيل التلميذ، ومشاركته ورضاه. وعلى الرغم من أن نتائج البحوث ما زالت غير حاسمة، فإن معظم الدراسات تشير إلى أن التلاميذ في الفصول التقليدية يفوقون أقرانهم في الفصول المفتوحة في الأداء.

ويتم عادة إغفال تصميم أبنية المدارس والملاعب من حيث كونها بعداً في بيئات التعلم، وقد بدأت الدراسات الحديثة توضح أن نوع اللعب الذي يغيري الأطفال في هذه البيئات تمليه الشروط الفيزيكية للملعب بدرجة كبيرة.

وتعتبر المتاحف وحدائق الحيوان مؤسسات تعليمية متاحة للأشخاص من كل الأعمار والخلفيات. وينبغي أن تصمم هذه الأماكن كي تكون واضحة وممتعة. وينبغي أن يكيف العبء البيئي في المتاحف لكي تقلل التعب الناتج عن زيارة المتحف لحده الأدنى. وينبغي أن تأخذ حدائق الحيوان في اعتبارها البحوث الحديثة التي تؤكد العلاقة بين الحيوانات المعروضة والتصميم الفيزيقي لأماكن العرض، وخصائص زوار الحديقة لجعل خبرة زيارة الحديقة تعليمية وسارة إلى أقصى حد ممكن.

